جورجي امادو

البزة والرداء وقميص النوم

حكاية خرافية من أجل إضاءة أمل

نقلها الى العربية عوض شعبان



جورجي امادو

البزة والرداء وقميص النوم

حكاية خرافية من أجل إضاءة أمل

نقلها الى العربية

عوض شعبان



١٩٩٢

JORGE AMADO

FARDA FARDÔO
CAMISOLA DE DORMIR

ROMANCE

FABULA DARA ACENDER UMA ESPERANÇA

TRADUÇÃO ARABE
POR
AWAD CHABAN

دار الفارابي

الطبعة الأولى

1992

الكتاب البزة والرداء وقميص النوم
حكاية خرافية من أجل إضاءة أمل

المؤلف جورجي آمادو

ترجمها عن البرتغالية عوض شعبان

الناشر دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ص.ب: ١١/٣١٨١ ـ ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش. م. ل

الطبعة الأولى ١٩٩٢

تصميم الغلاف نجاح طاهر

هذه الرواية المختلفة

يثبت جورجي آمادو دائماً أن قدرة الفنّان العظيم على التجديد لا يمكن أن تتوقف. هكذا عرفناه في جميع أعماله. دائماً يفاجيء القارىء بأن لديه مخزوناً إبداعياً يكشف جزءاً منه في كل عمل روائي له يتميّز بالموسوعية والشمولية.

في هذه الرواية «البزّة والرّداء وقميص النوم» التي هي أهمّ مدماك في بناء عمل آمادو التجديدي من حيث الشكل والمضمون، تمرّد الكاتب على الأساليب المعروفة في الكتابة الروائية، فاختفت معالم السرد التقليدي وتشابكت الضمائر مع بعضها بين المتكلّم والمخاطَب والغائب، وتناثرت في صفحات الرواية صيغ جديدة كانت غير مألوفة قبل أن يستخدمها هو لتغدو مألوفة. وهذه ميزة كتّاب الرواية العظام الذين يتحوّلون بعد رسوخ شأنهم في عالم الرواية الشامخ إلى معلّمين في هذا الفن الذي هو وحده يستوعب كل الفنون. بدليل أن هذه الرواية كمعظم رواياته، تغوص في مجالات الأدب، شعراً ونثراً، فتتكلّم عن شعراء برازيليين وفرنسيين، وعن كتّاب محلّيين وأجانب، عارضةً نماذج من نتاجاتهم، مستعرضةً بعض الصيغ والمفردات التي يلجأ إليها النقّاد، في تقريظ وهجاء الأعمال الأدبية، في إطارٍ من السخرية الآمادوية بالطبع، كاشفة النفاق الذي يتآكل في نفوس هؤلاء، فيُفقدون رسالة النقد قيمتها الحقة.

وبرغم جنوح هذه الرواية إلى ما يتعدّى الواقعية، وهو نفسه يدعوها: حكاية خرافية، فإن الواقع المتخيَّل لحمتها الأساسية. فعشنا مرة أخرى في أجواء الكابوس النازي ـ الفاشي الذي كان مخيّماً على العالم قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، فإذا الوحشية والعسف عنوانان رهيبان لقدرة الأفكار العنصرية والعرقية

والتفوّقية على اغتيال البشر والقضاء على الحضارة.

لقد عالج آمادو أثر النازية في البرازيل مستوحياً مما حدث لفرنسا على يدها، ليبيّن شمولية هذا الخطر وعدم اقتصاره على التخوم الأوروبية، كعدوى تنتشر مع الريح من البلد المنشأ لتعمَّ العالم في ما يشبه العاصفة الهوجاء.

وهنا يربط الكاتب الماضي بالحاضر ليبلغ مشارف المستقبل. فما حدث في التاريخ العالمي نرى أنماطاً بشعة منه الآن في كل مكان، خصوصاً في العالم الثالث، حيث العسف والبطش من خلال الأنظمة الديكتاتورية يبرزان على ركام الحرية والنزعة الإنسانية في كافة المجالات وأخصّها المجال الفكري الثقافي الذي يُقيّد في اغلال الوطنية تارة وغير الوطنية طوراً، وكأن «الدولة الجديدة» التي تكلّمت عليها الرواية مبثوثة في معظم أفكار هذا العالم الثالث.

الجيل الحاضر الذي لم يتسنَّ له الوقوف على ويلات الديكتاتورية النازية الفاشية سيكتشف أن الشر لا يدوم أبداً وإن دام طويلاً، وأن الخير هو المنتصر في النهاية. ولعلّها مأثرة جورجي آمادو الكبرى في مفهومه الروائي. فلا يمكن له أن يترك الشر يتغلّب على الخير، لأن هذا نذيرٌ بانتصار الباطل على الحق، وعندها تفقد الحياة بمجملها كل لون ومذاق. وهو ما يرفضه كاتب عاش من أجل قضية الإنسان، وكانت إنجازاته ـ برغم نكهتها البرازيلية المحلية ـ مكرّسة لخدمة هذا الإنسان، من خلال تصدّيه للشر والباطل وإيثاره الخير والحق الباديين في معالجاته لأكثر وجوه الحياة تأثيراً في المجتمعات البشرية.

جورجي آمادو، ليس آخر الروائيين الموسوعيين الذين يكتبون في كل شيء ويفهمون كل شيء، بل إنه آخر الكتّاب العظام الأحياء.

المترجم

إلى زيليا، مستعيدة طفولتها في بيدرا دو سال.
إلى شقيقاتي فاني، لو وميزيتي.
إلى ذكرى آفرانيو بيشوتو.
وانطونيو دا سيلفا ميلو.
إلى آلسيو آموروزو ليما وجوان كونديه
اللذين عرفا قصص تلك الأزمنة.

«.. المجد الذي يبقى، عالياً، شرفاً وعزاءً».

(ماشادو ده أسيس حول الأكاديمية البرازيلية للآداب)

«Quelle connerie la guerre» [1]

(Jaques Prevért, «BARBARA»)

«هايل هتلر»

(تحية مستخدمة بما فيه الكفاية في تلك الفترة).

«No PASSARAN!» [2]

(كلمة الأمر التي أطلقتها «لاباسيوناريا» في الحرب الإسبانية، التي أعادها الأكاديمي الهرم إيفاندرو نونيس دوس سانتوس)

---

(١) في الفرنسية: يا لتلك الحرب السافلة.

(٢) في الإسبانية: لن يمروا.

هذه الحكاية الخرافية تروي كيف أن أديبين، أكاديميين وليبراليين قديمين، مضيا إلى الحرب ضد النازية، الديكتاتورية والاستقواء. وأيّ تشابه في الأنماط، التنظيمات، الأكاديميات، الطبقات والسلالات، الأشخاص ومنجزات الحياة الحقيقية، هي محض مصادفة بسيطة، إذ أن الحكاية الأملوحة نتاج خاص لمخيلة وتجربة المؤلف. الحقيقي هو فقط ديكتاتورية «الدولة الجديدة» مع شريعة الأمن بالسلاح، ماكينة القمع، السجون الملأى، قاعات التعذيب والظلامية، والحرب العالمية الثانية الكبرى، التي أطلقتها النازية ـ الفاشية في لحظتها الأسوأ، حينما اعترى الضياع كل شيء وانتهى الأمل.

القسم الأول

إعدام الشاعر أنطونيو برونو
الذي جرى نتيجة سقوط باريس
أثناء الحرب العالمية الثانية

القصيدة[1] التي لم تنظم

توفي الشاعر أنطونيو برونو، ضحية النوبة المتفجّرة - الثانية في مهلة قصيرة - في ٢٥ أيلول ١٩٤٠. الصباح المشرق، ذو الجو الصافي، والحرارة السارّة، استحضر له ذكرى صباح آخر كهذا، شفّاف، يتسرّب من الكوّة، مضيئاً الاستديو الباريسي، ومغلّفاً قميص النوم الوردي والشفّاف، الجسد العاري للمرأة الغافية، إنها رؤية خليقة بقصيدة[1]، فكر ولكنه لم ينظمها إذ أن الفتاة استيقظت ومدّت له ذراعيها.

وعندما تذكر، تناول ورقة وقلم حبر، وبخطه الجميل الذي يرسم تقريباً خطّ على أعلى الصفحة ما يجب أن يغدو بالتأكيد عنوان قصيدة حب: «قميص النوم»؛ صارت الذكرى مؤلمة، معذّبة، أوّاه ليس أبداً بعد الآن! فلم يُتَح للشاعر وقت لأي قصيدة؛ فرفع يده إلى صدره وأنزل رأسه فوق الورقة، ثم أنشأ مركزاً شاغراً في الأكاديمية البرازيلية.

النوبة الأولى اقترفها بالضبط قبل ثلاثة شهور، مع سماعه، في برنامج إذاعة، نبأ سقوط باريس.

---

(١) في الأصل SONETO وهي القصيدة المؤلفة من أربعة عشر بيتاً مقسمة إلى رباعيتين وثلاثيتين.

معركة قاسية ودامية

معركة، أجل، ويا لها من معركة! ـ كان يؤكد المعلّم آفرانيو بورتيلا الذي صار قاطعاً مع التقدم في العمر. ولمناسبة الأحداث المعقّب عليها، ناقش مبرهناً الطبيعة العالمية للحرب: نحن جميعنا متوّرطون فيها: قال، إن ميدان الصراع ليس له حدود من أيّ نوع كان، جغرافية أو عسكرية. وأيّ سلاح هو ذو جدوى ومناسب، وأقلّ نصر يضيء أملاً.

مع مضي الوقت، أخذ الثمانيني ذو الحديث المميز والمغري، ذو اللسان الطليق، وهو متحدث لا مثيل له، يبرز نفسه أن فيه ميلاً لتوسيع تناول الحدث والدروس المستخلصة، معلناً نفسه، شبه جدي وشبه ساخر، عضواً فعّالاً في المقاومة الفرنسية، المقاتلين السرّيين[1]، قائداً في حرب العصابات ـ وهكذا تصرّف، كما يبدو.

هكذا قد تصرّفا، بالأحرى، هو والأستاذ الجسور إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، رفيقه في المؤامرة، وحسب شهادة آفرانيو بالذات، وهو مقدام وغير متسامح في الوجه الثاني من العمليات:

ـ أنا كنت أعتبر نفسي راضياً، مقدّراً أننا قد أدركنا أهدافنا، لكن إيفاندرو لم يتآلف مع ذلك، كان الأمر معه: كل شيء أو لا شيء.

المعلّم آفرانيو بورتيلا لم ينسَ أن يضيف بأن هذه المعركة، التي هُزمت فيها القوى العالمية للنازية الفاشية والقوى الوطنية للرجعية، والاستقواء، لم تكن قاسية وحسب إنما دامية أيضاً.

---

(١) MAQUIS : رجال المقاومة الفرنسية ضد النازية.

الطارئة التاريخية

معركة، انتخاب بسيط، اقتراع، وأكثر من ذلك، مختزل إلى جمعية، إلى عدد صارم من الناخبين، فقط تسعة وثلاثين، هم التسعة والثلاثون أكاديمياً على قيد الحياة.

من دون أن يريد تعتيم المهمة وأهمية الانتخاب لعضو جديد في الأكاديمية البرازيلية للآداب، موضوع المتابعة في الصحافة وفي الأوساط الفكرية وهو معطى لا يمكن نكرانه أيضاً إزاء ما يناقش فيه عن مكانة الهيئة، ينبغي التوافق على أنه كان يتعاطى مع واقعة النقل المحدد في زمن الأحداث التاريخية الهائلة والمرعبة، إذ حدث في معمعان الحرب العالمية الثانية، في العام ١٩٤٠، أو ليكن، عندما قدمت جيوش الفيهرماخت[١] المنتصر للاستيلاء على فرنسا واللوفتفاف[٢] تدك مدن وريف إنكلترا؛ وبالنسبة إلى الأغلبية، ربما كانت هزيمة الأمم الديمقراطية لا مبرّر لها، والانهيار الشامل لن يتأخر ـ مسألة وقتٍ قصيرٍ جداً. وكان هتلر يعلن أن حقبة الألف سنة من الهيمنة النازية قد انخرطنا فيها. إنه زمن الخوف واليأس.

ألف سنة؟ كم من أجيال العبيد؟ الطائرات الألمانية تغطي سماء لندن، في قصف متواصل، والدبابات الغازية تحتل أراضي بلدان أوروبا، وبولونيا اختفت من الخريطة، ولم تعد تُسمع موسيقى الفالس من فيينا حتى ولا يُلفظ الإسم الامبراطوري للنمسا. وفي البرج القديم في براغ كان يرتجف العلم ذو الصليب المعقوف وفي صدر اليهود كانت نجمة داوود زهرة من الدم. دماء ووحل، رعب وسفالة، خاضعون

(١) WEHRMACHT : الجيش الألماني في عهد النازية.
(٢) LUFTWAFFE : الطيران الحربي في عهد النازية.

للحماية وفارضو الحماية، الغستابو[1]، ال SA[2] وال SS[3]، معسكرات الاعتقال، قاعات الغاز، العار والموت. زمن الخوف وخيبة الأمل. زمن القنوط.

في البرازيل تحت وطأة دستور شمولية الدولة الجديدة، في صلاحية حالة الحرب، انعكاس انتصارات المحور، بلغ القمع لحظته في القسوة العظمى، والظلامية. وحب ألمانيا النازية كان يحدد السياسة الحكومية: رقابة كاملة على الصحافة، وقانون الأمن الملحوظ جداً ومحكمته الخاصة بالإدانة، وبدون أي ضمانة فردية، ولا أيّ حق، ولا أيّة حرية، وسلطان الشرطة يمارس بشكل مطلق، بلا أيّ قيد. في الإصلاحيات، في مستعمرات التأديب، في أقبية الشرطة المتنوعة، السجناء السياسيون والتعذيب.

في الساعة المحددة التي أخبر فيها الأكاديمي ليزاندرو لايتي بالهاتف، وهو مذعور، العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا لإعلان النبأ المحزن والمفرح لوفاة الشاعر برونو، وهي مخابرة هاتفية أعطت بداية لتحرك القوى، كان عامل السكة الحديدية إلياس، المعروف أيضاً بالنبي، اسم الحرب، معلّقاً في الهواء، مرفوعاً بإلياس، في ثكنة الشرطة الخاصة. لقد أراد رياضيو ذلك الجهاز الصدامي، قلاع النظام، أن يذكر النبي المعتقل قبل يومين، أسماء، ويكشف عناوين وارتباطات. المثير للغرابة أن بعض المقاطع من قصيدة حديثة، قُرئت في نسخة متسخة مطبوعة بالاستانسيل، هرعت إلى السجين العنيد في صمته، ودعمته في التجربة الفظيعة ولم تدعم أيضاً، الشاعر أنطونيو برونو الذي كتبها، فلم تمنحه القوة ليتغلّب على خمود الهمة واليأس.

أمام المنظر المؤثر، كيف يؤخذ على محمل الجد انتخاب أكاديمي بسيط، يُعطى له معنىً آخر أبعد من المكائد والوشايات الاعتيادية؟ ناخبون لامعون، هذا واضح، شخصية فذّة في الحياة الثقافية للبلد، الخلود، اللقب، الرداء، كل هذا هرع لكي يكون الصراع على المركز الشاغر في الأكاديمية البرازيلية للآداب حدثاً مهماً ذا صدى وطني، أحياناً بعامل المنافسة الفظّة. بيد أنه من هنا كان التحوّل إلى مبارزة بلا ثكنة بين النازية المنتصرة، والقوى الديمقراطية الخائرة يمضي في مسافة مقدّرة.

---

(١) الشرطة السرية الألمانية.

(٢) SA شرطة الأمن العسكرية في ألمانيا النازية.

(٣) الصاعقة (فرقة تابعة للجيش).

هكذا حدث بالرغم من كل شيء. فالمعلّم آفرانيو لم يكذب ولم يبالغ في الكلام على المعركة وفي الإشارة إلى ضوء من الأمل. فيما الأديب الهرم الآخر مؤلف بعض الدراسات الأساسية حول الواقعية والإنسان البرازيلي، وهي دراسات ملحوظة في معرفة المواضيع، في أصولية الفكر وفي جرأة التأكيدات، إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، لكونه فردياً، أخذ العراك إلى نتائجه الأخيرة. كان لديه رعب من أي نوع من أنواع حرية الاختيار والقيادة، لدرجة تجنّب استخدام الرّداء الأكاديمي، مفضلاً الظهور بالسترة الطويلة عند الجلسات المهيبة. وهي سترة تتفق جيداً مع ضميره المدني ومع مظهره الستيني الطويل والهزيل ذي اليدين البارزتيْ العظام والحاجبين الكثيفين.

الوجه الجانبي للعقيد البطولي

كان مشمئزاً حتى عندما أضاع العقيد صوابه وتخلّى عمّن ينوب عنه، حيث بدأ في تصفّح بروفات[1] الطبع. حتى ذلك الوقت كانت المقابلة تجري في جو مثقل لكنه محتمل؛ وتوسل أيضاً جواً ودوداً، تبادل اللطف، الظرف والابتسامات في لقاء بين رئيس مجموعة الأمن لديكتاتورية الدولة الجديدة وصحافي تافه يستهدف قلب النظام، مشتبه بالانتماء إلى الحزب الشيوعي اليهودي بشكل متماثل.

الوجه متحلل من الغضب، وفي العينين وميض المتشيعين الأصفر، وبات العقيد متوعداً بشكل لا يمكن توقعه. وهزّ كمشة البروفات أمام الوجه الهزيل للفرد المذعور في الجانب الآخر من الطاولة. في الناحية الأخرى من الخندق، إذ أن ديوان العقيد ميدان المعركة. وتقطّع الصوت بنبرة حادة كالنباح:

ـ خس! تجرؤ على التأكيد أن هذا المنشور ليس شيوعياً! من تراني؟ أبله؟

لكمة بقبضة يده على الطاولة، قذيفة مدفع أو قنبلة.

عموماً، صوت العقيد يرجّع صدى دائرياً، خطابياً، حاد النبرة، صوت القيادة. وذلك حينما يؤكد حقائق من وجهة نظره لا يناقش فيها، وعندما الكلمات، في احتدام الجدال، تنفجر في وجه الخصم مع عنف اللكمات. صوت وحركات مقاسة، وضع القائد. ويحدث أيضاً أن الآمر يفقد ضبط النفس وهناك يجري الماء من تحت صورة الآمر الجسور، والهادىء، القاسي والكفوء، الرابط الجأش. الثابت الجنان والبطولي العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، المشهور (والذائع الصيت) بالعقيد سامبايو بيريرا.

---

(1) PROVA : النسخ التي تطبع أولاً على سبيل التجربة.

إنـه رجـل عمـل وفكـر، مجـرّب في الصراع (في الحـرب، يصحـح هـو، في حـرب بـلا هدنة ضد أعداء الوطن)، مؤلّف صُفّق له لأكثر من دزينة من الكتب، خمسيني معتـد بنفسه كثيـراً، أسمر محروق اللون بشكل خفيف. قبل ذلك بقليل، عند سماعه معلناً تفوق الجنس الآري ـ «نحن الآريين، سنأخذ بزمام الكون ونقود الجياد. . . » ـ كان الصحافي صاموئيل ليدرمان، بالرغم من الوضع غير المريح الذي يجد نفسه فيه، بـدلاً من إبداء العجب والتصفيق للعمل والقوة في الجملة، لم يستطع منع الرجل غير المحترم والمتهوّر في الهذيان؛ في العروق الزرقاء للجينات النبيلة في الكون؟ وبالنسبة إلى الأنف الدال عل العزم إنما المعقوف وإلى اسم الشهرة بيريرا، لم يتهموا مصادفة أثر اليهودية في أجداده الساميين، المهتدين إلى المسيحية بالحديد والنار من قبل محاكـم التفتيش؟ («أنت ضال يا سامي»؛ كانت دا تكرر له وهي متكوّرة عند قدميه. .) شتيمة مكتومة، حسناً، إذ لا شيء يفيد إذا شاء مناقشة نقاء الصفة الآرية للعقيد.

نعم، لأنه ما دام هو بكل وضوح، برازيلياً من أجيال كثيرة واختلاطات مضاعفة بالدم يؤكد أنه آري، فإنه يفعل ذلك باقتناع مطلق. وكتب مجلّداً ضخماً، «من أجل حضارة آرية في البلاد الاستوائية ـ دراسة في البرازيلية» لقي ثناء من قبل جرائد اليمين والذي تبنّته المدارس الثانوية الرسمية، في منبر الثقافة الأخلاقية والمدنية في الجامعة، فضمنت له صدوراً متتابعاً وحقوقاً جزيلة للمؤلف.

بعض النساء كنّ يرونه جميلاً، يعجبهن فيه الكتفين العريضتين، الخطوة الثابتة، الشعر الأسود المسرّح جيداً، اللامع بالزيوت، الوجه الجانبي القوي، تحت الرداء المتقن. شوهد بلمحـة خاطفـة، يذكّر بممثل أمـيركي شمالي مـا، صرعة العصر، وبـالحري كان لديه شيء ما من الممثل، إذ أنه في وضعيته الشهيرة كرئيس لا تلين قناته، موهوب بالذكاء الحي، بالذهن الفطن، غير متساهل، غير إنساني إذا لزم الأمر، في الدفاع عن القناعات الراسخة، كان لديه بالتأكيد عناصر التركيب، المرئية في نبرة الصوت، في الرنّة الخطابية الحاضرة في الجمل الأكثر سوقية، وفي نظرة المحقق، القادر على القراءة في الضمائر المذنبة، النظرة كلّفته جهداً حقيقياً، انتباهاً ثابتاً، وهكذا فإنه يمتلك زوجاً من الأعين المستديرة، الجامدة، الساذجة، بلا خبث.

لبعض الصحف المعيّنة، عندما تذكر إسمه، تقدّمه بالصفات الدالة عليه، والعسكرية ـ الشجاع، المقدام، الجريء. فوق كل هذا بدءاً من المساء الذي كان فيه آنئذٍ العقيد سامبايو بيريرا، على رأس كتائب الشرطة الخاصة والصدامية التابعة لفوضية الشعبة السياسية والاجتماعية، واجه وانتصر في شوارع ريو ده جانيرو، عاصمة الجمهورية، على تجمعات الرعاع الزاعقة والمهدّدة من المحرّضين المسلحين حتى الأسنان بكلمات ضارية ذات ترتيب، صرخات وقبضات مرفوعة، في مسيرات احتجاج ضد تسليم العاملين في السفارة التشيكوسلوفاكية إلى سلطات ألمانيا النازية من قبل الإيتاماراتي[1]، بعد ميثاق ميونيخ واحتلال براغ. هزيمة تاريخية للقوى الانقلابية، محددة نهاية تظاهرات الجماهير خلال عهد طويل.

رجل عمل وبالتساوي أيضاً رجل فكر ذو عمل أدبي واسع النطاق في النظرية فاز به بالألقاب والتمجيد في ميدان الآداب: «وأحد أكثر الكتاب غزارة في الانتاج ونشاطاً في جيله»، «مفكر سياسي خصب»، «باحث يحلّق في أعلى المراتب»، وهكذا دواليك. كانت كتبه تُقرظ ودعاية الأنظمة القوية تحلل سقوط وتعفّن الديمقراطيات، وتشي بالخطر الشيوعي المخيف.

الدراسات الأولى كتبها وهو ما يزال عضواً في «مجلس الأربعين»، مقاتل متحمّس في «العمل التكاملي». وعندما حلّ انقلاب ١٩٣٦ الأحزاب السياسية، انخرط في التكاملية[2]، مؤكداً في مقال: «الدولة الجديدة تعني التطبيق في ممارسة المبدأ، المثاليات التكاملية، غير مستوعبة هكذا لوجود بنية موالية للأحزاب، غير لازمة، والصرامة، مضاعفة واستفزازية». لمناسبة التمرّد في العام ١٩١٨ بقي سامبايو بيريرا وفياً للحكومة ولم تكن لديه شكوك في اعتقال رفاق المعتقد القدامى. المجلّدات الأخيرة المنشورة طرحت كونه في خدمة القاعدة الإيديولوجية من أجل الدولة الجديدة، المهدّدة، في نقاء المبادىء الشمولية وفي النهج الحديدي، من أجل العجز الثابت للشعب البرازيلي ليأخذ مأخذ الجد الأفكار العظيمة وليعرف الرجال العظماء،

---

(١) ITAMARATY: مبنى وزارة الخارجية البرازيلية في العاصمة القديمة للبرازيل، مدينة ريو ده جانيرو.

(٢) فئة سياسية برازيلية مؤيدة للنازية الألمانية والفاشية الإيطالية.

وهو تفسير قُدِّم من قبله بالذات إلى الصحافي صاموئيل في القسم الأول من المقابلة.

ـ . . . الضعف، الشذوذ، برودة الشخصية، المصائب الناتجة عن التهجين. . .
كان لديه، رعب من التهجين.

كتب وهو ملازم ثانٍ حديث التخرج من المدرسة العسكرية، قصائد رومانسية جمعها في مجلّد نحيل، وإذلم يتمتع الشاعر المبتدىء آنئذٍ بأيّ سلطان، فإن نقّاد ذلك العهد تجاهلوا أو سخروا من الكتيّب. حتى ولا المعلّم جوان ريبيرو، السخيّ جداً مع المبتدئين في زاويته الأسبوعية، تمكن من العثور في تلك الصفحات على أيّ شيء أبعد من «قوافٍ رخيصة ومشاعر تافهة». مع كل هذا، بعد ذلك بسنوات، عندما هجر سامبايو بيريرا الشعر من أجل البحث السياسي، تحسّر الناقد الهرم نفسه على ما حدث: «. . . قبلاً كان مثابراً على ذبح العروض والقافية، فإذا به الآن يهدّد، في النثر الرديء، الأمة والشعب، الحرية والمستقبل».

كيف يتحقق من ذلك، إلى جانب الكثيرين من المعجبين بلا شروط والمستزلمين، فقد كان لدى العقيد واشون لم يغفروا له لا العمل العام ولا الأدب. كانوا يتهمونه كقابر للحرية والحقوق الإنسانية، ومسيء للرداء الذي كان يرتديه، واضعاً إيّاه في خدمة الرجعية البوليسية، كرئيس وطني للطابور الخامس، يقود القمع السياسي ويأمر بالتعذيب، باستيراد تقنيين من الغستابو: هذه كلها كانت تقال في مرشح هتلر في البرازيل.

كان العقيد يفتخر بنفسه كثيراً للتمجيد كما للتهجم. وكانوا يغطونه بالتقريظ والغار «الوطنيين الراسخين، نواة البرازيل الجديدة»؛ والإهانات والاحتقارات كانت تتولد من «السافل الليبرالي والشيوعي».

أوامر عليا

ـ أوامر عليا، يا عزيزي، ليس الأمر موقوفاً عليّ، فلا أستطيع أن أفعل شيئاً. . .

عندما نقل مدير قسم الصحافة والدعاية نبأ إلغاء سجل المجلّة وأبدى التحسّر لكونه لا يستطيع المساعدة، مكملاً التفسير بحركة ذات معنى، لم يذعن صاموئيل ليدرمان بالغلبة، فصمم على التوجه رأساً إلى العقيد سامبايو بيريرا. فمنه جاء الأمر، وسيحاول إقناعه ليغير رأيه. («لا وسيلة لديك، يا سامي، ولسوف تموت معتقداً في المعجزات»، وكانت دا تهزّ رأسها ذا الشعر الكستنائي الجعد).

«غوبلزنا[1] هجين[2] ووحش»، اعتبر مدير قسم الصحافة والدعاية مشيراً إلى العقيد، لكنه إذ أنصفه ومظهراً رعباً ما، أضاف: «وحش دموي، فحذار، كيلا تمضي إلى السجن». وتذكر ساموكا الأيام المنصرمة في أقبية الشرطة السياسية، خلال الإغارة في السنة السابقة، مئات الأشخاص سجناء لمناسبة دخول الجيوش الألمانية براغ. لقد عانى مع أكثر من خمسين موقوفاً، محشورين في زنزانة لا تكاد تستوعب عشرين، بلا حمام، بلا سرير، يتناوب مع غيره لينام على الأسمنت المبتل، والطعام مقرف يقدّم مرة في اليوم، والرائحة الكريهة دائمة؛ المرحاض كان صفيحة كيروسين[3]. من دون الكلام على الصراخ، المسموع بدقة، من المعذبين في عمليات الاستنطاق، في قاعات قريبة. حتى ولا الذكرى المزعجة أشعرته بالإحباط، فقد كان مندوباً سياسياً لجريدة يومية كبرى، يحوز علاقات نافذة، سيصل إلى العقيد.

---

(١) نسبة إلى غوبلز وزير الدعاية في عهد هتلر.

(٢) CABOCLO : الهجين المتحدر من أب أبيض وأم هندية أو العكس.

(٣) QUEROSENE : الوقود المعروف بالكاز.

ـ تذكر بأن، كيف هي الأمور، لن يكون سهلاً انتزاعك من السجن. . . استنتج مدير قسم الصحافة والدعاية.

إنه لأمر يستحق العناء أن يتصدّى للرياء السياسي عند هذا الفرد. يخدم الحكومة في مركز حيوي، ويكنّ تعاطفاً غير معترف به إنما جليّ، مع إنكلترا ومع فرنسا، ويحمي أشخاصاً جدّ متورّطين مثل صاموئيل ليدرمان هذا، مدير «المنظورات»[1] وهي مطبوعة شهرية ذات انتشار غير اعتيادي، وهي آخر أجهزة الصحافة المسجلة في قسم الصحافة والدعاية والتي تمتلك حيزاً ملتبساً من اليسار، وقد مُنعت في النهاية بشكل قطعي.

---

(١) PERSPECTIVAS.

العقيد يحلّ وثاق الحرب الشمولية ويؤسس معايير للفنون التشكيلية

الرياء السياسي برهان على أن الدولة الجديدة لم تكن تلك الكتلة من حجر واحد، إنه موضوع في خدمة النازية ـ الفاشية، أحلام العقيد سامبايو بيريرا؛ بقايا الليبرالية المتعفّنة تقرض الجهاز الحكومي. ولم يكن بعيداً، أيضاً، اليوم الذي يؤلف فيه وطنيون شموليون متحمسون فقط، آريون بلا وصمة عار، الحكومة. إنه يوم جميل وقريب من النصر النهائي، سوف تتدحرج رؤوس، سيسيل الدم بالطهارة الملهمة، الواقفة إلى جانب الإطار الأسود حيث خريطة أوروبا ثابتة فقد كان العقيد يلقي خطاباً.

ـ سوف نستأصل جميع الأعداء، حتى آخرهم. بلا شفقة!

يرمق الصحافي بنظرة ثاقبة كالمسمار:

ـ الشفقة هي إحساس الضعفاء، إنها مذلّة.

العقيد الحديدي يحرّك رؤوس الدبابيس الملوّنة، رافعاً إيّاها إلى حدود فرنسا مع شبه الجزيرة الإيبيرية.

ـ نهيء القاعدة الأولى للحرب، بإنجاز مطلق، أوروبا بأكملها تنتمي إلينا. فالفوهرر، بعبقريته، نصب بيارق الصليب ذي الأضلاع المتساوية في أعالي البيرينيه. في أسبانيا لدينا الجنراليسيمو فرانكو الممجّد. في البرتغال حكيمنا الدكتور سالازار، رأس يساوي ذهباً.

الدكتور سالازار، رأس يساوي ذهباً.

هزّة مؤثرة في المرحلة الأولى من المقابلة. كان مدير «المتظورات» ما يزال متشجعاً.

قبل أن تفحص بروفات الطبع ـ مادة كلها غير مضرّة، ضمن صاموئيل ذلك ـ شاء العقيد أن يبيّن عدم جدوى أية معارضة للنازية الفاشية ويفك سلاسل الحرب الشمولية. لكن بالرغم من الجيوش، الدبابات، المطاردة، القصف بالقنابل، بالرغم من الأموات، المعتقلين، في معسكرات العمل والتصفية، البيارق المنتصرة ذات الصليب المعقود، لم يفقد الصحافي الأمل في حل مقبول ـ إزاء كل هذه العظمة، أي خطر يمكن أن تمثله مجلة صغيرة، يختصر إصدارها على بعض التحقيقات، على مقالات دولية حذرة، حول الـ NEW DEAL الأميركية الشمالية على سبيل المثال، على أشعارٍ وقصصٍ قصيرة؟ الصحافي يصغي بانتباه، لا يرد على تأكيدات العقيد الذي أخذته الحماسة فصار يستبق الأيام الآتية، استسلام إنكلترا العظيم، وبعد ذلك... وضعية ليجعل أيضاً أكثر مهابة المعلومة المؤكدة بشكل مطلق، من يدري إنها مزوّدة من قبل القيادة الألمانية العليا؟

ـ بعد ذلك... سيكون دور روسيا الشيوعية. بالنسبة إلى فرقنا المسلحة ـ كان يقول «فرقنا» بشكل طبيعي جداً، أما كانت البرازيل الحليف الطبيعي للرايخ الثالث في أميركا الجنوبية؟ ـ نزهة في السهوب، لأسبوع أو لأسبوعين في أبعد تقدير... فروسيا سوف تختفي من العالم والشيوعية ستغدو مقتلعة من على وجه الأرض!

بعد أن غزا الاتحاد السوفياتي وحرر العالم من الشيوعية، عاد العقيد للجلوس، عسكرياً وراضياً عن نفسه. أطلق النظرة المنتصرة إلى الجانب الآخر من الطاولة، القول الأفضل هو الخندق، لغاية أن يسلّي نفسه بمشهد العدو الذي أُبيد، متحققاً بدهشة أن اليهودي البائس لم يكن مباداً. ففاجأته ابتسامة سخرية في الشفتين اللئيمتين وفي الصوت الملطخ بالمتعة:

ـ أسبوع واحد أيها العقيد؟ أعلم إنها أراضٍ شاسعة لعبورها... نابليون...

ـ إخرس!

النظرة المسمارية صارت حقودة ومرتابة فالعقيد عابس الوجه، وندم صاموئيل لكن فات الأوان («أواه، من خلقك، يا سامي، ما زلت تسبب اشمئزازاً»، كانت دا تستبق الأمر وهي تقبله من عينيه). وبعد دقيقة عسيرة الهضم من الصمت، أمسك العقيد بكمشة من بروفات الطبع، وحالما بدأ يتصفحها سيطر عليه الغضب.

ـ أنت أيها السيد شخص سافل! كل سطر يقطر سماً...

استغرق وقتاً في عناوين المادة، في الصور، قرأ مقاطع صغيرة:

ـ الملكية الكبيرة للأرض، بقايا الأقطاع، عصابات قاطعي الطـرق؛ وعظ ماركسي هل تجرؤ على النفي؟ صور أكواخ الفقراء وزنوج... ألا يوجد في الريـو أي حيّ فاضل يستحق ان يكون مصوّراً؟ البيض انتهوا جميعاً؟

ـ إنه تحقيق حول السامبا...
يحاول صاموئيل الإيضاح.

ـ إخرس، لقد قلت لك. فن حديث! فحش، فن منحط! الفوهرر بعبقريته، منع هذا القرف. أشياء كهذه تفسد حيوية أمة، لهذا السبب تعهّرت فرنسا، تحوّلت إلى بلد مخنثين.

تلك الأعمال العارية القادرة والعنيفة تلحق الإهانة بالمعارف الجمالية لدى العقيد المندفع. فهو يردعها بقرف حقيقي، برفض صريح، إنها نقيض الجميل. العقيد يعجب بعري الأنثى «حينما يكون فنياً في الواقع، مرسوماً بإلهام وإحساس».

ينتهز صاموئيل النقد الفني غير المنتظر ليستعيد نفسه، من الذعر، ويفكر في إعادة إنشاء الحوار. لكنه لم يبلغ حد الكلام، إذ أن العقيد يفقد صوابه كلياً ويثور أمام صورة في صفحة بكاملها لرئيس الولايات المتحدة فرانكلين ديلانو روزفلت:

ـ لم يبقَ إلاّ هذا! إنه الذروة!
ـ لكن أيها العقيد، إنه رئيس...
ـ رئيس... يهودي في خدمة الشيوعية الدولية، هذا نعم! ديلانو إسم يهودي، ألا تدري؟ فنحن إذاً نعلم!

يترك مشمئزاً الصفحة حيث يتبسم رجل الدولة الكريه، يمسك باللّفة الأخيرة من البروفات لكن ليس لديه الوقت ليبدي السخط على «أغنية حب لمدينة محتلة» للشاعر أنطونيو برونو، لأن جرس الهاتف بدأ يرن. إنه خط خاص، مقصور عليه، معروف من أشخاص نادرين جداً، مستخدم فقط للشؤون الخطيرة والعاجلة. ترك العقيد

البروفات، ورفع الهاتف وهو لا يزال مهتاجاً، العينان بلون أزرق، الصوت حاد النبرة. وعلى الأثر اكتسى وجهه الصورة الفضلى، والصوت ليس متكلّفاً وهادئاً وحسب إنما لطيف، مختلف، متملّقاً تقريباً. يجب أن يكون على الأقل، وزير الحربية، فكر الصحافي.

الأكاديمي ليزاندرو لايتي

فقيه لامع وصديق كريم

خُدع، ليس وزيراً ولا نصف وزير، حتى ولا عسكرياً. مَنْ كان يبدي الجهد في الهاتف، بديناً وناضحاً بالعرق، ذا شعر كالأسد، هو الأكاديمي، القاضي في محكمة الاستئناف والاستاذ الجامعي ليزاندرو لايتي ـ حامل جميع هذه الألقاب، كان لديه صعوبة كبرى في الحصول على رقم الخط الهاتفي الخاص بالعقيد.

ـ أنطونيو برونو مات اليوم صباحاً أيها العقيد. لكنني كنت في المحكمة، ولقد علمت في الحال...

العقيـد يصغي إلى النبأ الجنائزي (والمثيـر للشبهة) فلم يتمكن من ضبط إثارته، ومنع إبتسامته. لكنه في الحال تكيّف واستجمع ابتساماً وفرحاً، وأمسك عن الندامة والاعتدال الملحاحين بالمخابرة المحزنة (المفرحة والمفرحة جداً):

ـ الشاعر أنطونيو برونو؟ توفى؟
ـ لدينا مكان شاغر أيها العقيد!
ـ خسارة كبيرة للثقافة الوطنية. شاعر ملهم...

ـ بلا شك، بلا شك، شاعر ممتاز ـ يقطع ليزاندرو لايتي الرثاء البليغ. وفي النهاية، لم يعاند ضد الرفض الفظ من العرفاء والرقباء الذين أبوا الاتصالات المطلوبة، لم يحرّك نصف العالم حتى يتمكن من الحصول على الرقم السرّي لكي يصغي لترهات؟ ولم تحـن بعد أيضاً ساعة خطاب تسلّم المنصب:

ـ... احتفظ بهذه المفاهيم الجميلة للخطاب أيها العقيد.
ـ ماذا تقول؟ خطاب؟

ـ لدينا مركز شاغر أيها العقيد.

كان يمنح النبأ مع تفخيم من يقدّم هدية نادرة ذات قيمة لا تقدّر بثمن. نعم، إنه لم يقم بكل ذلك الجهد ليبلغ فقط موت شاعر، زميل الأكاديمية. لقد جاء وفياً وسخياً ليقدّم الرفيق والصديق اللامع، العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، إلى المركز الشاغر المفتوح، مع الخلود. لكن العقيد بحاجة إلى التحرك بعجلة، ليس بوسعه إضاعة لحظة واحدة، ينبغي له الدخول في المعترك في الحال. في الحال! كرر.

ليزاندرو لايتي، عضو الأكاديمية منذ أكثر من عشر سنوات، «المكرّس نفسه للآداب القانونية الشهير»، وكان يعتبر نفسه اختصاصياً في الانتخاب الأكاديمي، أليف مع الفطنة، المناورات، الانقلابات في الاستراتيجية والتكتيك القادرة على سوق المفضلين لديه إلى الفوز. راعٍ ذكي لمرشحين، في كل اقتراع يجني بعض الميزات. الألسن الشريرة الموجودة في كلّ مكان، خاصة في الأكاديميات، تؤكد أن الدكتور استاذ القانون التجاري مدين في قسم كبير من وظيفته القضائية السريعة لهذه المراكز الشاغرة المطموع فيها كثيراً، «يرتفع في الحياة على حساب الأموات». ولو وصلت هذه التعليقات إلى أسماعه، فإنها لن تزعجه، استمر مواصلاً طريقه غير قلق، متسلّحاً بسلطة ودّية، أمسك بخيط التصرّف ليصير مكرّساً من قبل المرشح:

ـ من اللازم أن يأخذ الأكاديميون علماً حسيّاً بترشيحك، ويعرفوا أن المركز هو للصديق اللامع. رابط الجأش، غير وجل، عدواني في وجه فرق القمع إزاء العدو الداخلي الشرير والغادر، ومع هذا في ساعة التصدّي، بادئاً الصراع من أجل الخلود، اعترى العقيد وجل غير متوقع. فتلعثم وهو مأخوذ بالشكوك:

ـ أذهب الى الأكاديمية في الحال؟ بعد قليل من الآن؟ الجثمان حُمل إلى هناك؟ هيه.. لا أدري.. أليس من الأفضل انتظار ساعة الدفن؟ ألا يبدو لك أكثر تطابقاً...

عينا العقيد المستديرتان والساذجتان ألقيتا على الصحافي، الذي نسيه بالكامل، شاهد كريه. يغطي سماعة الهاتف بيده ويأمر:

ـ إنصرف!

صاموئيل ليدرمان، ساموكا بالنسبة إلى الأصدقاء، سامي بالنسبة إلى دا، امرأته، ما يزال يلح ـ بلا آمال ـ لكنه الواجب، آه! من اللازم أن يوفي به حتى النهاية:

ـ والمجلة أيها العقيد؟ هل هي متحررة؟ («بطل للقضايا الخاسرة، هذا هو أنت يا سامي»، إنه صوت الخور لدى دا).

عينا العقيد تعدمان بالرصاص، تانك العينان الثاقبتان:

ماذا؟ أما زلت تجرؤ... اخرج من هنا قبل أن أندم وآمر بوضعك في السجن.

جمع الصحافي المهزوم البروفات، فالمقابلة لن تثمر عن النتائج المرجوّة؛ حظر «منظورات» قد استمر ومديرها نجا من السجن عرضاً ـ ساموكا لن يسمح بعد أن يتكلموا أمامه بسوء عن الاكاديمية، المؤسسة الفاضلة.

الصحافي الصغير صاموئيل ليدرمان وهو يجتاز الممرات المعتمة، والبروفات غير المجدية مدسوسة في جيب السترة، يتحسّر على موت الشاعر أنطونيو برونو، مَنْ تكلم معه مرة وحيدة ونشيده من أجل مدينة باريس المحتلة من قبل الألمان، غناء صراع وأمل سيستمر غير مطبوع بحرف ذي قالب. وكمثل أشخاص كثيرين، يعلم ساموكا بالذاكرة مقاطع كاملة من القصيدة ويتذكرها. يطفو شيئاً فشيئاً من الهزيمة، الأشد قوة هو الحلم الذي يمنحنا ما نحلم به: يوم أكثر يوم أقل، المجلة الهزيلة، المطاردة، المدانة، ستتحول جريدة يومية متوترة وحيوية، تحقيقات عظيمة، مساهمون مشهورون، وطنيون وأجانب، مداولة حرّة في الأفكار. شيء ما غير مطبوع في صحافة البلد. عندما تتحرر وتكون ديمقراطية في البرازيل، «أنت هو الذي لا يمكن إصلاحه يا سامي...».

منظورات ممتازة وهتاف لاتيني

- كرر، على سبيل اللطف أيها القاضي، لم أصغ جيداً. يقال إن. . .

يا للجاسوس اليهودي الملعون من شخص فاسد، فاسد لكي يعبرّ في الوجه طموحاً غير منضبط، العقيد يستمع وهو متحمس، يهزّ رأسه في اتفاق مع تأكيدات العريف الانتخابي المجرّب، «ليست هي ساعة البروتوكولات أيها الصديق اللامع، فالساعة هي ساعة الهجوم. الأمر الأساسي هو عدم إضاعة الوقت، هو التقدّم، احتلال المركز، منع الآخر من أن يظهر قبلاً، يوعد بأصوات، فطالبو المركز هم كثيرون. . . » بالتأكيد لكي يعطي قيمة أكثر لدوره ولنصائحه لكي يفرض قيادته التي لا يناقش فيها، استعار ليزاندرو لايتي، أيضاً، منذ البداية، خصائص المعركة في الاقتراع السلمي من العادة الدامية. «نصّب نفسك وبقدر ما يكون الأمر مبكراً، هو أفضل، يا صديقي، هذا هو التكتيك الجيد من أجل تركيز قواعد نصر مؤزر. إنه لأمر باعث على الاندفاع!».

العقيد لا يناقش، يكرر «إنه لأمر باعث على الاندفاع!».

- إني أثق بالصديق العزيز، أفهم أسبابك. سأفعل كما تقول، أسلّم نفسي بالكامل بين يديك.

لم يكن القاضي الكفؤ يرغب شيئاً آخر عدا سوق العقيد إلى النصر. مهمة هيّنة، بالأحرى، غير ممكن، مرشح ذو مكانة كبرى، يعتمد على دعم الشخصيات الأكثر سلطاناً في النظام، مع مرور حرّ. . . جد حرّ. . . جد حرّ كهذا؟ سيكون هناك من يريد النقاش، يدسّ الأنف، مجادلاً في المراكز السياسية للمرشح، لكنّ أحداً لن يذهب إلى أبعد من الهمهمة،وسينتهي الجميع إلى ابتلاع قرص الدواء وسيحضرون

ليدلوا بأصواتهم. انتخاب سائل ومؤكد. بعد انتخابه، وإلباسه الرداء، سيتلفظ بالثناء عليه في خطاب الاستقبال. . . أجل، لأنه سيكون من أكبر ضروب الخسّة إذا اختار العقيد شخصاً آخر لاستقباله. . . القاعة الملأى بالجنرالات، الوزراء، من يدري، رئيس الحكومة بالذات، السفراء، سيدات المجتمع الراقي، أناقة الفساتين، الملابس ذات الفتحات في أعلى الصدر، الحلى، التبرّج، زينة الصدر، ذلك الترف، ذلك الجمال كله (من دون الكلام على المصوّرين) وبعد ذلك. . .

آه! بعد ذلك يجني المكافأة المستحقة؛ أول مركز شاغر في المحكمة الفيدرالية العليا، كما يعلم، اليد الواحدة تغسل اليد الأخرى. خذها، الأكاديمية أيها العقيد، وأعطها العليا.

يتمايل إزاء الهاتف في أفكار واقتراحات والعرق ينساب على الوجه. «ثرثار مرعب» حسب ما يقوله زملاؤه في القضاء. يمزق منظورات مستقبلية، يوسّع آفاقاً، الصوت عذب، مقنع. والعقيد سكر بالحماس.

ـ من الواضح أنه هكذا. فترشيحي سيحظى بكل الدعم من الجيش، بشكل شامل. الوزارة؟ ستفعل كل ما هو لازم، كل شيء. ماذا تقول؟ أجل، هو هذا بالضبط، لديك كل الحق؛ ترشيحي موضوع من قبل الجيش، وهو حالياً بلا أيّ ممثل في الأكاديمية. عبث في الواقع أنت أيها الصديق المبجّل قلت حسناً جداً: تكليف نوعي.

تابع الاستاذ الجامعي، ينبش في تاريخ الأكاديمية البرهان القطعي، الذي لا يمكن ردّه. يا له من رأس! العقيد يشعر أنه منتخب عملياً:

ـ بالضبط أيها القاضي، جد مضبوط، لم أكن قد فكرت في هذا. . .

ـ إذاً هكذا هو يا صديقي النبيل، هذا المقعد يخصّ الجيش، كان يخصّه دائماً. الحامي، الشاغلون، الأوائل. . . انتخابك يعني استعادة تقليد مقطوع بانتخاب برونو.

تقليد، كلمة سارّة للعقيد. يحسّ أنه فرح. ليزاندرو لايتي أنهى برؤية مسبقة راعية وأخيرة.

ـ مرشح وحيد؟ هل ترى ذلك ممكناً أيها الصديق العزيز؟

هيهات يا عقيدي الشجاع، لا تكن ساذجاً. في المناسبة الراهنة، وطنياً ودولياً، مَنْ في هذا البلد ستكون لديه الجرأة على منافسة الكلي القدرة رئيس قوى الأمن؟ الجنون نفسه لديه حدود.

يفكر ليزاندرو لايتي فيما هو يمسح العرق ويعد:
ـ من جانبي أنا، سأفعل الممكن ليكن الأمر كهذا، مرشحاً وحيداً وانتخاباً بالإجماع، يا عقيدي النبيل.

اعتبارات يمكن الاعفاء منها بدقة

هل سيوجد إحساس كلّي القدرة يسود قلب البشر، أكثر من الخيلاء؟ كان المعلّم آفرانيو بورتيلا يقول: إن لا، وبرهن عليه في سياق الاقتراع.

أَخْذُ مقعدٍ في الحملة اللامعة، أن يصير أحد الأربعين الخالـدين، يشد عليه الرداء ذا المطرزات المذهبة، اليد موضوعة على قبضة السيف الصغير، الثنائي الطرف تحت الذراع، يريح العظام أو الشحم على الأريكة المخملية، آه! لكي يحصل عليه، فالمواطنون الأكثر احتراماً، الشخصيات الأكثر سلطاناً، قادرون على فعل كل شيء؛ العنف يغدو لطيفاً، المتعجرف يظهر نفسه وضيعاً، البخيل يتحوّل متلافاً، ينفق بلا حساب على الزهور والهدايا. المشار إليه، أمر لا يصدق؛ من اللازم أن ترى. هنا هو الشعار والقاعدة لكثير من الفلسفة الرخيصة وبعض النكات المسليّة، لسوء الحظ، ينقصنا مكان وزمان.

خذ مثالاً العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا؛ لديه سلطان السلاح والشرطة، يأمر وينقض أمراً، سيد المنشار والخيط، أمامه حتى الوزراء يرتعدون، لا يشعر أنه حقق كل شيء، تنقصه الأكاديمية. طموح قديم، منذ أوقات القصائد (السيئة الخلق) الأولى، حلم رافقه طيلة الحياة.

في ذات مناسبة، انفتح مع ليزاندرو لايتي؛ نظيره الحذر. «من اللازم الاحتفاظ بالفرصة الملائمة»، أوضح القاضي، مثمناً صعوبات الإنجاز. من آنٍ لآخر كانا يتبادلان أفكاراً حول الموضوع. «إنه ينضج»، وكان الأكاديمي يعلم، مشيراً إلى الترشيح. منذ ستة شهور خلت أعلن: «الظروف حالياً جد ممتازة. لدينا جميع وسائل النفوذ. لا ينقصنا إلا المركز الشاغر. قاما بموازنة لعمر وصحة الخالدين، مع تصفية متفائلة،

البعض منهم لن يُكتب لهم الخلود لوقت طويل بيرسيو مينيزيس العظيم، على سبيل المثال، هاجمه السرطان.

عضو الأكاديمية البرازيلية، الوحش الخرافي الصلب. رمزٌ من هو حقاً رئيس محارب، آري صبور في خضم المعركة من أجل غزو العالم، بالوسع أن يسخّن حلماً مع نهم صحافي تافه يستهدف قلب النظام ويهودي.

السهر الحيوي على الميت

ضوضاء أنثوية مهيّجة، أوه! برونو الذي لا يمكن إصلاحه، ماذا فعلت برصانة الموت، بالكظم القاسي، بالصمت الصارم، بإظهار الألم الملزم؟

حسناً اكتسى الأكاديميون عند نزولهم من السيارات، بالسكينة الملزمة، لكن مَنْ يتمكن من البقاء آسفاً ومحزوناً وعليه أن يقبّل أيدي السيدات الفاتنات، يتحدث بالسخافات، ويصغي إلى قصص التغزّل بالنساء، يتذكر قصائد ملتهبة في وسط استعراض للأناقة؟

سهر على الميت؟ كان ثمة متوفٍ، إنها لحقيقة، في منصّة تابوت في قاعة انتظار الأكاديمية وأكثر من ذلك، فهو جميل، الجو غير المتوافق مع المناسبة. وبالرغم من وقار الرداء، فإن الميت لا يكاد يصل إلى مستوى دوره الجنائزي، الملتبس، إذا لم يكن ممثلاً، بكثير من الندم والاحترام. أجل، لأن هذا الاستهزاء قد تنبأ به الشاعر نفسه وأوعز به، كما هو ثابت عند قراءة «وصية وسهرة ميت[1] لشخص مدعو بأنطونيو برونو، شاعر جوّال ومتشرّد ميت ثلاث مرات للغلو في الحب»، قصائد قديمة إنما ذات حضور ملّح، يسخر فيها الشاعر من الموت ويقترح حفلة في مكان مواكبة جثمانه.

هكذا حدث. دموع وضحكات، ضحكات أكثر من دموع، طلب في القصيدة. نساء جميلات ومجنونات، «أريد سماع البلّور في قهقهاتكن». فساتين الحفلة، «أريد تبيّن نعومة الثدي في فتحة الثوب». اللواتي كنَّ هناك كنّ يعرفن القصيدة، مقطعاً مقطعاً، بعضهن يعرفنه من الذاكرة. قدمن جميعهن، «التي جعلتني أعاني وتلك

---

(١) VELORIO : قضاء الليل إلى جانب جثمان الميت.

ابتسمت لي في الشارع وحسب. . .» أتين جميعهن وكنّ ينشجن، كما طلب هو، فجوراً، «هديل تأوّهات الحب في أوقات الفجر في حفلة».

الفناء ممتلىء. أكاديميون، كتّاب، بعض السلطات، أناس من المسرح والإذاعة دبلوماسيون، فنانون تشكيليون، أشخاص من الشعب، قراء بسيطون. عندما وصل القاضي في محكمة الاستئناف ليزاندرو لايتي أتى بوضع للمصوّرين، إلى جانب التابوت، وتلفظ ببعض الجمل (منقوشات) أمام مذياع[1] إحدى محطات الإذاعة. واختفى على الأثر، من باب أمانة السرّ، مجرجراً الرئيس الى وشوشات.

في لطف النساء ماتت الندامة المتكلّفة، القناع المستعار للموت. وحدها المشاعر الحقيقية بقيت غير ملموسة، الحب في عرض الحسناوات، تقدير الزملاء، والبعض منهم كانوا أصدقاء حميمين، إعجاب القراء، وهم كثيرون وأغلبيتهم من الشبّان. حتى تلك الرائحة ذاتها للزهور الذابلة والمسحوقة، شيء محتوم في جميع السهرات على الميت، إعلان عن الانحلال القريب، طردتها العطور المثيرة.

---

(١) MiCRO FONE

شرح جاف حول الشعر

تعريفات مختلفة مستحقة من النقد لشعر أنطونيو برونو. لكنّ اللقب الذي رافقه بدءاً من الكتاب الذي دشّن فيه شاعريته، والذي كررته الصحافة والجمهور، وهو لقب عزيز على قلبه، كان «شاعر العشاق». «جميع المحبين قرأوا قصائده، في الثامنة عشرة جميعنا قرّاؤه لكنَّ النساء قرّاؤه طيلة الحياة بأسرها». أشار أحد كتّاب الدراسات في تحليل واسع ولطيف، عند صدور «أشعار مختارة». نقاد معيّنون، قليلو التأثر بالأعمال الأدبية والمؤلفين الشعبيين، اتهموا شعره بالسهل والحكائي، لكنّ القراء وجدوا فيه كشفاً لكونه حقيقي وفي الوقت نفسه سحري، حيث اليومي، التفاهات من يوم إلى يوم، وقائع هي بشكل جلّي بلا أهمية، الزقاق ولون السماء، الهرّ في الحديقة وزهرة الصبّير، تأخذ بعداً جديداً، نفساً من الغموض.

يكتشف فجأة وبشكل حماسي: الشارع والندى، الغيوم والشفق، الليل المتسع، مناظر طبيعية، أغراضاً، أحاسيس. جوع بعض الشفاه، لهاث حضن، الجغرافيا الوقحة لجسد يتعرى من الثياب، الاشتياق، العنف، عذوبة الحب. شعر مع رائحة لذيذة للمرأة أو في الوقت نفسه، مليء بالبرازيل: احتفى بالاشجار والعصافير، الأنهار والبحر، البهائم والعادات البرازيلية. لكنَّ الحب كان هو الشعار الأكبر لغنائه، في قلب الشاعر لم يكن متسع للحقد.

صحافي، موظف في وزارة العدل، لم يجمع قط مالاً ولا امتلك مقتنيات، ينفق بقدر ما كان يكسب وأكثر على وجه التقريب. وكان لا يزال غلاماً لم يكمل التاسعة عشرة، عندما رحل في رحلة العطلة إلى أوروبا، مع زملاء كلية الحقوق. بدا له عبثاً أن يلبث اسبوعاً واحداً في باريس، فبقي ثلاث سنوات. ولكي يجبره على العودة،

قطع أبوه عنه المصروف الشهري لكنه تمكن من العيش، منبسطاً ونهماً إلى كل ما كانت باريس تقدّمه له. وأسرّ إلى الاصدقاء أنه يمارس، بين وظائف أخرى، المهنة المشرّفة والمكافأ عليها لجيغولو[١]، يرقص على رصيد عجائز مليونيرات، «عجائز صغيرات معبودات». أليف المقاهي الأدبية، خمّارات السين[٢]، تعلّم المهارات في تذوّق النبيذ والجبنة، وحينما عاد جلب في أمتعته أصول كتاب بدء حقيبته الأدبية، «الراقص والزهرة» ذي الحدث الصاعق.

رجع إلى باريس دائماً عندما كان ذلك ممكناً له. وعندما صار في الأربعين تمكن من أن يلبث هناك أكثر من سنتين، بفضل وزير الخارجية، معاصره الذي حصل له على مكان في السفارة، مع التزامات أدبية مبهمة. ونما السحر القديم، فباريس بالنسبة إليه الفتح الأعلى للرجل، مدينة لا تضاهى، وطن الانسانية، الجمال، الحرية، في العودة كرّس لها مجلّداً بكامله: «باريس حب باريس»، البادىء بعبارة استشهادية لجاك بريفير، مَن عرفه وأحكم معه صداقة:

«TAN PIS POUR CEUX QUE N'AIMENT NI LES CHIENS NI LA BOUE» [٣]

ناقد، معروف بأنه علاّمة، صنّفه «بريفير برازيلي» في تقدير غير متبصّر، إذ كان ينقص شعر برونو الاهتمام بالواقع الاجتماعي والسياسي الحاضر جداً في عمل الفرنسي. فما كانت لديه رؤية قط بالسياسة، حتى ولا عندما قدّم له حاكم ولايته المولود فيها، يريد الاستفادة من شعبية الشاعر، مكاناً في لائحة لنـواب اتحاديين[٤]. رفض مستبقياً نفسه بعيداً عن أيّ التزام. ونفر من إقامة ديكتاتورية الدولة الجديدة لكنه لم يتمرّس بأي تدبير احتجاجي. كان يقوم بدورات في خطاب تسلّمه المنصب في الأكاديمية. فلقد انتخب قبل شهور، ملحقاً الهزيمة ببرلماني ذي قدرة ملتهبة على

---

(١) GIGOLO: الشاب الذي يعيش على ظهر النساء.
(٢) نهر السين الذي يجري في وسط باريس.
(٣) في الفرنسية: على رسلهم الذين لا يحبون لا الكلاب ولا الوحل.
(٤) FEDERAL

الخطابة وطبيب ذي شهرة علمية وطموحات أدبية، خلّف لواءً هرماً، سرتونياً[1] متيّماً، مؤلف دراسات جافة إنما ذات علامات استدلالية حول اصطلاحات وعادات المواطنين البرازيليين.

مثقفو اليسار، في أكثر من مناسبة، انتقدوا الشاعر أنطونيو برونو للنقص في شعره حيال الالتزام في عالم منقسم ظالم ومضطرب حيث شعراء آخرون يعيشون مرارة المنفى أو يموتون إعداماً بالرصاص.

(١) نسبة إلى السرتون، الأراضي التي تصاب بالجفاف في شمالي البرازيل.

الشاعر يهبط من البرج البلّوري
ليعدم في باريس

عندما أثار النازيون الحرب، خرج الشاعر برونو من الشرنقة، شاعراً في نهاية الأمر بأن كونه، الحضارة، الحرية، كل ما كان يحبه مهدد. «هبطت من البرج البلّوري، البلّور كان معيقاً، يمنعني من رؤية العالم»، قال، في نوع من النقد الذاتي، في خطاب ألقاه في الأكاديمية، فصار يرافق الأحداث بحب متنامٍ، عائشاً ومعانياً في كل تفصيل من الصدام.

حتى ولا لحظة شكك في انتصار الجيوش الحليفة. حتى ولا عندما تسلل الفهرماخت إلى فرنسا ـ كان الجنود الفرنسيون لا يقهرون. أخذتهم الهزيمة فجأة، بغفلة كان الأمر مرعباً، كل شيء انهار في ما حوله، التوقعات والحماس حلّ مكانهما فقدان الشجاعة الكلي، رأى نفسه محاطاً بالخرائب، وفقد على حين بغتة وبالكامل الأمان ومذاق العيش. وأثار سقوط باريس فيه الصدمة.

كان لا يزال في المستشفى، كتب قصيدة موجعة. فللمرة الأولى والوحيدة، أخْلَتْ أنشودة الحب العذبة مكانها لغناء الحرب، أبيات شعر من النار والدم، من الإهانة واللعنة، لعنات ضد هتلر وأنصاره. مبتور بالضعة والعذاب اللاحقين بالمدينة المحبوبة، وطن الحضارة والإنسانية، المسحوقة تحت جزمات النازيين، انتصب الشاعر برونو، مع هذا، بشكل غير متوقع من سرير المرض، وتغلّب على خيبة الأمل والقنوط من العيش، فأدرك مسبقاً وأعلن عن اليوم القريب والذي لا شك فيه للتحرير، عندما تنبثق باريس، الحب والفرح، ثانية.

هكذا استخلص «غناء حب لمدينة محتلة» مع نداء حار لمتابعة المعركة حتى النصر النهائي. شجاعة غريبة، حماس عصي على التفسير شطرا مَنْ تخلّى

عن الإيمان في الحياة.

الحقيقة هي أن القسم النهائي للقصيدة قد أُعيدت كتابته كلياً. في الترجمة البدائية، ودّع الشاعر نفسه، منتحراً، رافضاً العيش في عالم وحشي. غير أنه حينما شاهد دموعاً في عينيْ تلك التي تخاطر بالأمان والشرف لتزوره، خفية ومتألمة، مضيئة العتمات، طاردة الألم والموت، اصطنع أنطونيو برونو، الذي لا يستطيع أن يثنيه أيّ شيء، المشاركة بتأكيده المقاتل والعنيد، فشطّب الأبيات الشنيعة عن القنوط وخيبة الأمل، ونظم أبياتاً جديدة، هي أبيات المقاومة والنصر. كانت من تأليفه تلك القصائد العريضة، المكثّفة والبطولية، لكنَّ الإلهام قد أتى من الزائرة الجسورة والهشة التي أوحت به في نبرة ساحرة عبر البحر. عهد إليها برونو بالنص الأصلي للقصيدة وهي طبعت خفية، على الآلة الكاتبة، النسخ الأولى.

حُملت إلى النشر في ملحق إحدى الصحف اليومية الكبرى في الريو، فحظرتها الرقابة (أو الرقابة الذاتية) لكونها «مهينة لزعيم أمة صديقة». بالرغم من هـذا، فإن القصيدة كسبت في بضعة أيام قلائل، انتشاراً مديداً وشعبية واسعة. لقد مُررت من يدٍ إلى يدٍ، في نسخ مطبوعة على آلة الستانسيل، طباعة على آلة تدار باليد، وبلغت الأطراف الأكثر بعداً في البلد.

حتى ولا نجاح «غناء حب لمدينة محتلة» تمكن من استبقاء حيوية الشاعر. فالأمل والإقدام الكامنين في القصيدة، التي كان يتغذّى بها ألوف البرازيليين، لم تدعم قلبه المضطرب. حينما قدم مدير «منظورات» وهي مجلة كان أنطونيو برونو يجهل وجودها آنئذ، يطلب إذناً بنشر القصيدة الملتزمة والملعونة، قلّص هو فقط كتفيه:

ـ ماذا تساوي قصائد ضد المدافع والهمجية؟ أنشر، إذا شئت، إذا سمحوا. فلم يعد ثمة مكان للشعر في العالم، ولن يعود فيتواجد.

بعد ذلك بعشرة أيام، في صباحٍ صافٍ، الشمس تضيء الأستديو الباريسي الضائع، الشاعر يسقط، بالإعدام.

الوردة، القبلة، السيدة باللباس الأسود العقيد والموت نهائيا

عقّب المعلّم آفرانيو في شبه ابتسامة:

ـ لو وُجدت موسيقى لاستطاعت الرقص...

صاغية صامتة، تركت السيدة ذات الجمال الذابل تنهدة تفلت منها إزاء ذكرى مباغتة لـ«بال ماسكيه». وافق المهيب والقاسي إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، والصوت أبح لمدخّن مزمن:

ـ ما كنت أعجب لو نهض برونو وأمر بتقديم شامبانيا لجميع الناس. هكذا رأيته يفعل في باريس، أكثر من مرة...

أديبان هرمان متأثران. حول منصّة التابوت، حيث سجيّ الشاعر وأسطورته كبوهيمي بلا منازع، كغاوٍ لا يقاوم، كانت تتلاحق تلك الإنفعالات من نساء، كثيرات، شقراوات، سمراوات، واحدة شقراء ذات نمش في الوجه، أربعينيات أنيقات وفتيات مع زهور، مراهقات برداء المدرسة الثانوية، قصائد منسوخة في دفاتر الرياضيات، الممثلة الكبيرة والخياطة الصغيرة مع الوردة باليد.

تقدمت الخيّاطة الصغيرة الوجلة ووضعت الوردة فوق مطرزات الدمقس في الرداء ـ وردة من النحاس، وردة من العسل، الوردة البنت.

انحنت الممثلة الكبيرة، والعينان نديتان، قبلت الجبين البارد، وتأملت في وداع أخير الوجه الجانبي الرومانطيقي ـ «الوجه الجانبي الرومانطيقي لبدوي» ـ كان الشاعر يعلن نفسه متحدراً من شيوخ الصحراء، ويجري في عروقه في الواقع دم

موريسكي[1]، جده لأمه فؤاد معلوف، عندما تنازل عن المتر والمقص، نظم قصائد بالعربية. ذكريات وقت ماضٍ لوداع آخر، جعلت حضن المرأة الحسناء يختنق فابتعدت مختنقة بالنار الملتهمة للغرام الأول، مَنْ يدري أنها الحب الوحيد الحقيقي في حياته العاطفية المنفعلة.. ظل موسوماً إلى الأبد.

شُكل جمعٌ حول الصديقين. تناول إيفاندرو نونيس دوس سانتوس المنديل، مسح النظارة بلا ماسكين والعينين المحمرتين. كان يروي وقائع حديثة، أحداثاً وقعت منذ بضع سنوات، تخصّ مع هذا عهداً مضى.

ـ كان يتقاضى بضعة دولارات في السفارة، لم يكن حتى موظفاً قانونياً، لكنَّ الجميع كانوا يعاملونه كما لو كان هو السفير. قضيت ثلاثة شهور في باريس، في هذه المناسبة، وكنا نخرج معاً كل يوم. لا أعتقد أني أعلم أحداً ما أحب مدينة بهذا القدر. كانت باريس تخصّه. يا له من صديق ساحر جداً...

انضمت الممثلة الكبيرة إلى الجمع وهي لا تزال منفعلة:

ـ إني مدينة له بوظيفتي. وطأت المسرح محمولة منه، كان الكائن الأكثر سخاء...

كانت مدينة له بأكثر من ذلك، لو استطاعت أن تقصّ التفاصيل لكان عملاً مشكوراً أن تفعله.

أكد المعلّم آفرانيو:

ـ الصديق الكامل... ـ انطفأت الابتسامة في الشفتين المرتعدتين: ـ إنها الحرب التي قتلته، هتلر. حتى أنه في يوم الخميس تسلّم أنباءً عن زوجين فرنسيين، من أصدقائه. كانا قانطين، فالإبن الوحيد ذو العشرين عاماً، أُخذ كرهينة، وانتهى به الأمر أن أُعدم رمياً بالرصاص من قبل الألمان. قال لي برونو: «لا أحتمل بعد».

صمت، مفكراً كيف أن الحياة صارت مريرة وكيف أن الافق يضيق. جال ببصره في الحضور وعندها شاهدها تصل، متشحة كلها بالسواد، والوجه نصف مغطى

(١) MOURO : العربي من سكان الأندلس والمغربي في الوقت الحاضر.

بنقاب الحداد، لم تكن أبداً أكثر جمالاً ـ لقد أتت برغم كل شي، غير مبالية بنصائحه. اقتربت خفية من الجثمان قبل أن تبتعد إلى ملاذ في الستائر، لاحظها المعلم آفرانيو؛ صارمة، تشدّ على يديها المتقاطعتين، الأصابع الطويلة والناعمة زرقاء ضاربة إلى السواد. «إنها إحدى الآلهة، يا معلّم آفرانيو، هبطت من الأولمب، أنا لا أستحقها، فأنا مجرد مجنون أبله...».

ظهر القاضي ليزاندرو لايتي من قاعة أمانة السر، ناضحاً بالعرق ومتوتراً، فعبر الفناء، ومضى حتى باب الخروج متلصصاً إلى الشارع. انضم رئيس الأكاديمية إيرمانو دو كارمو إلى الجمع وإلى تمجيد المتوفى. آنئذٍ، وسط ضجة طقس السهر على الميت، سُمع بشكل مميّز، صوت الممثلة الكبيرة المنغّم والواضح قائلاً قصائد آسرة ربما كُتبت لها. وقف ليزاندرو لايتي ليصغي لكنه وسط أحد المقاطع كان يختلس النظر إلى الباب.

تلك الخطوات الثابتة، المتسقة، التي ترجّع الصدى عالياً، كانت غير مرتبكة، ولا أي مدني كان يحسن الوطء كهذا. العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، كله في استعراض جنائزي، مشى بخطى عسكرية إلى التابوت، وجمع كعبي قدميه بضوضاء، وركّز نفسه في وضعية ذات مدلول أمام الأكاديمي الميت، وأدّى له التحية (وكررها للمصورين).

ـ رباه... ـ تأوّه آفرانيو بورتيلا.

وبغتة كان الصمت، الصمت البارد. صمت صوت الممثلة، قطع الشعر. لبث العقيد وهو جامد، في الوضعية ذات المدلول، دقيقة لانهائية. بعد ذلك قام بنصف دورة حول نفسه، وحيّا الرئيس: «خسارة جسيمة للأدب البرازيلي»، وكرر ذلك للأكاديميين، وسلّم على بعض الأشخاص ذوي المراتب. وإلى جانبه، منتصراً وحامياً، قاضي الاستئناف اللامع ليزاندرو لايتي.

وإذ وعى الرئيس العلامة المكررة من القاضي، وهو قليل الاعتراض، دعا العقيد إلى الصعود إلى الطابق الثاني. اتجهوا إلى المصعد، وللم ليزاندرو لايتي في طريقه اثنين من الأكاديميين. الآخران تردّدا، من دون أن يعرفا إذا كان عليهما الذهاب أم لا.

«لدينا مرشح»، قدّر أحدهما؛ وأكمل الآخر: «ويا له من مرشح!»

ـ رباه! ـ كرر المعلّم آفرانيو.

نزع ايفاندرو نونيس دوس سانتوس النظارة بلاماسكين:

ـ ليس هذا ممكناً! ـ أقل من نفي، كان تحقيقاً مؤلماً.

خرجت السيدة ذات الملابس السوداء من ملاذ الستائر، ومتخلّية كلياً عن أي حذر، سارت في اتجاه الصديقين، مصعوقة وساخطة: ماذا يعني حضور ذلك الشخص في السهر على الميت؟ هل كان ذلك عرضاً، ادعاءات؟

لم يعد بعد الآن يسود الردهة الجو المضطرب القريب من جو الاحتفال الملح عليه من قبل الشاعر، الذي فيه الالم والاشتياق كانا حقيقيين وحيويين وليسا قناعين للظرف، أحاسيس مستعارة. انتهت الضوضاء المضطربة، ولم تعد تُسمع ضحكات، صوت فرح، تنهدة منفلتة، قصيدة حب مهموسة. ترك الأبله المجنون منصة التابوت، حيث بقي فقط جثمان أكاديمي على أهبة الانتقال إلى المقبرة.

الآن، كلمات مقاسة، جملٍ مهيبة، وجوه بائسة، رائحة نتنة لشموع وزهور، الصمت البارد ـ في النهاية فُرض طقس الموت.

القسم الثاني

معركة[1] الـ PETIT TRIANON

(١) اسم فرنسي يطلق على مقر الأكاديمية البرازيلية للآداب في مدينة ريو ده جانيرو.

نبأ قصير عن عشاء
مع نبيذ العنب الصافي

ترك العقيد اختيار لائحة الطعام في عهدة المكرّس نفسه للآداب القانونية البارز، النهم المحترم، المواظب على ارتياد المطاعم ـ كان يحب الأكل جيداً وكثيراً، فوق كل هذا عندما يكون مدعواً. لكنه يبدي اهتماماً في الإشارة إلى النبيذ، نبيذ ملوّن[١] من ريوغراندي دو سول[٢]:

ـ إنه عنب خالص، شيء لذيذ.

معتمداً على أسباب إيديولوجية وجغرافية، سخّن ليزاندرو لايتي الأمل في جرع بضع زجاجات من الراين الأصلي، ذي المنشأ الجرماني النبيل والمنتصر. شرب النخب منسجماً مع النبيذ المقطّر من العنب الخالص:

ـ لنجاح ترشيحك.

ـ أنا شاكر لك. والنبيذ، كيف هو؟

ـ سلسبيل[٣] («عصارة العنب العاطل، ثمالة مرذولة...»).

يبدو أن العقيد يتناقص الحجم والأهمية في المظهر المدني. ولكن ليزاندرو لايتي لم يدعْ نفسه يُخدع، مجرد مظهر، فالبذلة لا تمس السلطان الذي يتمتع به المضيف. يكفي الانتباه إلى المائدة القريبة، الموضوعة استراتيجياً، حيث أبطال أقوياء يحرسون (أدبياً) ظهر الرئيس. وفي الدروب ذات أشجار الحور في المقبرة أيضاً، عند نهاية فترة ما بعد الظهر، استطاع القاضي أن يقارن ثقل واتساع هذا السلطان، ملاحظاً ردّة

---

(١) TINTO: النبيذ الأحمر الذي بلون المداد.

(٢) ولاية في أقصى الجنوب من البرازيل.

(٣) في الأصل NECTAR : كوثر أو شراب الآلهة.

الفعل لدى الأكاديميين إزاء نبأ الترشيح. لم يجرؤ أحد على رفع صوته في معارضة جبهوية لمطلب العقيد، مع أن العديدين من بينهم لم يتمكنوا من إخفاء النفور، مبتلعين القرص بغم شديد، السفلة الليبراليون. كان يجب اتخاذ الحيطة لتجنّب الأصوات البيضاء، القادرة على تعريض نظافة الفوز للخطر:

ـ مرشح وحيد بالتأكيد. بالنسبة إلى الإجماع، سوف أناضل للحصول عليه، مقنعاً برأيي المتمردين، زمرة الـBBC...

ـ زمرة ما؟

ـ هؤلاء الذين يعيشون معلّقين بالمذياع، يصغون إلى الـBBC في لندن. لا أخفي عليك أن الأكاديمية متعفّنة بهم. لكن التقدير الذي يحظى به الصديق العزيز وتجربتي...

يروي، بين إيقاع الشوكة، النتائج (الإيجابية) للاتصالات الأولى. سامبايو بيريرا يترك جانباً أدوات الأكل لكي ينبسط بشكل أفضل بالإطراءات والتكهنات التي يتلقاها من الصديق في اجتيازهما المقبرة.

ـ والرئيس؟ بدا لي أنه يكتم بعض الحقائق نوعاً ما، عند المساء.

ـ في حالة الرئيس، ايرمانو ملزم بالبقاء رصيناً، فهو لا يستطيع إعلان الاشخاص المفضلين لديه بالصراخ. تحادثت طويلاً معه قبل وصولك. قال لي حينما أبلغته بنيّتك: «في الواقع، الأكاديمية بحاجة إلى ممثل عن الجيش». إن واقع كونه قد دعاك إلى الصعود إلى الطابق الأول، مصحوباً بأكاديميين، عنى في الممارسة التقديم العلني لترشيحك، تحت رعاية الرئاسة. عمل صغير من هذا النوع أيها الصديق ههنا... ولاحظ أنه كان في السهر على الميت ثلاثة من طالبي المركز على الأقل ولا واحد منهم استحق مثل هذا التقدير. حتى ولا راوول ليميرا..

ـ رئيس الجامعة؟

ـ ذُكر اسمه منذ وقت كافٍ.

مرشحون أقوياء للأكاديمية هو الشيء الذي ينقص الأكاديمية. لكنْ دع تنظيف

الأرض على عاتقي. أنا اتعهد ليميرا، فهو يبقى مضموناً للمرة القادمة... بيرسيو، مسكين، إنه في النهاية، لن يقاوم كثيراً... ـ أخفض صوته:

ـ سرطان الرئة.

يفترض مراكز شاغرة ستحدث، فهناك شيء ما من رقصة الماكابرا[1] في الكشف الصحي للاكاديميين. استخلص التقرير، التأكيدي:

ـ آفرانيو بورتيلا نفسه توافق معي على أن ترشيحك لا يمكن إحباطه. حتى هو نفسه، العدو الصلب للنظام، القليل الاستلطاف لإسم الصديق.

ـ لن أستطيع أبداً إسداء الامتنان لك أيها القاضي. لكنْ ليعلموا بأني غير جاحد، أولئك الذين يحضرون حميميتي...

في الكلام عن الحميمية، في سريان «المأدبة الفخمة اللذيذة» (في التصنيف الكفوء للقاضي)، قررا، المرشح وراعيه، ترك التعامل الاحتفالي للسيد[2] بـ«أنت» الأخوية، فتركا جانباً امتيازات وألقاباً ليقولا الواحد للآخر آغنالدو وليزاندرو. وفي ما خص الامتنان، فإن الاكاديمي يعيد تأكيد السخاء المطلق لتأييده، الناتج فقط عن إعجاب مخلص ونقي بعمل الكاتب وبالتضامن الكامل واللامحدود إزاء النشاط الذي يتمتع به الوطني.

حتى ولو أن مركزاً شاغراً في المحكمة العليا لن يكون إلا في منتصف العام التالي، لمناسبة التقاعد الاجباري للوزير بايفا، وهو أيضاً زميل آخر من الأكاديمية وصديق طيب. أُعدّت الحسابات، بالضبط حينما يكون هو، ليزاندرو، ملقياً الثناء على الخالد الجديد، في جلسة الاستقبال المهيبة.

في السهر على الميت وفي المقبرة شعر بتضييق أصم ومغلف إزاء اسم العقيد؛ الانتخاب سيكلف جهداً أكثر مما يتخيّل. المهمة الأساسية؛ الحؤول دون تسجيل المرشح الآخر. ومن أجل أن يغدو جدّ ممتن بقدر ما هو مطلوب، يجب على العقيد أن

---

(١) MACABRA: رقصة ترمز إلى الموت الذي يجرجر الطاعنين في السن إليه.

(٢) يوجه الكلام إلى المخاطب عادة بـ«السيد» بدلاً من «أنت».

يدخل الأكاديمية محمولاً على محمل[1] وليس منافساً على أصوات.

- في يوم الخميس القادم، ستكون جلسة الاشتياق، التي سنزجي فيها بالثناء على المتوفى، وبعد أن يعلن الرئيس المركز المفتوح، عليك أن ترسل البطاقة مقدماً نفسك مرشحاً؛ وعلى الأثر في اليوم التالي أريد أن يكون ترشيحك يا عزيزي آغنالدو مسيرة عسكرية حقيقية ومنتصرة.

شربا مرة أخرى نخبيهما من النبيذ الملوّن لريوغراندي:

- كوثرا

على المائدة المجاورة تغذّى - على حساب مادة المعركة ضد الشيوعية - **المصارعون**[2] **الهرقليون**[3]. انحرف ليزاندرو لايتي بنظره، ليس بالضبط، فبالنسبة إليه الرؤية العضلية ممتعة وحيوية. أكثر من ذلك، مستعملاً اللباقة اللازمة، ينبغي له إسداء النصح للعقيد بكتمان أكثر للسر في طريقة التصرف لعناصر أمنه الشخصي. ففي الزيارات التي يقوم بها الأكاديميون وفي قدوم متوقع إلى «التريانون الصغير»، سيكون من الأفضل ترك الفتيان المندفعين في الخارج، في الشارع. في ذلك المساء، في السهر على الميت، جعلوا الرئيس يتعثّر عند مدخل المصعد، والسفير فرانسيلينو ا بيدا، العضو القديم جداً في الزمرة اللامعة، الوحيد المتبقي من الأربعين مؤسساً، والهيكل العظمي الهش، تلقى دفعاً قوياً من أحد الأغبياء بحيث ألزمه الركون إلى السرير. وفي الحال اعتبر هو من قبل ليزاندرو صوتاً مؤكداً للعقيد.

---

(١) ANDOR: الزياح عند النصارى.
(٢) GLADIADOR: المصارع في العصر الروماني الوثني الذي كان يصارع أنداده حتى الموت.
(٣) نسبة إلى البطل الأسطوري هركوليس.

الحفيدان والجد

اجتاز إيفاندرو نونيس دوس سانتوس مدعوماً بعصاه، بين أشجار حديقته، متنزّهاً صغيراً ذا أشجار مثمرة؛ قدم ليجلس على مقعد خشبي مستطيل تحت شجرة المانغا. آه! في مرتفعات سانتا تيريزا، كانت النجوم تلمع في سماء شاسعة وصافية. حتى ولا الجمال الهادىء لليل يدخل الاطمئنان إلى قلب كاتب الدراسات الهرم. ولا أيضاً حضور الحفيدين التضامني.

- اليوم، للمرة الأولى، تحسّرت على كوني عشت ردحاً من الزمن.

يتكلم ويتصرّف كطاعن في السن لا يكاد يستطيع تحريك أطرافه. يتحقق بيدرو، مذعوراً، مخفياً وجهه في العتمة. تأخذ إيزابيل يد الجد وتقبلها. تجلس على العشب، عند قدميه، توسد رأسها على الركبتين العظميتين، تحاول الابتسام، ماذا تساوي الكلمات؟ في العتمة يلاحظ بيدرو الكتفين المقوسين، الرأس المنحني، الشعر الأبيض؟ الجملة المعذّبة مؤلمة في أذنيْ الفتى، المعتاد على فلسفة من ينكر الشيخوخة. الحفيدان يستطيعان حساب العذاب الذي يسحقه. وهما أيضاً يحبان الشاعر أنطونيو برونو. في المقبرة، كان على إيزابيل، التي تبنّاها في العمادة، أن تجد مسعفاً لها في ذراع أخيها.

يتذكر بيدرو عندما جاء بهما الجد، هو في السابعة من العمر، وهي في الخامسة، من أجل قبلة الوداع على آلفارو وباربارا، الوالدين، ضحيتي كارثة بليدة للسيارة. عند تسلّمه جثتيْ ابنه الوحيد وكنته العزيزة، في ذلك الفجر، آنيتا، زوجة إيفاندرو («زوجة، أخت، أم وعشيقة») ماتت بالنسبة إلى الفرح، وإذا بقيت على قيد الحياة بضع سنوات فذلك كان بتكليف من الزوج: «علينا أن نعيش من أجل الطفلين».

وعاشت حتى رأتهما مراهقين، بيدرو في السادسة عشرة، وايزابيل في الرابعة عشرة. لم تعد تشعر أنها شخص لا يمكن الاستغناء عنه، وضعت آنيتا نهاية للمهمة الثقيلة، فاستسلمت للمرض الشرس. «سوف أموت، يا حبي»، قالت للرفيق.

وبالرغم من معرفته بأنها لن تشفى، محكومة بالموت، توسّل إليها إيفاندرو: «لا أريد أن تمضي قبلي، لا أريد أن أغدو عجوزاً بلا صاحب، لا شيء أشد حزناً من كلب بلا صاحب، متسكعاً في الزوايا بحثاً عن كلمة، عن حركة حنان. ماذا يقال آنئذٍ عن عجوز بلا صاحب؟ ذكّرته آنيتا بالحفيدين اللذين لم يعودا بحاجة إليها لكنهما لا يزالان يعتمدان عليه كثيراً. «لن تبقى أبداً وحيداً لديك الطفلان والأصدقاء».

كانت آنيتا مصيبة، فلم يكن عجوزاً حزيناً لا طائل منه، كلب قطيع متعباً ومتوحّداً، فعلاوة على الحفيدين والأصدقاء، العمل. بالخط الدقيق (لم يكتب أبداً بالآلة الكاتبة) ملأ صفحات وصفحات محللاً تكوين وشروط الإنسان البرازيلي. في تلك السنين الأخيرة، نشر ثلاثة كتب، تتويجاً لعمل ذي فحوى استثنائية خرق أفكاراً راسخة، أنهى مفاهيم، أكد شجاعات، ثوّر الدراسات الاجتماعية والتاريخية. من دون أن يلتحق بأية إيديولوجية، كان يمتلك نَفَساً متحرراً، فوضوياً تقريباً في رؤيته للحياة. لا يعيش أوهاماً، وفي بعض الأحيان سيء التهذيب، مع سلطان الإقناع الذي لا يقاوم والقيادة، والذين ما كانوا يعجبون به ويريدونه، كانوا يخشونه، ويعلّقون: «لا يُعْرَف أبداً ما الذي يستطيع استنباطه وفعله».

في صمت الحديقة، في ليل النجوم، بعد دفن الشاعر يسعى بيدرو وإيزابيل لاستنهاض حيوية الجد. ويصل صوت بيدرو من العتمة قلقاً:

ـ برونو ما كان يحب أن يراك هكذا، يا جدي...

ـ إنها لحقيقة، يا حبيبي.

ايزابيل كانت تقول له «يا حبيبي» منذ وفاة آنيتا، كما لو أنها قد تسلّمت الجد بالوراثة.

ـ ليس لكونه ميتاً، أعددت أنا نفسي من أجل موته منذ الصدمة الأولى. إن ما أحزنني هو شيء آخر..

ـ أي شيء يا جدي؟

ـ أنتما تعلمان كيف كان هو متيماً في هذه الحرب، رعبه من النازية، بالقدر الذي جعله يموت، مع فقدانه الأمل. وهل تعرفان من سيخلفه في الأكاديمية؟

ـ ها قد ظهر مرشح؟

ـ سامبايو بيريرا، هذا العقيد النازي...

ـ مَنْ؟ العقيد آغنالدو؟ ملك الطابور الخامس؟ إن هذا لمرير يا جدي، لا يمكن أن يصير.

ـ وهو الذي سيحتل مقعد برونو. كان ينبغي لي أن أحيا لأحضر هذه الشائنة.

ركضت نجمة في الليل، وارتفع صوت إيزابيل:

ـ قد يكون آغنالدو راغباً في ذلك لكنك لن تقبل، أليس كذلك، يا حبيبي؟ فأنت لن تدعهم يفعلون هذا مع والدي بالتبني.

ابتسم بيدرو، وجدد الطمأنينة:

ـ من الواضح أنه لن يتركهم، فالجد سيجد وسيلة.

لم يكن عجوزاً بلا صاحب، كلب قطيع مهملاً ومتوحداً بانتظار الموت. رفع رأسه فيما إيزابيل كانت تكرر:

ـ من اللازم فعل شيء ما، يا حبيبي.

«ليس بوسعنا فعل شيء، فالرجل أحد أصحاب البرازيل»، أسرّ إليه الرئيس في المقبرة، «فمَنْ يجرؤ على مقارعته، معارضته»؟ خرج إيفاندرو نونيس دوس سانتوس من الدفن قانطاً، عديم الجدوى وتعساً.

صوت بيدرو القوي:

ـ إنك ما هربت قط من مشادة، يا جدي.

ما هرب قط من مشادات، حتى أنه أثار بعضها كثيراً. أليس بالوسع فعل شيء ما بسبب عدم توافر مَنْ يجرؤ؟ إنك مخدوع أيها السيد الرئيس، فسيتواجد مَنْ يعارض الترشيح الشائن، مَنْ يناضل ضد هذا الظلم اللاحق بالأكاديمية وبذكرى برونو.

وحتى من دون أن يسعى إلى دعم من العصا، ينتصب عالياً، أعجف ومهيباً:

ـ إنكما مصيبان، من اللازم فعل شيء ما. سأتصل هاتفياً الآن بالضبط بآفرانيو.

نهضت إيزابيل لتقدّم إليه ذراعها لكنَّ الجد تقدّم بخطاه، ويتبيّنه بيدرو متقدماً بين ظلال الأشجار، كيف استطاع تخيّله عجوزاً عاجزاً عن الحركة؟ يلتقط العصا المتروكة.

المعلم آفرانيو يفكر بهجر الأكاديمية

القاعة الثرية الباذخة، ثريات البلّور، تحف البورسلان، أجهزة من الزجاج، أوانٍ متلألئة، لوحات لأساطين مدرسة الفنون الجميلة، كلها تنم عن ذوق حسن واضح لكنها نوعاً ما من حقبة منصرمة. الخادم أخلت أطباق العشاء المقدّم على ضوء الشموع. صامت، والنظرة تائهة عبر النافذة (كانت تُرى الأضواء المتقاطعة للسيارات في ساحات شاطىء فلامنغو) آفرانيو بورتيلا لمس[1] فقط الطعام. ترددت وهي مضطربة، الدونا[2] روزارينيو - ماريا دو روزاريو سينـترا ده ماغالايس بورتيلا - في أن تقترح عليه دواءً. طيلة أربعين سنة من الحياة الزوجية، رأت زوجها مرات قليلة جد مضطرب ومغتم.

كان أنطونيو برونو أكثر من صديق بسيط. فعندما وصل إلى الريو ليواظب على الدراسة في الكلية، وهو مراهق مأخوذ بالأدب، ظهر ذات ليلة، بلا دعوة حتى ولا ساعة محددة، ليري ابن ولايته، الكاتب الذي كان آنذاك معروفاً، بعض القصائد والقصص. الأشعار كانت جيدة، والقصص رديئة، أدلى آفرانيو برأيه، فيما الدونا روزارينيو كانت تأمر بوضع مزيد من أدوات الأكل على المائدة. منذ ذلك الوقت وأثناء أكثر من ثلاثين سنة، كان هو مكان برونو، فالزوجان من دون أبناء، تبنّيا التلميذ الوقح الشاعر. قررت الدونا روزارينيو ألّا تذهب إلى السهر على الميت، ولا حتى إلى المقبرة. فضّلت أن تتخيّله ههنا، إلى المائدة، متكلماً عن باريس، معلناً الحب الأخير والنهائي.

---

(١) المقصود: حرّك الشوكة في الطعام.

(٢) السيدة.

ـ ألا تريد أن أعطيك. . .

ـ مري بأن يقدّم إليّ كأس كونياك، فهو الذي يلزمني.

شرع يخبرها، ببطء، تفاصيل السهر على الميت والدفن. في رأي عام، لم يوجد في ريو ده جانيرو كلها نثر أكثر فتنة. «كان سيغدو روائياً استثنائياً لو كتب بنفس النكهة، نفس اللطافة التي بهما يتحدث»، همس زميل ذو لسان حاد، احتقار خالص، إذ أن روائية آفرانيو بورتيلا ـمع أنها أُهملت في السنوات الأخيرة بذات نسيان أمام ضجيج الحركة التحديثية وتأثير روائيي جيل الثلاثين ـ تستحق التصفيق من النقد الذي أقرّ ورحّب بمبدع «آديليا» كمحلل نافذ وجريء لمجتمع الريو في حقبة العشرين. في زمن فقير بالقصصيين تعاظم عمله بالنباهة السيكولوجية، بوضوح اللغة، في خدمة رؤية مبهجة لعادات المدعوة «النخبة». كان الأول في البرازيل في استخدام التحليل النفسي في ترجمة أحاسيس أبطاله، أو أفضل، بطلاته، فصوّر النساء وهنَّ يتناقشن بين الغرائز والخرافات.

في كتاب واحد فقط، في روايته الأولى، ابتدع سيناريوهات وشخصيات من أعمال التنقيب عن الأحجار الكريمة وأكاليل الجبل[1]، حيث وُلد. دراما ذات مشاعر بدائية وحيوية، من الحب الوحشي والأرض الوعرة، ذلك المجلّد الصغير، المعزول في مجموعة روائية ذات الموضوعية المدينية، عن الأوساط الأنيقة والتافهة، كسب أهمية شيئاً فشيئاً. لقد نمت البريئة والقليلة الحياء مالوكينيا[2] المتلفعة بالخرق البالية، في تقدير القراء، في حين أن الفتيات المغاليات في الأناقة وبنات أكابر القوم المعقّدات في الروايات التسع الأخرى المنشورة انتهين في مخادع البغاء.

الأخيرة «المرأة في المرآة» ظهرت في العام ١٩٢٨، تصادفت مع إطلاق «العاهرة» في بارايبا[3]، في طبعة فاشلة من طبعات الأقاليم، لواحد مجهول، هو جوزيه آميريكو ده الميدا. هل كانت هذه الواقعة التنافسية سبباً ليهجر آفرانيو بورتيلا القصة، عائداً إلى الدراسة والتاريخ الأدبي؟ إنه تأكيد جريء لناقد لاذع، الأمر الأكثر احتمالاً هو تواجد

---

(١) نوع من النبات ذي الزهر.

(٢) هذا الاسم يعني: المجنونة الصغيرة.

(٣) مدينة في أقصى الشمال الشرقي من البرازيل.

المصادفة، إذ أن الروائيين الشماليين الشرقيين، المنبثقين عند مصب نهر البارايبانو، حصلوا على ترحيب حار ودعم فعّال من مؤلف «شاطىء فلامنغو». مجلّد حول كاسترو ألفيس، دراسات حول غريغوريو ده ماتوس وتوماز أنطونيو غونزاغا حفظت بجلاء اسم آفرانيو بورتيلا. المعلّم آفرانيو، كما يقولون في احترام محبب زملاء وقراء. الدونا روزارينيو تصغي إلى الـوصف، والسرد يأخذ في كسب قوة وخبثاً. إنها تعلم أنه، تحت معطف المثقف العلاّمة والمهذب يعيش ليف ابن السرتون، من الصعب خمود همته. وضعية قبل أن يعلن:

- استعدي الآن، لنبأ بذيء.

- الدونا روزارينيو تستغرب النبرة المحمّلة باشمئزاز في الصوت المتودد عادة للزوج. شيء ما حدث، قادر على أن يحوّل غياب برونو أشد قسوة. يتابع آفرانيو والسيدة المضطربة تسمع الخطوات ذات الإيقاع، إداء التحية العسكرية والتكرار للمصوّرين. ولكونها تعيش إلى جانب الزوج، فإن الدونا روزارينيو تعلم المكائد الأكاديمية. كانت ترافق عن كثب كل انتخاب وحتى أنها تؤثر في بعض الانتخابات.

- مرشح، أنت تفكر؟ ستكون لديك الجرأة...

- مرشح منتخب. لا يُهْزَم، قال لي ليزاندرو لايتي في المقبرة، وهو محق. هل تخيّلت قبلاً أن بيريرا سامبايو يزجي بالثناء على برونو، مؤلف «غناء حب لمدينة محتلة»؟

- يا له من رعب.

هذا... بحث عن كلمة مريحة فلم يجد...

- إنه قادر على استعمال الجزمتين مع الرداء.

نظرة تأمل، ثم أراحت عينيها في الوجه المهان للمعلّم آفرانيو:

- وأنت، ماذا تفكر أنك فاعل؟

- سأقترع بورقة بيضاء، إنه واضح، سنكون ثلاثة أو أربعة، بالتأكيد. لن أذهب إلى حفلة تسلّم المركز، وأظن أني لن أعود إلى الأكاديمية بعد مثل هذا الانتخاب. وهو أكثر من اللازم بالنسبة إليّ...

الدونا روزارينيو لم يصل بها الأمر لتعبّر عن رأيها لأن الخادم طلبت إذناً لتعلن أن السيدة ماريا مانويلا كانت عند البابِ وتسأل إذا كان الدكتور بورتيلا يستطيع استقبالها.

ـ هل تأتين معي؟

ـ كلا. هي ستشعر أنها على سجيتها أكثر من دون حضوري. هل تنسى أني رسمياً لا أعلم شيئاً؟

زائرة غير مألوفة

في الحجرة الفسيحة، الجدران مغطاة برفوف الكتب، الدونا مانويلا ممتقعة ومضطربة، لم تشأ الجلوس. بعينين محروقتين رمقها صديق برونو القديم، الموثوق، ذلك الذي كان على علم بكل شيء. عند الصباح سمعها هو في الهاتف مخذولة، لم يحاول حبس دموعها، ولو فتش عن كلمات للمؤاساة لما عثر عليها. تركها لتضبط هي نفسها بالذات، لكي ينصحها آنئذٍ باتخاذ الحذر، وهو الآن لازم أكثر عندما تجازف بنفسها وقد باتت من غير تبصّر. وعد بأن يسعى إليها قريباً، وتذكرا معاً الضحك، اللطف، الشعر.

ـ جئت لألتمس. . . قل لي إنك لن تسمح. إنني لم أستطع منعه من أن يموت. . . لكنك تستطيع تجنّب أن يلحقوا العار بذكراه. . .

كانت تتكلم بحزن، في الصوت المرتج من الهيام، كانت تبرز اللهجة الليشبونية[1]:

ـ أنا أجنبية، أعلم ذلك، لكن الحدود انتهت، والحرب واحدة فقط. رفع الرأس الأنوف، «إلهة هابطة من الأولمب» سيدة شابة في تألق الثلاثين سنة، وتحوّل التضرّع إلى إصرار آمر:

ـ إن فاشياً لا يمكن أن يقطف الإرث الذي هو لنا. جئت لأسمع منك أن هذا لن يحدث. جلّاد الشعب، نازي، يخلف أنطونيو. . .

في جهد أمسكت بالنشيج:

ـ إنه كما لو أنهم يقتلونه مرة أخرى.

(١) نسبة إلى ليشبونة عاصمة البرتغال.

رباه! قيل إنه كتب عشرة كتب محللاً أحاسيس النساء...

- كيف عرفت؟

- ارتبت في السهر على الميت، أردت حتى أن أكلمك. منذ قليل سمعت النبأ في الإذاعة. أنا لا أستطيع فعل شيء، لكنك تستطيع.

على المائدة، عند نهاية العشاء، قال المعلّم بورتيلا للدونا روزارينيو إنه سيتخلّى عن التردّد إلى الأكاديمية، لن يضع قدميه هناك بعد الآن، لو صار ذلك الفرد منتخباً، حسب كل ما يتوقعه.

بدا له أنه يعصر هكذا الاحتجاج الأشد قوة، القرار المتطرّف. الآن، هنا في الحجرة، مصغياً إلى ماريا مانويلا، يتنبّه إلى أنه قد تحمّل فقط مسؤولية وضع مريح، سلبي، لا يقود إلى شيء. يجتاحه إحساس بالذنب. كيف بوسعه الانتقاص من صديق، تاركاً ذكراه للقتلة؟

- لا أعلم إذا كنت سأتمكن، لكنني أعدكِ بأنني سأفعل الممكن...

- والمستحيل...

- حسناً، والمستحيل.

السيدة الشابة، «البنت مانويلا» سارت إلى الأديب الهرم، قبلته من وجهه، ومشت في طريقها إلى الباب، ورافقها المعلّم آفرانيو حتى الردهة. عالم عبثي ومفاجىء.

- مَنْ كان سيصدّق أن زوجة مستشار السفارة البرتغالية، إبنة أحد وزراء سالازار[1]، من أسرة أصحاب المصارف، ثرية وذات نفوذ، هي عدو للنظام، متعاطفة مع الاشتراكية، تختار مصيرها إلى السجن، إلى معسكر الاعتقال.

«أعتقد أنها شبه شيوعية»، يكشف برونو في بدء المغامرة. «شيوعية أم لا، هي بالتأكيد المطلق رائعة ومجنونة في المقامرة بالمصير. كلّفني جهداً إقناعها بألاّ تترك زوجها من أجل السكن معي. هل فكرت بالفضيحة، يا سيد آفرانيو؟ أنظر الوضع المعقد الذي حشرت نفسي فيه».

---

(١) ديكتاتور البرتغال في زمن الحرب العالمية الثانية.

في العودة إلى القاعة، قال المعلّم آفرانيو بورتيلا للدونا روزارينيو، التي جلست أمام المذياع لتستمع إلى نشرة أخبار الـBBC:

ـ جاءت تطلب مني...

ـ... نفسه الذي كنت سأطلبه منك. أن لا تسمح بانتخاب هذا الجزّار. لا أقصد التخلّي عن الظهور في احتفالات الاكاديمية، فأنا أثمّنها كثيراً. والآن اتصل هاتفياً بإيفاندرو الذي يريد التكلم معك حول هذا الشأن بالضبط.

ابتسمت لزوجها بنفس الابتسامة الملتبسة في الزمن الذي كانت فيه حبيبة، حينما عارض الأبوان المليونيران زواج الإبنة من أديب بائس لا يملك شروى نقير.

عجوز يسير في الشارع

كان المعلّم آفرانيو بورتيلا، العجوز غير المتعقّل، يفكر في قرارة نفسه وهو ذاهب في الشارع إلى الأكاديمية ليلتقي مع معتل آخر، هو إيفاندرو نونيس دوس سانتوس. **مَنْ كان يجرؤ على الانتفاض ضد الـDIP، الـDOP، أجهزة الشرطة المختلفة،** الخدمات السريّة، ضد ذلك الذي كان رئيس الأمن الوطني الكلي القدرة، مرشح القوى الحيّة في البلد، النظام المستتب، ديكتاتورية الدولة الجديدة، مرشح سادة الحرب المنتصرين في العالم؟

عجوز غير متعقّل لكنه كان يمضي في الشارع منتصب الكتفين، وبريق في الحدقتين المتعبتين وابتسامة خبث. عقّب أحد المارة عند رؤيته له ماضياً: «ههنا يمضي عجوز قانع من الحياة».

التبصر والأعمال المهمة

فيما هو ينتظر آفرانيو بورتيلا، مَنْ تواعد معه على اللقاء، رفع إيفاندرو نونيس دوس سانتوس عقيرته في حجرة الرئيس، في اتهام طويل وفظ ضد ترشيح سامبايو بيريرا، مبيّناً الأسباب السياسية والأخلاقية التي تجعله غير مقبول.

ـ إنها لشتيمة موجهة إلى الأكاديمية، إهانة!

ـ هل تظن أني مَنْ ابتكر هذا الترشيح أو أنَّ لي مصلحة ما فيه، وأني أتلقاه بسرور؟

يتذكر إيرمانو دو كارمو التجربة المزعجة في العشية، عندما حشره الحارسان بالقوة في المصعد، لكنه لم يذكر الواقعة كيلا يضع حطباً في الشعلة:

ـ ماذا يمكنني فعله لتجنّبه؟

بقي السؤال في الهواء، وإيفاندرو نونيس دوس سانتوس يهمهم بأن عليه أن يفعل شيئاً ما، مهما كان الأمر. ويتابع الرئيس:

ـ النظام يصرّ على أن المرشح يجب أن يكون قد نشر كتاباً، والرجل نشر عديداً من الكتب، من بينها كتاب أشعار، أنت ما كنت تدري؟ أنا لمحت لليزاندرو بأن بعض الأكاديميين قد فكروا في فيليسيانو، مرتئيين أن المرشح المثالي لخلافة برونو سيكون شاعراً كبيراً آخر. وأجابني بعنوان ذلك الكتاب وضمن لي، أن شاعراً بشاعر، ومرشحه لن يبقى مديناً لفيليسيانو أو لبرونو. يبدو أنها أشعار رومانطيقية، من عهد الشباب. حتى أن لديه هذا العمل المهم.

ـ عمل مهم عاطل جداً...

لكنّ الآخرين، في المقابل... ينبغي أن ترى ليزاندرو وهو يدفعهم واحداً واحداً، من جيب الصداري: مرشح الجيش أحد أهم شخصيات الحكومة، تقدير لا يُحد، إن الأوقات ليست للمزاح. مناقشة أخرى ذات ثقل: هذا المقعد محجوز للجيش، وكان محجوزاً دائماً، من أول شاغل إلى ما قبل الأخير، والتقليد يجب أن يستعاد. ومن الآن فصاعداً... لا أرى مخرجاً، يا صديقي الهرم. إذا اكتشفت مخرجاً ما، قل لي. فأنا لا أرى أيّ مخرج...

ـ ما هذا... أنت نفسك قلت: نطلق فيليسيانو...

ـ وأنت تعتقد أنه يقبل أن يغدو مرشحاً ضد سامبايو بيريرا؟ أشك في ذلك. يجب أن أقول لك إن هذه القصة عن المقعد الذي يخصّ الجيش لا تدع نقاشاً يصير صحيحاً. في المبدأ، أنا أفضل ترشيح شخصية من الجيش، وأنت تعلم أن الأكاديمية كان في عدادها دائماً ويجب أن يستمر في عدادها ذوو المراكز العالية في مختلف الطبقات.

ـ في مادة ذي المركز الرفيع...

ـ حسب وجهة نظر كل واحد، أليس هذا؟

لم يحاول الرئيس الالتزام.

يجرع إيفاندرو نونيس دوس سانتوس بقية ما في فنجان القهوة، ويضع الفنجان الفارغ. آفرانيو بورتيلا يتأخر ولا يبدو له سهلاً حل العقدة. وفي المقابل هو لا يخشى أن يتعهد:

ـ لن يكون بصوتي دخول هذا الحقير إلى الأكاديمية.

مؤامرة في ساعة الشاي الأنيقة

يلتقي آفرانيو بورتيلا وليزاندرو لايتي القادمان من اتجاهين مختلفين، عند باب «التريانون الصغير». الرضا ينعكس على الوجه السمين للقاضي:

ـ نبأ ترشيح آغنالدو قد رُشح في الصحافة الناطقة والمكتوبة.

الصوت المبتهج مع إعلان الإسم الأول للعقيد الكلّي القدرة، برهان على الحميمية المحسودة. لا يكشف المصدر الاخباري لكن الروائي تكهّن به بلا جهد؛ إنه مثله، ليزاندرو لا يضيع وقتاً في العمل.

اتجها معاً إلى حجرة الرئيس. تهالك قاضي الاستئناف على أريكة، ويرعى المعلّم آفرانيو الإنسانية البارزة العظام لإيفاندرو نونيس دوس سانتوس، منتهزاً الفرصة ليتجنّب إقدام الباحث القاطع في رأيه على قول «بعض الحقائق، ذلك المتقلّب المداهن».

ـ هيا بنا نتناول الشاي في كولومبو، هناك سنكون على سجيتنا للتآمر، بعيداً عن ليزاندرو وقريباً من النساء الجميلات من أجل متعة عينيك، أيها العجوز المتصابي.

وبصفته من الروّاد المواظبين لكولومبو، برفقة أنطونيو برونو، خصص آفرانيو لإيفاندرو عاداته ومقبّلاته. لقد أوحى حب الشاعر ذو الخاصية الغنائية للخيّاطة الصغيرة الجميلة القائمة على النافذة في المشغل الكائن في الطابق الثاني من المبنى المجاور له «احتساء شاي الخامسة»، قصة قصيرة مسرّة وآسرة، وهي العودة الوحيدة للروائي إلى أرض القصة الخيالية، بعد أكثر من عشر سنوات من إطلاق «المرأة في المرآة».

إلى مائدة مقهى متجر الحلوى[1] وكان إيفاندرو لا يزال سيء المزاج، شرع يتهجّم على الرئيس الذي «لم يكتم سرّاً عن موقفه الذي هو في مصلحة ترشيح العقيد».

ـ في مصلحته؟ برغم دفعه إيّاه البارحة؟

ـ دفعة شديدة؟ أيّ قصة هي هذه؟

ـ سأخبرك بعد قليل. قبل ذلك أريد أن أعرف بالضبط ماذا قال إيرمانو.

ـ قال إنه يفضل مرشحاً للجيش. لكي يستعيد التقليد.

ـ أشار إلى مرشح عن الجيش أو ذكر بالإسم العقيد سامبايو بيريرا؟ آغنالدو، كما قال ليزاندرو وهو ذو لعاب يسيل.

ـ تكلم بشكل عام.

الفارق كبير، يا إشبيني ـ كان آفرانيو وروزارينيو عرّابين لآلفارو عند العمادة ـ سأكشف لك أمراً: أنا أيضاً أفضل ترشيح شخصية من الجيش. . ـ ابتسم بخبث.

بين الفينة والأخرى، يتمكن الصديق والإشبين من إخماد همّة العجوز إيفاندرو، وفوق كل ذلك، لمناسبة المركز الشاغر في الاكاديمية. يدعم دائماً على وجه التقريب المرشحين أنفسهم الذين يتصرفون بطريقة مناقضة أثناء الحملة. إيفاندرو يعلن بجلاء خصائص المفضل لديه، مجادلاً، مناقشاً، فيما آفرانيو يتحرك بحذر، يتصرف بوداعة، يكيد في الأروقة ـ يعتبرونه القطب الانتخابي الأكثر رعباً في الحملة. حتى أنه لا يزال الآن، أمام التهديد المخيف لترشيح آغنالدو غوبلز بريرا (العقيد بالذات، في مقالة معلّق عليها، أكد أنه يقبل بشرف وافتخار الشهرة بـ«غوبلز البرازيلي» التي أراد فيها أعداء الوطن أن يسخروا منه ويحقّروه). آفرانيو لم يبدُ أنه ساخط. خلاف ذلك، يبدو أنه مسرور، يفرك يديه لشدة ما هو راضٍ. ويعلن إيفاندرو وهو نافذ الصبر:

ـ فسّر لي مرّة واحدة ماذا يدور في رأسك إذ ليس لديّ شيء، ما عدا الغضب.

يطيع المعلم آفرانيو، يجري حسابات، بثراء التفاصيل، عن نشاطه المركّز. ومن آن لآخر يقطع التقرير بهدف إزجاء التحية لمعارف أو ليسترعي انتباه الإشبين لامرأة،

---

(١) CONFEITARIA: مصنع الحلوى ومكان بيعه مرفق به مقهى يعرف في الفرنسية بـ PATESSERIE.

خليقة بأن تُرى، عارضة نفسها في الشارع. لم يضع وقتاً (لا هو ولا ليزاندرو). في العشية، بعد المحادثة مع إيفاندرو وفي الحال، اتصل هاتفياً ببعض الأشخاص الأكاديميين، متبادلاً معهم الانطباعات. وأبكر فجراً في الخروج من المنزل، زائراً في الصباح لا أقل من أربعة زملاء، وتناول غداءه مع شخص خامس، هو رودريغو إيناسيو فيليو، والتأخر في اللقاء مع إيفاندرو كان بسبب الذهاب إلى شقة فرانسيلينو المسكين، ضحية دفعه بشكل عنيف هو أيضاً. في الاتصالات الهاتفية وفي الزيارات، حظي ببعض الايضاحات، وانتزع خلاصات:

ـ توجد مقاومة محسوسة لإسم سامبايو بيريرا.

ـ لن نذهب في المبالغة، أيها الإشبين، لنكن واقعيين. توجد تضييقات بعضها عميقة، جو مزعج، الشخص غير مقبول، لديه صيت تشاؤمي. حتى المسيح بالنسبة إليه مشبوه. أخبرني رودريغو أن الرقابة منعت في اسبوع الآلام نشر موعظة الجبل في «مجلة أيام السبت». وتوجه مدير المجلة جيل كوستيلو إلى الـ DIP مقتنعاً بأن القطع يجب أن يكون بسبب تصوير المادة، وهو رسم حديث من بورتيناري. صار أخرقاً عند معرفته أن المنع قد أشار رأساً إلى نص الكتاب المقدس. أحد الموظفين، لكي يحرر الشخص، أظهر أصل الأمر: ديوان سامبايو بيريرا. ولقد سمع رودريغو القصة من فم جيل نفسه.

ـ مَنْ يستطيع التصويت لشخص من هذا النمط؟

ـ لا تتوهم. برغم كل هذا، سيغدو منتخباً إذا لم نتحرّك بالعقل. سوف يقترعون وهم يشدّون على الأنف، بنفور، كما قال لي الكانتارا، لكنهم سيقترعون. النافذون لدى ليزاندرو ليسوا غشاشين وهو ليس أخرقاً. ما كدت أنا أعلم بالحادث الذي تعرّض له فرانسيلينو، حتى ركضت إلى شقة الرجل العجوز. أول شيء رأيته، عند دخولي، كان سلّة هائلة ملأى بالفاكهة: تفاح، إجاص، عنب، وبطاقة مداهنة، موقعة بإسم العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، إنما الخط كان خط عزيزنا ليزاندرو...

ابتسم مجدداً:

ـ كسب هذه المبارزة يتطلب يا سيد إيفاندرو، مهارة شيطانية. شيطانية! ـ يكرر

الغرض، والآن جدي: ـ يلزمنا العثور على مرشح...

ـ لدينا فيليسيانو، ليس بالوسع أن يكون أفضل منه. شاعر صفّق له الجميع، معروف من قبل الهرمين والشباب وهو زهرة في شخص.

ـ لا يكفي أيها الإشبين. يلزمنا مرشح يستطيع الأكاديميون الاقتراع له بلا خوف، بلا خوف من العقوبات الانتقامية. مرشح يقدّم ضمانات أمن ضد أي محاولة انتقام من سامبايو بيريرا، وهو فرد قوي ذو طبيعة سيئة. الذي يصفّي من البدء أي مدني، مهما كان. علينا الخروج من أجل ترشيح عسكري، يا سيد إيفاندرو، عسكري ذي مركز أعلى من مركز بيريرا، أو ليكن لواءً.

إيفاندرو العجوز، الداعية المدني الراسخ، مؤلف كتاباً ذا صدى قاري حول شرور النزعة العسكرية في تاريخ بلدان أميركا اللاتينية، عارض متمرداً:

ـ لا تأتني بهذه القصة عن المقعد المحجوز...

ـ ليس الأمر عن هذا...

ـ لم يعد لديه ما يبعث على التسلية.

ـ الأمر حول تجنّب أن يغدو شخصاً متورطاً مع النازية وكل ما تعنيه النازية، مع تعذيب المعتقلين السياسيين، مع الرقابة التي طاردت كتّاباً وصحافيين. المناهض لبرونو، الذي مات لكي لا تتغلّب هذه الأمور المريعة، يأتي خليفة له، يجلس بيننا، في المكان الكامل في الأكاديمية، ويكون زميلاً لي، زميلاً لك.

وانت برهة صمت فيها إيفاندرو يهضم كلمات الروائي. هزّ رأسه:

ـ إيه... لديك الحق.

ـ لديّ، أجل. من أجل مرشح مدني لا أضمن أكثر من أربعة أو خمسة أصوات، صوتينا، صوت رودريغو، صوتي... ـ يذكر اسمين: ـ وانظر إذن! بينها إذا كان الأمر مع لواء، وإذا عملنا جيداً، بوسعنا كسب المبارزة. يلزمنا بشكل عاجل لواء، مؤلف كتاب واحد على الأقل، خصم للنازية وللدولة الجديدة، ويبدي استعداده لمواجهة العقيد سامبايو بيريرا. هل أنت على اتفاق معي؟

ـ موافق. الأمر الصعب هو العثور على واحد مع كل هذه الصفات المطلوبة. . .

ـ سنعثر عليه، أجل، فأنت أيها الإشبين مغالٍ. بالنسبة إليك، ارتديت الرداء، وانتهى الأمر. بين العسكريين يوجد كثير من الناس الطيّبين والجديّين، الديمقراطيين؛ الأغلبية. والآن اسمع قصص الدفعات. . . ـحتى قبل أن يبدأ السرد، أخذ يضحك. كان آفرانيو بورتيلا يبتهج كثيراً، يستوفي من الحياة أفضل ما تستطيع أن تقدمه له.

اللواء في انتظار مخابرة هاتفية

يترك اللواء فالدوميرومورريرا وهو نافذ الصبر، الجريدة، يستشير ساعته، ينهض عن الأريكة، يجتاز الحديقة الصغيرة، يتقدم إلى باب القاعة، يتحقق من الفوضى. حسب ما تخيّل، سيسيليا تشغل جهاز الهاتف، في الحب. ملعون طبيب الأسنان ـ الجرّاح! كما لو أنه لا يكتفي من الإزعاج.

ـ آي! لا تقل هذا... ـ الفتاة تستحيل ضحكاً ودلعاً.

ـ سيسيليا!

ينقرض الضحك والدلع، إزاء صوت القيادة من اللواء. وإذ سدّت فوهة جهاز الهاتف بيدها، توسّلت مَنْ لا تخضع:

ـ دقيقة واحدة فقط يا أبتاه.
ـ إغلقي الخط، في الحال!
ـ في هذه اللحظة يا أبتاه.

ينبغي لسابينسا النافع جداً أن يتصل هاتفياً حالما يكون قد تحادث مع الدكتور فيليز لينياريس ويحصل على الاتفاق الذي لا غنى عنه. لكن، اللقاء قد حُدد موعده إلى ما قبل الغداء، في «كازاسانتا»، حيث المؤلف الخصب لروايات حول مواضيع العهد القديم يستوفي واجبات طبيّة ويلبّي شؤوناً متعلّقة بالأكاديمية الفلومينية[1] للآداب، التي يشغل رئاستها، وأُعيد انتخابه للمرة الخامسة وبالإجماع.

---

(١) FLUMINENSE: النسبة إلى ولاية ريو ده جانيرو في البرازيل.

مع احتساء القهوة، منع اللواء استعمال الجهاز بدءاً من الساعة العاشرة صباحاً. الزوجة والإبنة تلبثان طويلاً لساعات مع الهاتف، الدونا كونسيبسون تكيد، تشكو من نفقات الحياة. سيسيليا في إطلاق الإيمان على الحب.

وكمعجب بنشاط اللواء الأدبي، بخاصة في الحملة من أجل نقاء اللغة الأم، كلاوديونورسابينسا صاحب «نخبة[1] الأدب اللوزو[2]- البرازيلي»، من «رابطة الكتّاب الفلومينيين» والكتب التعليمية لدراسة القواعد اللغوية (من السنوات الأولى، الثانية والثالثة) حقق عملاً خصباً مثيراً للإهتمام في وسط الزملاء الأكاديميين، بإنجاز جلي. وأظهر الوسط نفسه قابلاً للتأثر ومتعاطفاً مع اسم اللواء، وأيضاً لأن الطالب التالي، فرانسيسكو لاديرا، قبل أن يتوجب عليه ما هو مدين به للقيمة القابلة للأخذ والرد للقصائد العروضية، هو مدين للغة السامية. قارعاً الرفاق في نواحي الأدب الرديء بلا رحمة، ينوي مع هذا أن يغدو منتخباً، فيسير ساعياً إلى تجنيد أصوات، بوجه بريء جداً. ومع هذا كله فإن الكلمة النهائية متعلّقة بالرئيس.

إن مكانة الدكتور فيليز لينياريس في الطب، صاحب زبائن أثرياء ونافذين، تضمن له إعانات مالية، أفضالاً ومبالغ، تتيح له إمكانية جعل الجماعة تحت قيادته بوجود حقيقي، لكن إضافة إلى محاضر الجلسات، فإن الذي يضمن له المركز في النطاق الإيالي[3] الذي ينتمي إليه هو نفسه، نشر (مع تأخير إنما بالمجان) مجلة، كتيّبات وحتى كتب الأكاديميين في مطبعة الحكومة، كما على سبيل المثال «الرابطة» التي يصدرها كلاوديونور سابينسا. من دون الكلام على الموظفين الرسميين الموضوعين في تصرّفه؛ واحد يوصل ويأتي بالرسائل والمستندات، وسكرتيرة ملحوظة، مخطوبة ولا ترفض للآخرين طلباً. وظائف صغيرة للاهتمام بالمكان تتحوّل إلى وظائف مرغوبة ويجري التنافس عليها. المراكز الشاغرة في الأكاديمية الفلومينية للآداب، خلود محدود، مقتصر على تخوم ولاية الريو، وحتى مع هذا ليس الطمع فيه أقل استثارة.

إن التوتر والإثارة لدى اللواء ناتجان عن الوضع الغامض الذي تولّد عن انعدام

---

(١) ANTOLOGIA.

(٢) نسبة إلى البرتغال.

(٣) ESTADUAL: نسبة إلى ولاية.

التأكيد الذي طال. فعلاوة على السم والشاعر الرديء، فإن فرانسيسكو لاديرا يظهر نفسه فهيماً، يتكلم بأمور مرعبة عن نصف العالم، إنما ما فتح فمه قط ليعلّق على شخصيات لها علاقة بالكتاب المقدس (وهي تستحق الكثير!) للدكتور ليناريس، تصرّف يثير الرئيس. في الخضوع للتكهنات والمكائد فإن اللواء يعتريه الوهن.

وإذا حرر جهاز الهاتف، يعود إلى الأريكة في ظل الحديقة. في بداية عام ١٩٣٧ كان على وشك ترشيح نفسه؛ نفسه سابينسا المكرّس بدأ اتصالاته، لكن في ذلك الظرف، أجبرته اهتمامات عليا عسكرية وسياسية شغلت بالكامل وقت ومشاريع اللواء. لقد استسلم جسداً وروحاً لحملة آرماندو ساليس دو أوليفيرا الانتخابية لرئاسة الجمهورية. مع دور كبير لدرجة أنه اسمه ذُكر تكراراً في الصحافة كوزير محتمل في المستقبل للحربية، في حال فوز المرشح المعارض. والدونا كونسيبسون ذات الحماس المجرّب والحلم السهل، تمتعت خلال شهور بالاعتبار الجاري لهذا التوقع الفرضي المذهّب. آه! حسناً، لأشهر قليلة، إذْ في تشرين الثاني غرس انقلاب في الحكم ديكتاتورية الدولة الجديدة، فحُلّ البرلمان والأحزاب السياسية، وصُفّيت ترشيحات وانتخابات، واللواء فالدوميرو موريرا، من وزير المستقبل، أُحيل إلى الاحتياطي المجازي، وارتدى المنامة الكلاسيكية وعاد، في وقت متكامل، إلى الانشطة السلمية والمجتهدة في ميدان الآداب.

عاد إلى توقيع عمود أسبوعي «في الدفاع عن اللغة البرتغالية»، في «كوريّو دو ريو» وعُلّق أثناء الحملة الأرماندية[1]. أنهى تحرير مجلّد آخر، الثالث من «قصص تاريخ البرازيل»، قصص قصيرة وحكايات من تأثيرات عسكرية، وقد صادف صدوره الحديث مع مركز شاغرٍ في الأكاديمية الفلومينية، حمل الصديق سابينسا إلى التحرّك مجدداً، بإمكانات صريحة للنجاح. فلو اختص الأمر فقط بالأكاديميين... الموعد المحدد لذلك الصباح، بين القاعدة الانتخابية والرئيس ليناريس، سينهي مآل الترشيح الطموح، الفوز أو التنحّي.

ناقوس الكنيسة يعلن أن الساعة منتصف النهار، نهاية الصباح. لماذا لم يتصل

---

(١) نسبة إلى آرماندو.

سابينسا حتى الآن هاتفياً؟ استباق مقابلة أو مَنْ يدري، الحذر لينياريس قرر أن يكون لمصلحة فرانسيسكو لاديرا ليبقى منقذاً من الهجاء والأقاويل؟ اللواء يخشى على قلبه، فأخصائي الأمراض القلبية أوصاه بتجنّب الانفعالات الحادة.

يبدو له أنه يسمع رنّة جرس الهاتف، فضبط نفسه كيلا يخرج راكضاً الدونا كونسيپسون تعلن من باب القاعة:

ـ مخابرة هاتفية لك، موريرا ـ دائماً تدعو زوجها باسم العائلة، باحترام وتعبّد:ـ قال إنه الأكاديمي...

ـ إنه سابينسا، أعلم... ـ لقد صار واقفاً على قدميه.

ـ ليس هو، كلاّ...

ـ ليس هو سابينسا، إذن، مَنْ هو؟

ـ قال إنه الدكتور رودريغو إيناسيو فيليو، من الأكاديمية البرازيلية. يريد منك أن تحدد وقتاً لاستقبال لجنة من الأكاديميين...

يتردد اللواء فالدوميرو موريرا، مضطرباً. ينبغي أن تكون مكيدة، عمل من الغدّار لاديرا، بقصد التندّر بقلّة ذوق.

ـ الرجل في الانتظار، موريرا.

مكيدة بالتأكيد. يسير اللواء عابس الوجه إلى الهاتف. آه! إذا كانت مكيدة، فليحذر هذا الفاسق لاديرا، إذا أنه سوف يدفع غالياً. لا يُسخر بلا عقاب من لواء في الجيش، حتى ولو كان في الاحتياطي موضوعاً على الهامش.

الاختيار مع كونياك نابوليون

مَنْ تذكّر اسم اللواء فالدوميرو موريرا كان هو رودريغو إيناسيو فيليو، إذ وقف على الخطة، التصق بالأمر. وقد فعله فيها المعلّم آفرانيو كان يحضّر نفسه ليبسط يده لتلقي العقاب[1] ويعطي الحق للإشبين إيفاندرو: مهمة صعبة، هذه المهمة في العثور على لواء مع كتاب منشور يكون معادياً للنازية بشكل صريح، .لا يحتفظ بالتزامات مع الدولة الجديدة ويفترض أن يواجه سامبايو بيريرا. إن المناهضين للنازية كثيرون. هم الأغلبية؛ ضد الديكتاتورية، عديدون، لكن بين السطور، وليس أمام الجمهور. مع كتاب منشور، مجرد قلّة، من بين هؤلاء كم هم الذين سيقبلون ترشيح أنفسهم، مواجهين غضب وسلطان العقيد؟ في حجرة الروائي يجرعون الكونياك (شامبانيا من صنف راقٍ جداً، فرنسية، نابوليون، ومقاتلة)، الإشبينان يصفّيان مرشحين:

- إعمل معروفاً يا آفرانيو: كتاب رياضيات... لا يصلح.
- هذا لن يقبل أبداً المنافسة مع سامبايو بيريرا...
- كان يغدو إسماً صالحاً لو بدلاً من المقدّم كان لواء.

دُعي إلى الحضور، رودريغو إيناسيو فيليو، المخلوق الأقل ميلاً إلى الحرب في العالم، تقدّم ضاحكاً، عارضاً شارة فيلق الشرف في عروته، صفة الاشتراك في المقاومة. يقبّل يد الدونا روزارينيو النبيلة:

- جندي متطوع رهن أوامر زوجكِ يا سيدتي اللواء[2]. كل هذا عبث لكنه كان

---

(١) PALMATORIA: أداة خشبية لإنزال العقاب بها على أيدي التلاميذ.

(٢) MINHA GENERALA: جنـرالتي.

سيسرّ برونو.

ـ عبث، لماذا؟ عبث هي الحرب ـ أجاب إيفاندرو.

تناولت الدونا روزارينيو الزجاجة، تقدّم كأساً للأكاديمي الحديث الوصول وهي تتحدّاه:

ـ ضع يدك في جيب الصداري واسحب منه لواء، يا رودريغو. إنك تعرف المتطلّبات. . .

ـ أطيع أوامرك يا روزارينيو. أقترح اللواء فالدوميرو موريرا. . .

ـ فالدوميرو موريرا. . . أعرف هذا الإسم. . . ـ المعلم آفرانيو يدفع ذاكرته: أين يا إلهي؟

كان رودريغو قد تسلّم منذ أيام كتاباً جديداً للواء موريرا، مؤلف نصف دزينة من المجلّدات الضخمة الجيدة. لم يكن اللواء شخصاً مجهولاً، فقد كان يتمتع ببروز معيّن سياسي وعسكري، من دون الكلام في الأدب، إسمه جرى كثيراً في الصحف أثناء حملة آرماندو ساليس، حينما قُدّم إليه رودريغو. فلقد كانا معاً في مناسبتين أو ثلاث مناسبات. في مأدبة أُعدّت للمرشح، جلسا جنباً إلى جنب وتحادثا في الأدب والسياسة، لم يكن اللواء يكنّ تقديراً للحديثين، منتقداً عدم معرفتهم وعدم احترامهم لقواعد الأصل، لكن في المقابل كان ديمقراطياً ليّناً في ميادين الصراع، العامل الذي حوّلته الدولة الجديدة إلى الاحتياطي مناهض للنازية، موالٍ للحلفاء، كان يكفي أن تُقرأ تعليقات الحرب التي كان يكتبها في «كوريّو دو ريو»، يهاجم بشكل لاذع هتلر، «شخص مجنون فاسد».

ـ جد منحاز لدرجة أنه يرفض الاعتقاد في الانتصارات النازية، ينكر الوضوح.

ـ تبقى معرفة ما إذا كان يقبل أن يرشح نفسه.

وإذ كُلّف بجلب معلومات كاملة أكثر، يعود المعلّم آفرانيو بعد أربع وعشرين ساعة، منتصراً:

ـ لا يوجد شك، إنه رجلنا!

في الحجرة ذاتها، متذوّقاً نابوليون الحربي، يعرض وقائع وميزات متعلّقة باللواء؛ الثورة الدستورية، حملة آرماندو ساليس، الانسحاب من الخدمة الفعلية من قبل الديكتاتورية. خمسة كتب منشورة. مجموعة من ثلاث قصص تاريخية. مجلّد وقائع تتصدى لقضايا لغوية، إضافة إلى كرّاس (نافد) حول مظاهر الحملة العسكرية لعام ١٩٣٢ في جبهة ولاية ميناس جيرايس[1]. معتبراً رجلاً ذا كلمة وشجاعة، شديد الاعتداد بنفسه، وعنيداً. مقداماً.

- من أجل الظرف، إنه نوعية.

- هل تعتقد أنه سيقبل العراك؟ - استعلم ايفاندرو.

- إني مقتنع بأنه يفعل...

يرمق المعلّم آفرانيو رفيقيه في المؤامرة، بتلك النظرة ذات الخبث السار:

- أشك بأن تتكهنا بطموحه الحالي... ما الذي يقصده... - لحظة توقف، جرعة كونياك: - لا شيء أكثر ولا شيء أقل من أنه رشح نفسه للأكاديمية الفلومينية للآداب.

- إنها اكذوبة! أنت تمزح.

- إنها لحقيقة ناصعة. هل تخيّلتماه عندما نقترح عليه البرازيلية؟ سوف يفقد صوابه. لم يعد بعد، فسامبايو بيريرا لا يستطيع شيئاً ضده، وما استطاعوا فعله من السوء له، قد فعلوه. إنه رجلنا. رودريغو أصاب بالكامل.

- والكتب؟ - اخفض ايفاندرو صوته وهو يلفظ السؤال: . الكتب، ما رأيك فيها؟

في برهان على التكريس إزاء المسألة، لاحظ رودريغو بسرعة الكتاب الحديث النشر:

- إنه مؤسَسٌ على الافتخار لكنه جدير بالقراءة. يكتب بشكل سليم، القواعد اللغوية هي من عقائده. الأسلوب صقيل، هل تعلمان؟

- صقيل، هيه! أصيل؟

---

(١) إحدى ولايات المنطقة الوسطى من البرازيل، محاذية لولاية سان باولو، عاصمتها بيلو أوريزونتي.

ـ بالضبط. كان يغدو أفضل في الفلومينية لكن لا أرى آخر سواه.
ـ ولا أنا. ـ أكد المعلّم آفرانيو: ـ سوف أخصص بقية اليوم لكتبه، حصلت على أربعة، كارلوس ريبيرو حصل على الكتاب الذي نفد. كارلينيوس[1] كان هو الذي زوّدني بمعظم المعلومات حول اللواء.

إنه يشير إلى المكتبي المشهور في الريو، «تاجر كتب قديم»، كما سمّى نفسه بالذات. كان يرتاد مكتبته، في شارع سان جوزيه، إغريق وطروواديون، أكاديميون وحديثون، أدباء ذوو شهرة وقيمة لا تضاهيان، متحدِّرين من جميع الآفاق، المدارس، الميول، جماعات وكنائس صغيرة. أفضل من كارلينيوس ريبيرو استعلاماً، مستحيل.
ـ إنما ـ وسّع المعلّم آفرانيو الابتسامة الهزلية جداً ـ ابتعت من كل مجلّد نسختين، لي ولك أيها الإشبين. يلزمنا معرفة عمق عمل مرشحنا لكي نستطيع تقريظه.

لم يبد إيفاندرو العجوز أنه مستغرب:
ـ تقريظ، سأقرظه، إذا لزم الأمر. في الحرب كل شيء مجدٍ، ليس هي ساعة البقاء في الوسواس. الآن، قراءة... كلا، الأمر يتطلّب أكثر من ذلك. الافتخار، أسلوب صقيل... أعرف النوع. بقدر ما أقرأ أقل، أستطيع أن أقرظ أكثر.

---

(١) تصغير لاسم كارلوس.

الآداب الجميلة، بلسم

إذ تلاشى الوهم الوزاري، ووُضع في الاحتياطي بانتظار التقاعد الإلزامي، صمم اللواء فالدوميرو موريرا على العودة فقط إلى العمل الأدبي ومجده الحاصل، متواضع إنما مشجّع. وكان لديه مع هذا عناد حربي وأثمر سوءاً.

لقد زوّده العمود الجدلي المخصص للدفاع عن القواعد اللغوية بمراسلة منتخبة وعلاقات ودودة مع مثقفين آخرين مختصين باللغة، مذعورين من عدم الاعتناء بالمبادىء الأساسية لقواعد اللغة، بإهمال واضح في الأدب الحديث، كتابة «في الناغو[1]، في الكابيندا[2]، في الكيمبوندو[3]». وجد نفسه مستسلماً لإعادة النظر في الجزء الثالث من «قصص تاريخ البرازيل» عندما انفجرت الحرب في أوروبا، مخلّياً المكان للعناد.

كان اللواء يكوّم. سلطة في مسائل اللغة («فقيه في اللغة كفوء»، في رأي مكرِّس لريفادافيا بونيتس، مؤلف «ملاحظات قواعدية») وسلطة في العلوم الحربية، تلميذ مكلل بالغار من قبل أساتذة البعثة العسكرية الفرنسية، لا يقهر في المناورات العسكرية. وإذا كان هكذا في «كوريّو دو ريو» نفسها، حيث كان في أيام الآحاد يعلّم كيف يكتب المرء جيداً، صار يملي يومياً اتجاهات الحرب العالمية الثانية، في تعليق قصير وبنبرة تأكيدية، «الحرب، يوماً إثر يوم ـ تحليل وتوقعات»، موقّع ببدايات إسمه: لو. ف. م.

---

(١) NAGO: سلالة أفريقية من أصل سوداني.
(٢) CABINDA: نسبة إلى جنس أفريقي معينّ.
(٣) QUIMBUNDO: لغة زنوج أنغولا.

لم يبلغ الاستراتيجي النجاح نفسه لعالم القواعد اللغوية. ولكونه قبع في خندق خط ماجينو[1] الذي لا يمكن اجتيازه، فإن فرق البانتزر[2] الهتلرية أوجزت معلوماته الصلبة بسحوق. وفي عدم تقدير شامل للقواعد المؤسسة على العلم القتالي، كانت تُكذِّب في جميع الأمسيات التحليلات والتوقعات الصباحية للمعلّق. بدأ ال لو. ف. م. يخسر قطاعاً أرضياً مع غاملان، سقط مع ويغان، من هزيمة إلى هزيمة - مجزرة. وخائب الأمل، انتهز قصّ الرقابة للنعوت التي كان ينتقم بها من تقدّم الفوهرر، ثم انتهى به الأمر إلى إنهاء الالتزام للتخفيف عن مدير الجريدة.

التجأ من جديد إلى الآداب الجميلة التي كافأته عن الخيبة مجيزة إياه باستقبال جيد مُنح لمجلّد «قصص تاريخ البرازيل» هدف النقد الموجّه لمصلحته. كتب الوفي سابينسا مقالاً مطولاً تقريظياً وألتينو الكانتارا الجليل، من الأكاديمية البرازيلية، شكر في رسالة «للرفيق المحترم إرسال كتابه الجديد، الذي في صفحاته في ما خص اللغة السليمة، ينبض بالوطنية الأصيلة، في وصف الوقائع البطولية الجديرة بالذكر». جملة منقولة في مقطع «كتب ومؤلفين»، للمستقبلي ماورو ميرا، في «جريدة الصباح».

أصعب ما يمكن التغلّب عليه، تصوّر القرف البيتي المتسبب عن خفّة سيسيليا التي هجرت الزوج في كوريتيبا[3]، وهونقيب مجتهد ومستقيم، لتأتي كاشفة نفسها في الريو، ساحة أكبر. شعر اللواء وهو الرجل ذو الكلمة والشرف، أنه ساخط (لكنه ليس مباغتاً).

المركز الشاغر في الأكاديمية الفلومينية وإمكانية الفوز فيه كانا بلسماً، يجعل الجروح تندمل. الأصداء الأخيرة للسخريات حول تعليقات الحرب، تتركز هنا وهناك (. . . «وهي تميت من الضحك . . .» - وضحكوا بقهقهات في ديوان العقيد سامبايو بيريرا قارئاً بصوت مرتفع «الحرب يوماً إثر يوم»)، أشواك مزعجة تتلاشى. أمّا في ما خصّ

---

(١) خط التحصينات الفرنسية بوجه القوات الألمانية قبل اختراقها من قبل الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية.

(٢) الدبابات في الألمانية.

(٣) عاصمة ولاية بارانا في وسط البرازيل.

غراميات سيسيليا ـ غراميات؟ اللواء يفضّل ألّا يستخدم الكلمة الصحيحة ـ فهو تركها على عاتق أم المنحرفة، الدونا كونسيبسون دو برادو موريرا، وهي سيدة قوية تزوّج منها، عندما كان أرمل بلا أبناء في الثلاثين من عمره، يخدم في ماتوغروسو[1] لم يتحمّل الوحدة.

والدونا كونسيبسون بدورها متحدّرة من عائلة تقليدية من العسكريين. وتسلّط الزوج لم يبلغ حد مضايقتها، فقد كانت معتادة. قبل أن تخضع لسلطته، عانت من شقيقها الذي كانت تعيش في بيته حتى اللقاء المبارك مع موريرا. والزواج، علاوة على أنه جعلها تنسحب من المتراس الكبير، حررها من الطبائع السيئة لزوجة أخيها الفاسدة. أمّا بالنسبة إلى سيسيليا، الخارجة على طوع أبيها، فهي عنيدة ذات رأس قاسٍ، فاقدة الإحساس إزاء الحجج والتهديدات. لكن بما أن اللواء مستقيم والدونا كونسيبسون مهذّبة فَمِمَّنْ ورثت الإبنة الاشتياق الجامح، الشهوانية المتحللة، الشبق؟ وحده الله يعلم.

لو تلقى اللواء، حسب ما هو متفق عليه، مخابرة هاتفية من سابينسا مع خبر حسن بموافقة الرئيس، لاستطاع تناول الغداء مطمئناً، متمدداً بعد ذلك على الأريكة للقيلولة، والقلب خفيف وفرح. كان سيقول للصديق بأن يأتي في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، فيتفقان معاً على تفاصيل الانتخاب وتسلّم المنصب. وعلى حين بغتة تغيّر كل شيء. فبدلاً من الإيالي كلاوديونور سابينسا، الذي ألف كتاباً عن مجموعة من الشعراء[2] وكتباً تعليمية، عضو الأكاديمية الفلومينية، اتصل هاتفياً السامي القدر رودريغو إيناسيو فيليو، مؤلف «ذكريات الآخرين» عمله الرائع[3]، عضو الأكاديمية البرازيلية.

دلّ قلب اللواء على خفقان، تلك الوخزة. تجلب الدونا كونسيبسون قرص الدواء والكأس مع الماء:

---

(١) ولاية في القسم الغربي من البرازيل، وهي من أكبر الولايات البرازيلية وأشدها تخلفاً، عاصمتها مدينة ماناوس.

(٢) ANTOLOGIA.

(٣) OBRA - PROMA.

ـ لماذا لا ترقد قليلاً يا موريرا، ما دام الغداء لم يُعد؟

يقدّم له الطعام بشكل ملزم عند الثانية عشرة وثلاثين دقيقة، حتى الغداء تأخر في ذلك النهار.

افتراضات، قليلة وعبثية

لجنة من أعضاء الأكاديمية البرازيلية للآداب! في الهاتف التمس الدكتور رودريغو وكان شكلياً، من اللواء العزيز موريرا أن يحدد اليوم والساعة، في تاريخ قريب، لاستقبال لجنة من الأكاديمية. هذا بعد أن تذكّر اللقاء في المأدبة التي تستحق الذكر، مواضيع الحديث، مزيلاً أيّ شبهة لغش، مبرّئاً الحقود لاديرا. لكنه لا يفضي إلى شيء حول غرض الزيارة وبدا للواء أن السؤال غير سليم. أجاب بأنه، سيكون رهن الأوامر، في أي يوم وساعة وأشار إلى الشرف السامي.

ـ لجنة من الأكاديمية البرازيلية! هل سبق لكِ وفكّرتِ، يا كونسيبسون؟ أي شيطان يأتي بهم إلى هنا؟

وإذْ أعطته العقار، تحاول الدونا كونسيبسون تهدئته:

ـ لماذا لا ترقد، فيما أنهي الغداء؟

يرقد! كأنه ممكن. يرفض السرير، الكنبة، الأريكة. يجب أن تكون المخابرة الهاتفية نتاج التباس ما. لكنْ ما هو؟ وإذا لم يكن التباساً؟ مَنْ يدري، فكّروا باسمه لجائزة ماشادو ده أسيس، تمجيد عظيم يُمنح سنوياً من الأكاديمية، يتوّج مجموعة أعمال كاتب. لقد سبق وحدث، في حال وجود مأزق بين مؤلفين، كلاهما قويان، فقرروا تخصيصه لثالث، طارىء. اللواء الواسع الاطلاع حول مصادر الآداب، يعلم أنظمة وتقاليد المؤسسة اللامعة. يعرف أنه في مسألة ماشادو ده أسيس، الموضوع استشارة جدية سابقة، معَدّة من خلال أكاديمي ذي علاقات معها، مع سجيّة متحفظة. لم يسبق له أبداً أن سمع كلاماً عن لجنة تتوجه إلى بيت زميل لكي تسأله إذا كان يقبل الجائزة المشوّقة. ـشرف رفيع مصحوب بعطاء وفير من المال. وإذا لم تكن جائزة

ماشادو ده أسيس، ماذا بالوسع أن تكون؟ إنها معضلة قادرة على أن تصيب أكثر البشر هدوءاً بالجنون.

أمام اللواء أكثر من أربع وعشرين ساعة من الغم والقلق، حيث أن الدكتور رودريغو اقترح اليوم التالي، عند السادسة مساء. تسع وعشرون ساعة، في حساب الوقت، من الغم.

يسير اللواء من جانب إلى آخر من القاعة في خطى ذات إيقاع ـ كبير، ضخم الجسم، وجه محمرّ، شعر مقصوص على طريقة بوسكاريه. حتى أن المنامة ذاتها لا تخفي الحالة العسكرية، المرئية في كل أثر، في كل حركة، في السلطة التي هي جزء متكامل من شخصه. أي شيطان يأتي إلى بيته بلجنة من أعضاء الأكاديمية البرازيلية للآداب؟

يعلم بموت الشاعر أنطونيو برونو وبالمركز الشاغر الذي فُتح لكنْ لا يسمح لنفسه التخيّل بأي نوع من الارتباط بين الزيارة المعلنة والحادث المحزن مع نتائجه والاحتمال السار. لم يرد في رأسه أبداً مثل هذا التخيّل المستحيل. لكن، شاء أم لا، فالافتراض يطرح نفسه، باعثاً على القلق. سيسيليا، عند وقوفها على خبر المخابرة الهاتفية والمقابلة، تقتحم القاعة:

ـ سوف يضعون السيد، أبي، في مكان هذا الذي مات الآن.

أوّاه، قلب اللواء.

ـ لا تقولي بلاهات.

ـ إذاً فهم سيصلون مع لائحة، طالبين مالاً من أجل تمثال نصفي لأحدهم. إنهم يحيون مدشّنين تماثيل نصفية.

ـ تمثال نصفي! لا تعلمين الذي تتكلمين عنه.

تدعو الدونا كونسيبسون للغداء، مع نصف ساعة من التأخر، يا له من يوم، ربّاه! ينظر اللواء موريرا بقرف إلى الطعام المعدّ طبقاً للحمية[1]، وفقد الشهية.

---

(١) REGIMEN: الريجيم في الفرنسية وهي دارجة في اللهجة المحلية أيضاً.

يترك الشوكة ليلبي المتأخر سابينسا بالهاتف، والذي اعتذر عن التأخر وأعلمه عن تأجيل اللقاء مع الدكتور لينياريس. فالرئيس المقيّد إلى وسادة شخص مريض، لم يظهر في سانتاكازا. لكنْ ليبق مطمئناً الصديق العزيز، فمنذ الآن إلى أربع وعشرين ساعة سيكون ترشيحه رسمياً مع التأييد اللازم. يجهد اللواء نفسه ليخفي توتره، فيشكر بإظهار عاطفة زائفة.

إلى المائدة، تناقش الدونا كونسيبسون مع سيسيليا حول ما الذي يُقدّم للسادة المهمين، أعضاء الأكاديمية البرازيلية، الخالدين في الحقيقة، مع الحق في الرداء والمخصص المالي. في نصف السنة الأول الذي لا يُنسى من عام ١٩٣٧، اللواء اللامع فالدوميرو موريرا وزوجته الفاضلة تلقيا دعوة للجلسة المهيبة بتنصيب الدكتور الكانتارا، ذلك السياسي من سان باولو، وحضرا:

ـ أمر يبهر البصر أيتها البنت. كان يبدو بلاطاً ملكياً.

الأكاديمية البرازيلية، هذه نعم. كانت تستحق إضاعة الوقت، تبديد الأعصاب، بذل الجهد في المنافسة على مركز شاغر، لكنَّ هذا كما يبدو لن يصل إلى فم موريرا، المختزل إلى الإلحاح على دعم من أجل أكاديمية صغيرة تافهة، تتخذ مقراً لها في نيتروي[1]، بلا رداء، بلا مخصص مالي، بلا صورة في الصحف. مثل تلك الأفكار تخطر في بال الدونا كونسيبسون لكنْ تحتفظ بها لنفسها، فموريرا اليوم متكدّر وسيسيليا رأس مملوء بالهواء. سترى أنها مصيبة: ابتزاز مال، استجداء نقود لإقامة تمثال نصفي لذلك الشاعر الذي مات، وهو شخص يطارد النساء، حسب ما قالوه لها. في المقبرة عصبة فاضحة من النساء يبكين خلف التابوت. حسنٌ أيضاً أن سيسيليا لم تعرفه.

ـ ما الذي سأقدمه؟ جعة، غوارانا[2]؟ أستطيع أن أوصي على بعض الفطائر المحشوّة بالقريدس، بعض أفخاذ الدجاج؟

يقطع اللواء الفظ كلامها:

---

(١) مدينة قرب الريو، تعتبر من ضواحيها.

(٢) نوع من المرطبات الشائعة في البرازيل.

ـ الأفضل هو ألا تقدّمي شيئاً. جعة، أين شوهد مثل هذا؟

ـ على الأقل شراب روحي من الفاكهةـ أو شاي؟ أوليس الشاي هو ما يتناولونه هم هناك في الأكاديمية؟

ـ لماذا لا تقدّمين فناجين قهوة صغيرة فقط، يا أمّاه؟

كان اللواء متفقاً مع ابنته. مع فناجين القهوة الصغيرة والخوف والمأمول، مع الاستنتاج الأول الذي وصلت هي إليه:

ـ سوف يضعونك في مكان هذا الذي مات الآن.

تسع وعشرون ساعة من الانتظار، مع الليل المؤرق في منتصفه؛ فإذا تحمّل القلب يبقى مبرهناً على أن الطبيب وإخصائي أمراض القلب ليسا أكثر من مجرّد دجّالين.

بالييه المرشح

في اليوم التالي، عند الحادية عشرة صباحاً، قدّم اللواء فالدوميرو موريرا ترشيحه رسمياً إلى الأكاديمية الفلومينية للآداب. لقد سُلمت الرسالة المشتملة على طلب التسجيل إلى المكرِّس كلاوديونور سابينسا الذي غادر، بعد الحصول على موافقة الرئيس ليناريس، في الساعة التاسعة، في سانتاكازا، بالترام إلى مسكن اللواء في غراجاوو، حاملاً النبأ الطيب، لدرجة أنه تهرّب من الجريدة في ذلك الصباح.

بعد ذلك بثماني ساعات، عند السابعة مساءً، وجد نفسه مرشحاً إلى الأكاديمية البرازيلية، ملبياً دعوة اللجنة المجيدة من الأكاديميين ـ عهد برسالة التسجيل إلى الروائي آفرانيو بورتيلا. ما تخيّل اللواء قط أن يغدو له قارئاً، بينما الأمر أكثر من ذلك، التحقق من المعرفة الصحيحة لعمله الذي يظهره المؤلف المشهور لـ«المرآة في المرآة»، في تحليل مسهب بدراسة الشخصيات النموذجية المصوَّرة في الأجزاء الثلاثة من «قصص تاريخ البرازيل» ومن المعضلات المتصادمة في عمق في مجلّد «مقدّمات لغوية».

كقارىء قديم، رافق المعلّم آفرانيو خطوة خطوة، كتاباً كتاباً، «مقاطعك اللامعة الثقافية» حسب ما أكد، كانت تعطي الانطباع بأنه حديث الانتهاء من القراءة، مثل ذلك التأكيد البادي في ذكر مقاطع طويلة من الذاكرة، مكرراً بالحرف، صوراً وحوارات.

ذُهل موريرا المتأثر:

يا لها من ذاكرة خارقة أيها المعلّم!

ـ لقد قرأت وأعدت القراءة، ليس مرة واحدة، عدة مرات. ـ ابتسم آفرانيو

بورتيلا من دون حياء.

تجنّب إيفاندرو نونيس دوس سانتوس عينيْ الإشبين: «الحرب هي الحرب، تساوي كل شيء». تحوّل إلى الإقرار بنعوت قوية بالمفاهيم التقريظية للكومبارس: «مدهش!»، «كامل!»، «رائع!» نعوت متحدّرة من الباحث العجوز والمقدام كانت تنمو في القيمة، وما كان لها ثمن. وأيضاً الأكاديميون الثلاثة الآخرون تنافسوا بحصتهم من الثناء. واللواء المرتبك لم يكن يعثر على الكلمات ليشكر. لقد لاحظ كيف قلل من قيمة العمل نفسه.

في لحظة معيّنة استدعى الزوجة والإبنة لتكونا شاهدتين على الشرف اللامحدود الذي كانت تضيفه إليه تلك اللجنة اللامعة، ممثلة تجمعاً قوياً من الأكاديميين. بوسعهما هكذا سماع الإطراءات على كتب الزوج والأب. الدونا كونسيبسون أحسّت بأنها متأثرة وسيسيليا اهتزّت.

بعد أربعين دقيقة من مغادرة السيارتين الكبيرتين حاملتيْ الخالدين بطريق العودة، أعاد اللواء الذي أدرك سابينسا بالهاتف، المركز الشاغر في الفلومينية له، ملحاً بإرجاع رسالة التسجيل وواعداً بأخبار مثيرة، «تعال بعد العشاء وسأروي لك كل شيء. سيحظى الصديق بمفاجأة كبرى».

ـ تريد القول إنك لست بعد الآن مرشحاً للأكاديمية؟ ـ لم يتمكن سابينسا من الاستيعاب: بعد الجهد للحصول على دعم الرئيس، حينما صار كل شيء محلولاً...

ـ أنا مرشح للأكاديمية، أجل إنما لست مرشحاً للفلومينية...

ـ لست مدركاً الأمر...

ـ ستفهم عندما أوضح لك. قل للينياريس إني أشكره على الدعوة لكن باستطاعته التصرّف بالمركز الشاغر.

ـ دعوة؟ ـ مباغتاً سابينسا. لكنْ، لم تكن ثمة دعوة ما، فهو وحده كان يعلم الجهد المهدور لإقناع الدكتور لينياريس.

لو لم يكن الاحترام الذي يكنّه للواء ـ المرحاض هو المرحاض ـ لكان كلاوديونور

سابينسا قد ترك شتيمة تفلت منه في الهاتف. لم يفعل، فأغلق الخط مكتئباً؛ الترشيح الذي تطلّب جهداً سيفتح له أبواب البيت الودي في غراجاوو، حيث «فراشة الحلم، سيسيليا التي تخفق بجناحيها، مضطربة رغبات». من مرة إلى أخرى يمارس كلاوديونور سابينسا نظم قصائد.

ميزانية أولية للمؤثرات

كان قد مرّ أسبوع، على مناسبة السهر على الميت المكرّس لبرونو، وكانا اثنين آفرانيو بورتيلا وإيفاندرو نونيس دوس سانتوس، وعلى الفور كانوا ثلاثة، مع تطوّع رودريغو إيناسيو فيليو، يذهبون إلى منزل اللواء وظهروا خمسة، المذكورون أعلاه وغيرهم إينسريكي آندرادي، كاتب سيرة حياة روي[1]، من ريو برانكو ونابوكو، ور. فيغيريدو جونيور، كاتب مسرحي جرى التنافس قبلاً على مسرحياته من قبل الفرقة المسرحية، وقد اختفت الملصقات إزاء إعلان الدولة الجديدة. وأُرسيت مواضيع ذات طبيعة اجتماعية وأبطالها، يونانيون وأناس من سيارا[2]، البعض منهم والآخرون نشروا الحرية ودافعو عن الحقوق الإنسانية.

الاستقصاءات المحققة بين الزملاء، في الأيام التي سبقت وأعقبت جلسة الحنين[3]، حملت آفرانيو بورتيلا على أن يحسب بداية ثمانية أصوات مضمونة للواء، وإيفاندرو كان يضمن اثني عشر، لكن بما أن الباحث العجوز كان ذا حماس يسير، فإن حساباته لا تستحق الوثوق بها.

أمّا بالنسبة إلى العقيد، فإن حسابات بورتيلا المَعَدَّة والتي أُعيد إعدادها، استنتجت أنه سينطلق بأحد عشر صوتاً مضموناً تقريباً. وبوسعه إذا تحرّك بسرعة وثبات، أن يضاعف بشكل مؤثر هذا الرقم، مؤمّناً الفوز، لكن بالوسع أيضاً أن يزيد قليلاً وحتى أن يفقد بعض الناخبين المحسوبين كمؤكدين، إذا كانت ثمة مبادرة

---

(١) المقصود: روي باربوزا، كاتب برازيلي مشهور.

(٢) ولاية في الشمال الشرقي من البرازيل.

(٣) جلسة مخصصة لتكريم المتوفى.

بالسرعة، بالثبات وفوق كل ذلك بالمكر العائد لمؤيدي اللواء فالدوميرو موريرا.

جامعاً الأصوات الأولية للواء مع الخمسة عشر للعقيد، حاصلاً على مجموع هو ثلاثة وعشرون التزاماً. هكذا، من تسعة وثلاثين ناخباً، كان متبقياً ستة عشر يجب أن يكسبوهم خلال الحملة الانتخابية. حملة انتخابية ستغدو معروفة تحت اسم معركة الـPETIT TRIANON، حينما تتحوّل الوقائع إلى أسطورة.

ـ فعلٌ صاعـق وماكر حسب السجية! ـ كان هذا أمر اليوم الذي أطلقه المعلّم آفرانيو بعد حساب المؤثرات الأول.

في الزيارة إلى اللواء، فاجأ الروائي تفصيل. فالاستعداد الذي أبداه المرشح في مواجهة العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، كأنه الأمر الذي لا يرغب في سواه. كان لديهم حسابات معيّنة تتطلّب التصحيح. المعلّم بورتيلا، ذو الطبيعة الفضولية، ينوي كشف الأسباب لذلك الاحتدام المائل إلى القتال. في مناسبة العشاء، عندما النبيذ يكسر البروتوكول.

مع نهاية وضع خطط المعركة ولتلبية الأوامر المعطاة من الدونا روزارينيو ـ «أريد رؤية وجه لوائكم هذا ووجه امرأته». ـ دُعي الزوجان فالدوميرو موريرا للعشاء في منزل آل بورتيلا، برفقة إيفاندرو وروديغو إيناسيو فيليو. الدعوة لم تشمل سيسيليا لكنها شملتها تلقائياً. ما كانت لتضيّع تلك الفرصة في معرفة «البيت الكبير الحضاري عند شاطىء فلامينغو» المذكور كثيراً من قبل جاسينتو ده تورميس، جيلبرتو ترومبوفسكي والآخرين الذين ما زالوا قليلي العدد لكنهم باتوا كتّاباً نافذين للأخبار الاجتماعية.

من دون الكلام عن أن الدكتور رودريغو هذا، ذا ملامح نبيل اسباني، والفودين الأشيبين، واليدين المتأنيتين، والتوهج الإنكليزي، يسكن، يربك ويلذ منذ أيام أحلام سيسيليا ويجعلها تتنهّد. آه! أحلام سيسيليا، لو رُويت هنا لحوّلت هذه القصة الخرافية[1] الأكاديمية الصغيرة إلى الكتاب العظيم الأكثر مبيعاً.

---

(١) BEST SELLER

معلومات لا غنى عنها لفهم جيد للتاريخ ومفيدة لمطالب محتمل بدخول الأكاديمية

الآن، المرشحان مسجّلان، تُفرض بعض التوضيحات التي من دونها سيكون صعباً تعاقب الوقائع وفهم النكتة في جميع التفاصيل. غريبة هذه الجملة الاعتراضية القانونية إزاء القواعد الحسنة للسرد فهي تعثر على أعذار في السبب المعروض وبوسعها، مَنْ يدري، أن تغدو ذات منفعة للمتقدّم المحتمل، إلى الاكاديمية، فيقف على القواعد والعادات التي لا غنى عن معرفتها.

وإذْ يموت ويُدفن الخالد، فإن المقعد الذي شغله يُعْلَن مركزاً شاغراً في الجلسة الأولى بعد وفاته ـ الجلسة التي سبق وأشير اليها بجلسة الحنين ـ وبعد أربعة شهور يصار إلى انتخاب خليفته.

خلال الشهرين الأولين من الشهور الأربعة التي تفصل جلسة المأتم عن الجلسة الاحتفالية، تبقى التسجيلات مفتوحة لمن يريد أن يرشح نفسه؛ يكفي أن يكون برازيلياً من الجنس المذكر (بعد ست وثلاثين سنة فقط سيكون مسموحاً ترشيح النساء) ويكون قد نشر على الأقل كتاباً. وإذا انقضت مهلة الشهرين بالضبط، فإن التسجيلات تغلق في الشهرين المتبقيين ويتحقق للمتنافسين استخلاص أصوات الأكاديميين لهم وعلى هؤلاء يتوقف اختيار مَنْ يشرّفونهم باقتراعهم لهم.

ولكي يغدو منتخباً، يحتاج المرشح إلى الحصـول على الأغلبية المطلقة من أصوات الأكاديميين الأحياء (النصف وواحد أكثر) في واحدة من عمليات الاقتراع الأربع المسموح بها في الجلسة. الصوت سرّي؟ الخالدون الحاضرون يودعون الأوراق في صندوقة الاقتراع حيث تُحْرَق بعد العد. الغائبون يشتركون في الاقتراع، مرسلين أصواتهم في مغلّفات مغلقة مصحوبة برسالة مبررة عدم الحضور.

يستطيع الأكاديمي الامتناع عن التصويت ويستطيع إلقاء ورقة بيضاء. في الحالة الأولى، يكون غير معترف بالخصائص الثقافية للمرشح، ولا يرغب مع هذا في معاداته شخصياً. والورقة البيضاء تعني عدم التوافق الجذري. تظهر رفض الأكاديمي لشخص المرشح الذي لا يعتبره أهلاً لأن يتعايش معه في المؤسسة اللامعة. والامتناع لا يلزم الإجماع، إذا حصل المرشح على جميع الأصوات الأخرى. فالورقة البيضاء تمنع ذلك.

عندما ينتهي الانتخاب، يحضر الأكاديميون إلى منزل الرفيق الجديد في حشد، حيث يجدون مائدة مترفة بالمأكولات والمشروبات، معَدّة من قبل عائلة المرشح للاحتفال بالفوز المنتظر. عادة من أكثر العادات الممجّدة، فالخدمة تمتد إلى عدد معتبر دائماً من الأشخاص ـ مثقفين، سياسيين، سلطات، أبناء الولاية ذاتها، أصدقاء ومعجبين ـ فيهرعون لتهنئة الخالد الجديد، يشربون الأنخاب من الشمبانيا، ويجري الويسكي، وتدوم حفلة الاستقبال طيلة الليل المجيد.

اكاديميان أو ثلاثة، قبل أن يقوموا بعناق المنتخب، يتوجهون في واجب حزين إلى منزل (أومنازل) المهزوم (أو المهزومين) من أجل الإيضاحات، التضامن في ساعة مريرة وافتتاح الإمكانيات العملية: «للمرة القادمة...». في رأي رودريغو إيناسيو فيليو، الحكم في الأساليب، والبروتوكول والتهذيب يأمر إنه في هذه المهمات المميتة من العزاء، على أعضاء البعثة احتراماً للأسرة المخزونة، ألّا يقبلوا الحلوى، الأطعمة المالحة، والمشروبات إذا اتفق ووجدوا أن المائدة الاحتفالية قد أُقيمت لفوز لم يوجد.

مراحل المعركة

دامت معركة الـPETIT TRIANON أكثر من شهرين بقليل. النهاية، غير المتوقعة نوعاً ما، حدثت بعد عشرة أيام من انتهاء المهلة لتسجيل المرشحين للمركز الشاغر المفتوح في الأكاديمية البرازيلية بموت الشاعر أنطونيو برونو. اثنان فقط من المتنافسين كانا قد تقدّما؛ العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا واللواء فالدوميروموريرا (بقاعدة التسجيل). لم يجرؤ أي مدني على فعله. فقد شاع الرأي القائل بأن المقعد يخصّ، بالحق والتقليد، العسكريين. فلقد احتل بشكل غير ملائم من قبل الشاعر برونو وهو مدني وبوهيمي، بسبب الإهمال العسكري غير القابل للتفسير.

الإنجازات السابقة، التي حدثت من نهاية المعركة حتى موعد الانتخاب، لم يكن لها شأن بالنضال المقترح والمقاد من قبل المعلّم آفرانيو بورتيلا. ليست حرباً بعد الآن، أجل إنها حرب عصابات، فيها كان الروائي مجرّد قائد بالوكالة بصورة مؤقتة، إذ تسلّم القيادة العليا لقوات المقاومة العجوز إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، المستعد للبرهنة على عدم وجود مقاعد حبيسة في الأكاديمية، محجوزة لهذه أو تلك الهيئة، أياً كانت طبيعتها.

مع انصرام الشهرين والأيام العشرة من المعركة المبدوءة لفتح الـPETIT TRIANON انقسم المشهد العام إلى ثلاث مراحل واضحة. فخلال الأيام العشرين الأولى، استوعبت المبادرة القوي المتجمّعة حول اللواء فالدوميرو. الصدمة التي أحدثها تسجيله ـ مفاجأة سارّة أو مزعجة لأغلبية الخالدين، المقتنعين بأن العقيد سامبايو بيريرا سيغدو مرشحاً وحيداً، بلا مناوئين ـ والفعل الصاعق الذي ينطلق من قيوده باستمرار والخاضع لأمر المعركة من قبل المعلّم آفرانيو، حملا اللواء على احتلال

بعض المواقع الثمينة، حاصلاً على ارتباطات جديدة، بخاصة الفارّين من ميدان العدو. والعدو الضامن للنصر، أهمل الحملة، هو الواعي جداً للمسار السلمي حتى النصر النهائي، إلى درجة أن العقيد قد أجّل البدء في الزيارات البروتوكولية للسادة الأكاديميين إلى حين عودته من رحلة التفتيش إلى جنوبي البلد إلى سانتا كاتارينا[1] حيث وقعت أحداث لا تُحتَمل و إلى ريوغراندي دوسول[2] المضطربة. وانتهز آفرانيو بورتيلا الفرصة للهجوم المندفع.

مع التقدّم البدائي لترشيح موريرا، حدثت ردّات فعل شديدة، عنيفة من القوى الوفيّة للعقيد آغنالدوسامبايوبيريرا. وإذ استعادليزاندرولايتي نفسه من الاضطراب - الترشيح الوحيد الموعود في خطر - دعا إلى اجتماع للحصول على دعم الحلفاء الخارجيين، من الذين هم أكثر نفوذاً، القادرين على تغيير مجرى المناوشة، مقسرين اللواء على الهزيمة المخجلة، مختزلين التصويت له إلى نصف دزينة تافهة من الناخبين، بمثل ذلك الضغط الممارس على المقترعين المترددين.

كيف يردّ على هذا الهجوم من التدخلات الغريبة، من الإرغام والخداع، أسلحة الغاصب ليزاندرو، مميزات المرحلة الثانية؟ لم يتردد المعلّم آفرانيو بورتيلا. حلّ وثاق الأكذوبة والرد «(الرد بسجية!»)، مستخدماً ومسفّهاً الجملة العبثية.

في الفترة الأخيرة، في الأيام العشرين الأخيرة من المعركة المثيرة للضحك، تبيّن توازن للقوى، على الأقل، ظاهر في وسط الاضطراب السائد. الخرائط العسكرية لجيش وآخر - المنشورات بالعلاقة الخاصة بالأكاديميين، أسماء، عناوين وأرقام الهاتف، كتابات رديئة الخط مع علاقات تآمرية - كانت تكرر فتوحات بذاتها؛ على الأقل عشرة أسماء كانت ترد في لوائح الخصمين. أصوات مؤكدة للعقيد، ضامناً ليزاندرو، وللواء، من وجهة نظر بورتيلا، في هذا المستوى من العراك، في أفعال الهجوم والدفاع، فالميدانان كانا يستخدمان المهارات والحيل، الشائعة والتلميح، استراتيجيات كانت تأتي من الخشية إزاء المداهنة.

---

(١) ولاية في الجنوب البرازيلي عاصمتها فلوريانو بوليس.
(٢) ولاية أخرى في الجنوب عاصمتها بورتو أليغري.

عندما كانت المعركة خشنة ومتوترة جداً، حدثت النهاية المباغتة والحاسمة لمعركة الـPETIT TRIANON أكثر من صخب انتصار، كانت ثمة زفرة فرج في ميدان المنتصرين.

أحداث سانتا كاتارينا

الدعم القوي والدائم سهّل ترشيح العقيد وعلى الأقل لمرة واحدة، استفاد منه أيضاً اللواء، فالهدوء الذي يستطيع أن يناور به في الأيام الأولى حصل من أحداث سانتا كاتارينا. دعمٌ عرضي، إنما فعّال، إذ كان على العقيد سامبايو بيريرا أن يهجر الشؤون الأكاديمية لكي يهتم بجبهات أخرى تحت مسؤوليته المباشرة، حيث أنه، كما هو معروف، أحد معاقل الديكتاتورية وأحد الضامنين الأساسيين للحلف (في صلاحية تامة برغم عدم الدقة في المواعيد) بين الرايخ الثالث والدولة الجديدة. ويدون أن يدري، فالنقيب جـواكينّ غرافاتا، وهو شمالي شرقي[1] أُرسل ليخدم في سانتا كاتارينا، اشترك في معركة الـPETIT TRIANON في مرحلتهـا الأولى، ضامناً حرية تحرّك اللواء وراعييْ ترشيحه.

فمنذ بدء الدولة الجديدة كانت التظاهرات السياسية في كل البلد، من أيّ نوع، محظورة، ووُضعت الأحزاب خارج القانون أياً كان ظرفها وعقيدتها. وإذْ أضافت الدولة الجديدة نفسها إلى الأنظمة المطلقة، أعفت بشكل خاص، الحزب الكلاسيكي الوحيد. والنقيب جواكين غرافاتا الضابط المتثقف على حب الوطن، كان حساساً بشكل متطرّف إزاء كل ما يقال حول تكامل الأرض والكرامة الوطنية. خدم في الغابة الأمازونية[2]، جندي مراقبة على أتم الاستعداد للردّ على كل محاولة انتهاك حدودنا من قبل جيران ذوي مقاصد سيئة. إنه وطني برهن على وطنيته في أقصى الشمال، وفي سانتا كاتارينا أظهر نفسه منفّذاً حديدياً للقانون.

---

(١) ابن المنطقة الشمالية الشرقية من البرازيل.

(٢) نسبة إلى ولاية أمازونيا في البرازيل.

في التحقيق المفتوح بشأن الأحداث، حاولوا التشويش على احترامه لنص القانون بطبائع سياسية لكن القضية انتهت إلى الحفظ في قسم التوثيق[١] لانعدام الأدلّة عندما ـ بعد بيرل هاربور[٢] وستالينغراد ـ اخذت الحرب العالمية الكبرى الثانية مسارات جديدة، ملغية تحالفات مشينة وحاملة النقيب جواكين غرافاتا إلى ميادين الصراع في إيطاليا حيث فاز بميداليات وشارات التقدير.

النقيب غرافاتا، القادم رأساً من وسط المهجّنين[٣] القابعين عند ضفاف الأنهر ليقود الفيلق المتمركز في بلومينو[٤]، مدينة فيها جالية ألمانية، ظنّ أنه قد نزل في أراضٍ أجنبية. ليس فقط لبياض الناس الآريين، الشعر الأشقر، العيون الزرق، السيطرة غير المريحة للغة الألمانية على البرتغالية، وإنما فوق كل شيء للتحقق من الازدراء الكامل وعدم إطاعة القوانين الصادرة عن الحكومة، بشكل متكرر ـ رديئة أم صالحة، كانت تعني أنها حكومة البرازيل، البلد المستقل، الواقع في أميركا الجنوبية.

حتى في السنوات القلائل جداً البرازيلية والمسالمة، أثناء الحرب، فإن بلومينو كانت تبدو مستعمرة ألمانية محصّنة. والنقيب ابن ولاية سيرجيبي[٥]، المحبّذ لاختلاط الأعراق، المصرّ على احترام السيادة الوطنية، انزعج مما رآه هناك وتحقق منه. فقد كانت تنفذ تظاهرات سياسية متواصلة، عامة وصاخبة في الأندية، المدارس، المعابد، الشوارع والساحات. مسيرات تجوب المدينة، محتفلة بانتصارات الجيوش النازية، تقود أعلاماً وشعارات، الصليب المعقوف وصور الفوهرر. استعراضات عسكرية، الشبان يرتدون الزي العسكري لـ SS[٦] ولـ SA[٧]، القمصان ذات ألوان معتمة والقمصان السوداء، يسيرون بخطى الأوزة، السواعد مرفوعة تحية للرؤساء، الزعيق

(١) ARQUIVADO: موضوعة في الأرشيف.

(٢) المرفأ المشهور في الهاواي الذي قصف فيه اليابانيون الأسطول الأميركي في المحيط الهادىء ودمروه.

(٣) CABOCLO: المهجّن البرازيلي المولود من أب أبيض وأم هندية (وردت سابقاً).

(٤) مدينة في ولاية سانتا كاتارينا.

(٥) ولاية في الشمال الشرقي من البرازيل.

(٦) القوات الخاصة النازية. (وردت سابقاً).

(٧) قوات الصاعقة النازية (وردت سابقاً).

بهايل هتلر! في محفّات الحدائق والمتنزهات، كانت تُلقى خطب مهيّجة وعدائية ـ في لهجة بافارية كانت ترنّ أيضاً أكثر سفاهة.

هيهات، فالتظاهرات السياسية، في الأمكنة المغلقة أو في الساحة العامة، كانت كلها ممنوعة. وأيضاً نشاط الأحزاب بلا استثناء. إنما الحزب الوطني الاشتراكي الألماني التي كانت أجهزته العليا متمركزة في برلين، كان يتحرّك بشكل منفتح في تلك المدينة، التي هي في رأي النقيب جواكين غرافاتا والفرقة التي تحت قيادته، يجب أن تبقى برازيلية. والضابط المستعد لجعل القانون محترماً، بحث عن المحافظ من أجل عمل مشترك. وكان المحافظ القديم قد أُبدل في بدء الحرب والمحافظ الجديد جمع إلى منصبه مسؤولية رئيس الفرع المحلي للحزب. ابتسم من سذاجة النقيب الخلاسي والمزعج ـ الأنظمة حول الحشود السياسية ما كانت تشير إلى تظاهرات الفرح التي تحتفل فيها الجالية الألمانية بانتصارات الفهرماخت، وبالنسبة إلى الحزب، كان يتهرّب بصفته ألمانياً ونازياً، من نصوص القانون البرازيلي. ابتسم من جديد، معلناً انتهاء الموضوع. لم يحب النقيب الإيضاحات ولا الابتسامة وتصرّف.

صادر أعلاماً، صلباناً معقوفة، شعارات مختلفة، أدب واسع النطاق في اللغة الألمانية، ملصقات مع الأوامر اليومية، صور لا تحصى للفوهرر وكمية كبيرة من الأسلحة. أغلق مركز الحزب واحتفظ بالمفتاح. ردّ المحافظ بمسيرة ففرّقها النقيب، واضعاً في السجن بعض المتظاهرين الأكثر تهيّجاً.

صدى هذه الأحداث في صحافة البلد لم تكن تذكر تقريباً. ملاحظات قصيرة في جريدة أو جريدتين لكنْ الرقابة منعت سريعاً أية إشارة إلى ما حصل وإلى ظروفه؛ الرحلة العاجلة للعقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، نقل النقيب غرافاتا الفوري، الدعوى العسكرية المقامة ضدّه، إعادة الصليب المعقوف على رنين الفرق الموسيقية، السواعد إلى أعلى، الخطب وزمجرات هايل هتلر!

فيما كان العقيد يعيد النظام ويقيم ثانية السلطة في سانتا كاتارينا، مواصلاً التفتيش في ريو غراندي دو سول لأخذ الحيطة من أحداث مشابهة، محصّناً بحضوره التحالف التوتوني[1] ـ البرازيلي، استعجل اللواء الزيارات إلى السادة الأكاديميين. ألقى خطاباً

(١) نسبة إلى الشعب الجرماني.

مدروساً: كاتب وعسكري، ضابط برتبة لواء، مؤرخ ولغوي، للمنافسة على مقعد يحتلّه تقليدياً أشخاص من الجيش، يأتي طالباً الدعم من الخالد الشهير، المؤيِّد في الصوت.

بالنسبة إلى بعض الأكاديميين كان الأمر بمثابة ترشيح مجزٍ؛ فلو لم يتواجد، لما كان لهم مفر من التصويت للنازي المقيت، وبالنسبة إلى آخرين، كان إزعاجاً؛ فلو لم يوجد، لصار العقيد مرشحاً وحيداً ولما كان ثمة خيار، بوسعهم التصويت باطمئنان للقائد ذي النفوذ، من دون خوف من الانتقادات واللوم، الإيماءات الخبيثة.

مع الرغبة في تجنب القول إن النقيب جواكين غرافاتا قد دخل في الصراع الناشىء عن هذا الانتخاب الأكاديمي الغريب، من دون أن يكون له معه أدنى ارتباط، فإنه من المفيد تبيان أن اسم الشاعر أنطونيو برونو ما كان مجهولاً لديه. فقد قرأ وهو يذكر، في نسخة باليد بائسة «غناء حب لمدينة محتلة» وفيه نَفَسٌ ونداءٌ للصراع. عند وصوله إلى بلومينو، وهي مدينة محتلة أيضاً، صمم على تحريرها.

نبيذ البورتو وبسكويت انكليزي

أُحيط القاضي ليزاندرو لايتي علماً بسرّ انتقال العقيد سامبايو بيريرا، الذي ترك ريو ده جانيرو، باتجاه مجهول في مَهمَّة للأمن الوطني، ولم يستطع حتى من تهيئة النفس. وعبثاً حاول معرفة أين يجده. كيف يتصل به هاتفياً. وقبل المغادرة المفاجئة، اتصل العقيد به هاتفياً:

ـ عليّ التغيّب لبضعة أيام، شأن عاجلّ، الزيارة إلى السفير يجب أن تؤجّل إلى حين عودتي.

ـ أمضِ مرتاحاً، سأوضح شخصياً لفرانسيلينو. وحينما يعود العزيز آغنالدو[1]، سننظّم روزنامة للزيارات. مرشح وحيد يتمتع بهذه المميّزات؛ لست بحاجة إلى الركض... ـ لم يبد أنه راضٍ، فأضاف:

ـ سأبقى هنا أنا مراقباً... ـ كلمات مباغتة.

بعد أن سلّم أمانة السرّ رسالة التسجيل العائدة للعقيد على أثر جلسة الحنين، وثق في الخوف العام المخيّم على البلد، إن أحداً لن يجسر على أن يتقدّم مواجهاً الحكومة، متحدّياً أرباب الحكم. في الأيام الأولى، عند خروجه من المحكمة، كان يقوم بقفزة إلى الـPETIT TRIANON متبادلاً العبارات اللطيفة مع الرئيس، متحققاً من عدم وجود أمور جديدة ليقف على بيّنة منها. بعد ذلك، وقد بات مطمئناً، رأى أن مثل هذه المراقبة غير لازمة، وجعل ذهابه إلى الأكاديمية متباعداً، مستبقياً الوقت للمحادثات الهاتفية مع زملاء الخلود، واعداً إياهم بعهد من المكافآت الرسمية للمؤسسة اللامعة بنتيجة انتخاب العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا.

(١) يوجه الكلام أحياناً بصيغة الغائب للدلالة على الاحترام.

وإذ وفّى بما هو متفقٌ عليه، مع نهاية فترة ما بعد الظهر بعد مغادرة العزيز جداً آغنالدو، اتجه القاضي إلى الشقة التي يقيم فيها السفير فرانسيلينو آلميدا، تخدمه خادم عجوز كانت تقوم بالخدمة كلها وقد منحها لقب المدبّرة. كان يريد أن يحمل إليه توضيحات العقيد ويحدد موعداً جديداً لزيارة مجاملة، إذ أن المرشح شخصياً اتصل هاتفياً بالأكاديمي وأبلغه برغبته يلتمس دعماً. فرانسيلينو عميد الأكاديمية، الوحيد من بين المؤسسين الذي لا يزال حياً، كان عادة أول من يغدو مكرماً بزيارة طالبي العضوية، في برهان على الاحترام والتقدير.

في القاعة حيث تركته المدبّرة ينتظر، ضرب ليزاندرو عينيه على سلةّ رائعة حاوية فواكه أجنبية، صفائح البسكويت الانكليزي شوكولاتة سويسرية، نبيذ البورتو ونبيذاً فيه كينا برتغالياً. وإلى جانب، في المائدة، علامة السلعة «راموس وراموس»، الأكثر اعتباراً وغلاءً في المدينة، ورسالة مسحوبة من مغلّف: «إلى السفير اللامع فرانسيلينو آلميدا، ذي الباع في الآداب والدبلوماسية، تحية إعجاب عميق من اللواء فالدوميرو موريرا». كان القاضي يعرف بالاسم اللواء وبالرؤية ذلك الخط، الخربشات التي لا تُقلّد المخطوطة من قبل الميكيافيللي[1] آفرانيو بورتيلا. أحسّ بصدمة. ماذا تعني السلّة الممتلئة جيداً، هدية فاخرة! هو أيضاً بعث بواحدة، أقلّ أهمية، بعلامة تجارية أرخص، إلى فرانسيلينو نفسه، موقّعاً على البطاقة اسم العقيد. الرجل الشيطاني بورتيلا، علاوة على كل شيء فهو منتحل!

فرانسيلينو آلميدا، مداهن، مستعد للخدمة، نديم مسرّ، بلغ مراكز عليا في الوظيفة الدبلوماسية، سفير في بلجيكا، في السويد، في اليابان، أمين عام في إيتاماراتي[2] وكانت الأكاديمية ذات نفع كثير له. وهو شاب في الثامنة والعشرين من العمر، ذو حقيبة أدبية مختزلة ـ كتاب هزيل في القصص القصيرة وكتيّب مقروظ حول عمل ماشادو دو أسيس[3] ـ ورد اسمه بين أسماء المؤسسين الأربعين للمؤسسة اللامعة. الأمر الذي لم يسبب مفاجآت أو إزعاجاً في حينه، هو أن الأكاديمية المستحدثة كانت

---

(١) نسبة إلى ماكيافيللي الكاتب السياسي الايطالي مؤلف كتاب «الأمير» في العصر الوسيط.
(٢) مقر وزارة الخارجية في الريو (ريو ده جانيرو) العاصمة القديمة للبرازيل (ورد ذكرها سابقاً).
(٣) كاتب برازيلي شهير.

فقيرة، مجهولة، ليس لديها مركز ولا تدفع مكافآت. بعد ذلك بثلاثين سنة وسّع فرانسيلينو رصيده في الكتب بمجلّد دوّن فيه انطباعات حول اليابان: «بلد الشمس المشرقة» (مناظر وعادات). عازب طاعن في السن، ترك وراءه شهرة معجب مثابر بالجنس اللطيف في البلدان التي خدم فيها.

السير أنطوني لوك، سفير صاحبة الجلالة البريطانية لدى الميكادو[1]، في كتاب مذكراته الفضائحي الذي نشره بعد اعتزاله الخدمة الفعلية، يذكر مرات متكررة المستر آلميدا، الرفيق الذي لا يضاهى في اكتشاف الحياة الليلية والطقوس الشهوانية للشرق. خلال فترة خمس سنوات بكاملها لمعًا الجسم الدبلوماسي المعتمَد في اليابان، حاصلين على شعبية في الأماكن الملتبسة والمرحة ـ حتى لنقْل المستر آلميدا فإن فتاة الغيشا كينغ جد متحسّرة على اللورد الانكليزي. في كتاب فرانسيلينو آلميدا حول العادات اليابانية لا توجد إشارات لا إلى السير أنطوني لوك ولا إلى الحياة الليلية، برغم أن العمر لم يعد فاقد الإحساس إزاء الجمالات الأنثوية. خلاف ذلك فهو شديد الإحساس.

وإذْ أُعلم بحضور الزميل، قدم لملاقاته في القاعة، حيث استبق المدبّرة وهي تجلب طبقاً عليه كأسين، زجاجة من نبيذ البورتو وإناء صغير فيه بسكويت. أصغى العميد وقدّم الأعذار الممنوحة باسم العقيد.

ـ حين يشاء هو، نعينّ موعداً آخر. ليس بالوسع أن يكون غداً، فقد استبقيت فترة ما بعد الظهر لزيارة اللواء موريرا. سأقول لك أمراً واحداً يا سيد ليزاندرو: الأفضل للأكاديمية هي الانتخابات. المرشحون يبدون لطفاء جداً، جد مجاملين. لو لم تكن الانتخابات، من كان سيهتم برجل عجوز مثلي، سفير متقاعد، يتلقى من إيتاماراتي مرتباً بائساً في الشهر، في نقد ضعيف؟ لا أحد يا عزيزي. لكنْ يكفي أن يتواجد مركز شاغر وأنظر؛ في أقل من عشرة أيام تلقيت سلّتيْ فاكهة وحلوى شهيّة، كلها مستوردة، كلها من أفضل جودة. ـ احتسى نبيذ البورتو فيه بسكويت، ليغدو طرياً.

(١) لقب امبراطور اليابان.

ـ تريد القول إن اللواء فالدوميرو موريرا هو أيضاً مرشح؟

ـ أما كنت تدري؟ انتهى فوراً من تسجيل نفسه. إنه مرشح قوي، يا صديقي.

لم يقل شيئاً حول سكرتيرة اللواء الفائقة الحسن التي قدمت بعد السلّة مباشرة، لتتفق معه على يوم وساعة الزيارة البروتوكولية للمطالب الجديد بمركز برونو الشاعر. لطيفة ومنطلقة، لبثت طويلاً في محادثة مرحة وفي مجرى الحديث جعلته يستشفّ عدم اهتمامها بالشبان، المستهترين وغير اللطفاء كقليلين جداً، يضيف الدبلوماسي فرانسيلينو آلميدا.

انصرف ليزاندرو مودّعاً، على أن يتصل هاتفياً حالما يعود العقيد، وغادر إلى الأكاديمية بأسرع ما يمكن. فالترشيح الوحيد، كان ذات مرة.

الغاوية

ـ ما الذي لم أفعله من أجله؟

«وردة النحاس، وردة العسل، البنت الوردة» تذكّر المعلّم بورتيلا، مبتسماً برقّة وهو إلى مـائدة المقهى[1] الرصينة. الفتاة تضرّجت احمراراً، شعر طويل وأملس لفتاة هندية، شفتان كبيرتان لفتاة زنجية، عينان خضراوان لفتاة بيضاء.

ـ استمر يرسل إليّ وروداً، حتى بعد أن انتهى كل شيء. لن يوجد آخر يضاهيه.

أوضح آفرانيو بورتيلا لها الموقف، الحاجة إلى الاحتفاظ بذكرى برونو، أهمية صوت العميد مؤسس الأكاديمية، الوحيد الحي الباقي من الأربعين الأوائل. خلال الحياة بأكملها سعى فرانسيلينو آلميدا لخطب ود الأقوياء والنساء فقط. قوي، كلّي القدرة هو العقيد سامبايو بيريرا.

ـ إغواء رجل طاعن في السن؟ ـ اعترت الدهشة روزا ـ وفي هذه السن ما تزال لديه عينان ليرى المرأة؟

ـ عينان، بالتأكيد. أنا شاهد.

عند باب الأكاديمية، قبل بضعة شهور خلت، كان هو وبرونو قد رافقا النظرة الطامعة للمرتعد فرانسيلينو وهي تضطرم اشتعالاً إزاء فخذٍ أسمر لفتاة. الشاعر دافع عن العميد عند التعليق الساخر من بورتيلا، معترفاً بأنه، برونو، عندما لا يتبقى له شيء إزاء الشيخوخة، «عجوز أعجف»، ينوي البقاء جالساً تحت الشمس على مقعد

---

(١) في الأصل LEITERIA: الحانة التي يباع فيها الحليب لكنها تستخدم كمقهى ومطعم.

خشبي مستطيل في حديقة، متطلّعاً إلى النساء، راضياً بالحياة. في صمت، المعلّم آفرانيو وروزا، كلاهما غارقان في ذكرياتهما، هو يتذكر الصديق، وهي تتذكر العشيق.

انتهت روزا من احتساء كأس الحليب. إذ كانت بنتاً تقريباً، في الثامنة عشرة من العمر، أغوت رجلاً ناضجاً، يكبرها بثلاثين سنة، مَنْ هامت به، وهي تراه من نافذة المشغل فيها كانت تخيط ثياباً لسيدات ثريات، من المجتمع.

الخياطة الصغيرة

قرأت روزا «شاي الساعة الخامسة» القصة القصيرة المؤثرة والمسلّية التي كتبها آفرانيو بورتيلا، المستوحاة من قصة حبها مع برونو. القصة بدت لها جميلة، رومانطيقية وزائفة كليّاً، مؤسسة على وقائع حقيقية ـ طلب الزواج على سبيل المثال ـ كانت تروي مع هذا الاعتراض الذي حصل. في رواية الروائي، الصدام حدث بين الدون جوان المتحلل والفتاة العذراء الساذجة والشديدة الهذيان، ألعوبة في يديْ الغاوي. النقيض، الاعتراض، قلب الحقيقة رأساً على عقب. لكنْ مَنْ سيصدّق الحقيقة العارية والفجّة حتى ولو أظهرتها روزا؟ على الرغم من شهرته كعارف في النفس الأنثوية، حتى ولا آفرانيو بورتيلا يستطيع القبول بأن خيّاطة صغيرة بسيطة مراهقة تتصرّف كما تصرّفت هي. روزا نفسها لا تعلم لماذا فعله ولا تسعى إلى التوضيح. لم يكن جنوناً، وأقل منه بكثير أن يكون ترفاً. مجرد حب، شمس منتصف النهار واكتمال القمر.

دهشة، إضاءة، عاصفة مباغتة وضارية، تغمر الأرض بالمياه، ممزقة السماء بضياء الأشعة. جرأة بلا حدود، قلّة حياء امرأة عاطلة، مَنْ كان يتصوّرها قادرة على كل هذا، مجازفة ونقيّة؟

في الشارع القائم في الضاحية، كانت روزا تجتازه رصينة ولا مبالية بين المغازلات، العروض، توسّل ووقاحة الفتيان. زيكون، لاعب وسط الملعب في نادي مادوريرا أتليتيكو، مع دعوته إلى التمرين في بوتافوغو[1]. تخلّى عنها لضياعه الوقت، مزروعاً أمام الزقاق. متشامخة، فظّة، ارتأى الجيران عند رؤيتهم لها وقورة، ذاهلة، التفكير

(١) ناد من أندية كرة القدم في الريو.

البعيد، منصبٌ على السيد الجالس إلى مائدة في كولومبو. أكثر جمالاً من أيّ نجم من نجوم السينما، لا يضاهى. كانت لا تزال تجهل أنه شاعر ولا شهير. أولاً أحبّت فقط الرجل، بعد ذلك كان عليها أن تكتشف الشعر. كان الله طيّباً أكثر من اللازم.

لكثرة ما تطلّعت إليه، انتهى به الأمر إلى أن يرفع البصر ويكتشفني ههنا لصق النافذة، إبرة تذهب وإبرة تجيء. حدث الأمر؛ رفع الشاعر عينيه حتى أفاريز الطبقة الثانية ولاحظ الفتاة التي كانت تحملق فيه مبتسمة. لبث برهة، ملاحظاً، محاولاً التكهن بها في البعد. كأس الكاسيس[1] في يده، ووضعه برفق على المائدة. بعدها عاد إلى الإصغاء لحديث الصديق. المرأة في الشرفة، يجب أن تكون فتيّة وجميلة.

لم يكنْ يأتي كل يوم ولم يكن له يوم معينّ للقدوم. عند حافة النافذة روزا في الانتظار، غير متماسكة، وغير متنبّهة إلى العمل، تغرز الإبرة في إصبعها. ذات مساء، الرجل المحزون، إذ نهض للانصراف، وجّه نظرة أخيرة إلى المشغل، مَنْ يدري قد تكون عرضاً. أومأت إليه روزا بإشارة الوداع، وهو ردّ عليها مبتسماً. في اليوم التالي رمت إليه روزا قبلة بطرف أصابعها في جرأة متنامية. رصينة، ما كانت تضع مساحيق زينة تقريباً؛ ما كادت تكمل الثامنة عشرة من العمر، ولم يسبق لها واتخذت حبيباً أبداً بشكل جدّي. النار كانت تستهلكها وفي الخارج كان هو يوقدها، مديراً إياها رأساً على عقب. من بعيد، مثل شعاع يسقط على الغابة ويضرم فيها النار.

حدث أنه بقي أسبوعاً بكامله من دون أن يظهر. وحالما حصلت على بعض النقود علاوات من جرّاء خياطة فساتين تأخذها إلى بيتها لتنهي خياطتها، ابتاعت الكتاب. مدام بيك مصممة الأزياء، عند اكتشافها غرض نظرات المساعدة، أظهرت هويّة رونو: «شاعر مشهور يا صغيرتي، جميع النساء يضعفن للرقاد معه»[2]. شاهدت روزا المجلّد في واجهة المكتبة القريبة، طبعة معادة لـ«الراقص والزهرة»، علمت الثمن، فعملت مضاعفاً. في المدرسة العمومية لم تميّز، نفسها عن الزميلات. الآن

---

١) نوع من المشروبات الروحية.

٢) في الفرنسية: UN POÊT CELEBRE, MA PETITE, TOUTES LES FEMMES VEULENT SE COUCHER AVEC LUI.

من دون أن تبذل جهداً، تحفظ في الذاكرة قصائد بكاملها، تكرر مقاطع وتترجم جملة مدام بيك: «جميع النساء يُرِدْن النوم معه». أوّاه! إن روزا لا تفكر بأمر آخر وعند قراءة القصائد اكتشفت أن الفارس الجميل هو شاعر جوّال[1] غير معقول، بوهيمي لا يمكن إصلاحه، عاشق إلهي. ولكي تستحقه قطعت الروابط التي تشدّها إلى حدود الرتابة[2] والبنت المتزنة قاطنة الضاحية تبدّلت إلى مغوية للرجال عدوانية وسهلة المنال.

حينما عاد برونو وظهر ثانية ورفع نظره إلى الشرفة البعيدة، أتت روزا بإشارة إليه وتساقطت على الدرج وهي تمسك بالكتاب. وضعها الركض وهي تتنفس بصعوبة، وجهاً لوجه مع الشاعر الذي كان أكثر من مباغت، فاغر الفم؛ وما كان يتصوّر أنها جد جميلة. كان يشعر أنه مجازى في كل مرة يتحدث فيها مع قارىء من الطبقات الشعبية. فخور لواقع أن شعره كان معروفاً ومحبوباً ليس فقط من قبل نخبة المجتمع إنما أيضاً من قبل الناس البسطاء، مثل تلك الخيّاطة الفاتنة، إنها ملائكية.

كان وحيداً إلى المائدة، فلم يصل الصديق بعد. دعاها إلى الجلوس ولتناول شيء ما، شاي أو مشروب روحي؛ كان يحتسي الكاسيس الدائم، عادة حصل عليها في خمّارات سان جرمان دي بريه[3]. رفضت الفتاة، عيناها مثبتتان عليه. «أُدعى روزا مايريليس دا إنكارناسيون لكنْ ضع فقط روزا» تناول برونو قلم الحبر، وبدأ في الكتابة بذلك الخط المرسوم تقريباً.

- إلى روزا... - علّق الكتابة، وسألها ممازحاً - مع ماذا؟

- مع قبلة.

ابتسم برونو مبتهجاً. كانت روزا ترافق اليد المعتنى بها جيداً على الصفحة البيضاء، تخط تلك السطور المتقنة. كل شيء فيه كان متقناً. الصوت حار، ملاطف:

---

(١) TROVADOR: الشاعر المسمى بالتروبادور في العصور الوسطى.
(٢) ROTINA: الروتين، المقتبسة عن الفرنسية.
(٣) من أحياء باريس.

ـ لماذا لا تريدين الجلوس؟

وجدت نفسها تقول:

ـ هنا لا. . .

سألها بين مندهش ومازح:

ـ أين إذن؟

ـ أين تشاء.

ـ ومتى بالوسع أن يكون؟ ـ لا يزال هازئاً إنما مأخوذاً بالمكيدة.

ـ اليوم بالضبط، إذا شئت. أخرج عند السادسة من المشغل.

صبيّة، الفستان مصنوع في البيت، بسيط لكنه مليح، تصميم، هي نفسها استنبطته. كان بوسعها أن تكون ابنته وكانت فقيرة كما يبدو. وجدها الشاعر حسب رغبته، إنما غير مرتقٍ، في حق انتزاع القرار بالموقف، أن يدير ظهره لمشاعر البنت التي أثارتها قصائده. لو كانت أكبر سناً أو لو كانت واحدة من أولئك الغواني من المجتمع الراقي، لما تردد. لكنها ليست أكثر من طفلة بلا عقل، تحت رحمته، مساعدة لمصممة أزياء مجبرة على كسب خبزها كل يوم. روعة الدماء الممتزجة، أسفٌ؛ الظروف تجعلها غير ملموسة. كانت تزيد عن نساء جميلات مثلها في الصالونات، ثريات وكسولات. اعتذر:

ـ لا أستطيع اليوم، يا حبي، لديّ التزام لعشاء.

ـ غداً، إذن. في الساعة التي تريدها. أخرج عند السادسة لكنْ بوسعي التغيّب. غداً، أليس كذلك؟ ـ العينان الخضراوان، لامعتان، الفم شبه فاغر، فروة الرأس الناعمة والسوداء، كلها تلحّ على المكان والساعة.

لم يعد برونو مغتبطاً. فلم يرَ أبداً في العالم الخارجي حيث عاش وأحب، قلّة فزع كهذه، امرأة جد مستعدة. استسلمت. لِمَ لا، إذا كانت هي تقدّم نفسها؟ دائماً كان لديه وقت للتراجع.

ـ غداً، حسنٌ. حين تخرجين عند السادسة سأكون منتظراً أمام باب المكتبة.

أعاد لها المجلّد الموقع عليه بخطه، أرادت روزا أكثر من ذلك:

- هل أستطيع أن أكافئك بقبلة؟ - الشفتان الضخمتان أحرقتا الوجه العربي للشاعر، كانت توجد قرابة بين الإثنين. إنهما من أفريقيا والشرق.

وإذْ استعادت المشهد في الذاكرة، تساءلت روزا: أيهـا الصورة الحقيقية؟ الغاوية الجسورة التي ولدت من العشق أم الفتاة القديمة، المنزوية والرصينة؟ يا للغرابة؛ أعاد آفرانيو بورتيلا في القصة خلق روزا التي كانت قبلاً، طيّبة القلب، خجولة، بنتاً بسيطة من محطة مادوريرا[1].

مَنْ لفظ أولاً كلمة حب، هي. كان عليها أن تغويه إذْ أنّ الغازي ذا المغامرات التي لا تحصى، الدون جوان الفاسق، وهو يتخيّلها مراهقة واقعة في الحب وساذجة، في بلبلة الشعر بقي حائراً، لا يعلم كيف يتصرّف، كيلا يخيب ظنها ولا يسبب لها الألم من دون أن يسبب لها على كل حال سوءاً لا يمكن أن تبرأ منه، موصداً لها المصير، جالباً الشقاء لها. أخذها في نزهات، لتناول وجبات في مطاعم رصينة. جعلها ترى الأماكن الأكثر جمالاً في المدينة، وقدّم لها كتباً، كتبه وكتب شعراء آخرين، يأتي لها بورود، أسرّ لها بقصائد تحت أشجار الحديقة النباتية[2] في يوم أحـد بورجوازي صغير كالذي يبدو في بطاقة بريدية، قبّلها من أصابعها الموسومة بالإبرة، وجهها الأسمر وعينيها الخضراوين وأسرّ للمعلّم آفرانيو بورتيلا بأنه يعيش قصة حب مضحكة مؤثرة، مختلفة عن جميع القصص الغرامية السابقة، حب أفلاطوني، مجبول بالشعر والخفر.

لكنْ روزا كانت حريقاً مستعرّاً وإذْ أحبت بشغف كل كلمة، كل حركة، كل ملاطفة خفيفة من برونـو، لمسة الأصـابع في الشعـر، احتكاك الشفتين في الرقبة، ما كانت لتقنع بالقليل. قدّمت له الفم وأعاد الشاعر اكتشاف القبلة. لأنه قبلاً استوعبته المبادرة، بينما الآن كانت هي مَنْ تقبّله. قررت أن تغدو امرأته، وليس فقط حبيبته.

وإذْ لم تعد قادرة على تحمّل التحديدات التي وضعها هو، اللطيف والحذر، طلبت

---

(١) المقصود أحد الأحياء في الضاحية.

(٢) BOTANICO.

منه روزا أن يأخذها لتتعرّف على بيت سانتا أليشاندرينا، المصوّر في تحقيق حديث في «مجلة أيام السبت»؛ الجدران مغطاة باللوحات، الحاجيات الغريبة المجلوبة في الأسفار، الملاك المعلّق بدعامات السقف، النباتات المتسلّقة التي ترتقي إلى واجهة المبنى، حديقة الروزيرا[1] والشاعر جالساً، مسترخياً، على درجة ريفية، عند المدخل.

- ألست وجلة؟

- لديّ رغبة فقط.

اجتازا الحديقة متشابكيْ اليدين، وابتدع أبياتاً من الشعر، «الحلزونات والعظاءات تحيي بعضها»، أراد أن يجلسها في القاعة ليشرح لها لوحة سوريالية، لكنها جاءت مصممة وسارت إلى الحجرة، كان ثمة وقت للرسم.

بالتأكيد - فكّر هو حينما أمسكت روزا بيده وتدحرجا معاً فوق السرير - أوّاه! بالتأكيد لقد سبق لها ونامت مع آخرين وأنا لست أكثر من عجوز أخرق إذ أتخيّلها عذراء وتمتلك، بين فضائل كثيرة، الإقدام والتكامل الجسدي والخلقي.

الشاعر السعيد المنبهر، هبط إلى الحديقة التي تحيط بالمنزل وتخفيه عن الأنظار وقطف جميع الورود، وسع الذراعين. تمثال من النحاس، متمددة عارية في بياض حديث اللطخة في الملاءة، بدت روزا تصلّي، شاكرة الله. انتزع أنطونيو برونو وريقات الورود، واحدة فواحدة، فوق الجسد الذي وُهب له.

ربما أن برونو لم يتمكن أبداً من فهمها، قبولها كليّاً. فالحب الذي منحته له روزا وهو قد كافأها به، مكوّن من الشراهة والنعومة - لا توجد مخلوقة أكثر نعومة، قال المعلّم آفرانيو عند معرفته لها - مجرّداً عن أيّ منفعة تافهة تركه مع إحساس مزعج بالذنب. كون روزا لم تطلب منه شيئاً ما كان يغيّر الواقع، ظلّت مستمرّة، خيّاطة صغيرة فقيرة، مراهقة ساذجة، كان مآلها، قبل أن تلتقيه، الزواج، الأبناء، حياة هادئة وشريفة. وإذجعل منها عشيقة له، مغيّراً مصيرها، بات هو مذنباً بشأن

---

(١) ROSEIRA: نوع من الزهور الوردية ذات الأشواك.

المستقبل غير المؤكد الذي كان ينتظرها، وهي غير فاضلة.

في اليوم الذي نظر فيه باهتمام إلى امرأة أخرى ورغب فيها، بعد انقضاء عدة شهور، شعر أنه ملزم بعرض الزواج على روزا، لكيلا يتركها بلا عون، ضائعة.

رفضت روزا. وبرونو الصافي مثل الماء، بلا إساءة ولا مهرب، لم يستطع أن يخفي عليها شيئاً. علمت روزا، من دون أن توجّه أيّ سؤال، عوامل العرض وقالت لا. كنت امرأتك وهذا يكفيني.

ـ لم أولد لتكون لي زوجة، سأكون زوجاً سيئاً.

قبل أن تزداد تلك اللطخة الضئيلة من الفتور في لامبالاة ويبدأ زمن الكذب، رحلت هي. خرجت من حياة برونو كما دخلت، بلا إيضاح.

حتى بعد الوداع، واصل هو إرسال ورود في مواعيد أول لقاء للامتلاك غير المنتظر على السرير المغطى بأوراق الزهور، الملطخ بالدم، لليلة الأخيرة العذبة جداً واللاهبة، جد متكاملة وغير المتوقعة أيضاً. لروزا كتب القصائد الأكثر غرابة وتفرّداً، الأشد تجرّداً، سلسلة «حبشي الأمازون» و«كل شيء فيكِ كان معجزة مبهمة».

المرشح الوحيد سابقاً

لا مرشح وحيداً ولا انتخاب بالإجماع. ليزاندرو لايتي القلق، يحرش رأسه، يدسّ أصابعه في فروة الأسد؟ كيف يتصرّف العقيد عندما يلتقي هجمتين من أكثر المنظورات المفرحة المفتوحة حديثاً من قبل القاعدة الانتخابية الحماسية؟ في الرغبة ليغدو الرئيسي، إذا لم يكن المفيد الوحيد لانتصار الآمر الناهي ذي النفوذ، لم يقبل القاضي اقتسام المسؤوليات، منهمكاً بكل شيء في ما يخصّ ما يشير إلى حملة سامبايو بيريرا. في المقابل، يجب أن يناضل وحيداً مع حالات عدم الإنجاز في التقديرات المتفائلة البدائية. ملعون بورتيلا! فيما ليزاندرو يحيّد العميد راوول ليميرا، مقنعاً إيّاه بانتظار المركز الشاغر القادم - ســام، بيرسيو لم يعد يخرج من البيت، الأطباء تخلّوا عن إجراء العملية له، من الرئة الداء يمتد في انتقال غير منضبط - الجهنمي بورتيلا اكتشف لواءً مع عدد من الكتب واستعداد شخص رياضي. يركض من خالد إلى خالد؛ مستعد لتصفية الزيارات في أقصر مهلة.

«محامٍ بلا شهادة مرعب»، القاضي يستحق الشهرة الحائز عليها. يسعى إلى العثور على حجّة قادرة على البرهنة بأن وجود مرشح آخر يحوز جانباً إيجابياً إلى أقصى الحدود. يعرض نظريته أمام العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، عند العودة من السفر إلى الجنوب حيث سحق أعداء شريرين للوطن، أو ليكن، للديكتاتورية وللفوهرر.

المعركة بلغت جميع القطاعات. وأيضاً في المؤسسة الشهيرة انخرطوا فيها، الأعداء الخونة. رفعوا ترشيح اللواء فالدوميرو موريرا ليعطوا اختياراً للأكاديميين، متصوّرين أنهم بهذا يختزلون التصويت المحكم للصديق العزيز. بلاهة لا دواء لها إذ لن يتمكنوا حتى ولا أن يخضّوا بشكل خفيف الوضع الصلب للعقيد، ويهددوا انتخابه. خلاف

ذلك، فالطلق الناري يخرج إليهم من فوهة البندقية؛ علاوة على أنهم لن يبلغوا الهدف المنظور، بتسجيل المطالب الجديد بالعضوية، فالعنيدون من طراز آفرانيو بورتيلا، ايفاندرو نونيس دوس سانتوس و ر. فيغيريدو جونيور سيغدون ممنوعين من الاقتراع بأوراق بيضاء. وإذ يدعم بالاقتراع إسم أحد المتنافسين، فإن الخالد يظهر تفضيلاً بسيطاً، بينما الصوت بورقة بيضاء يظهر استنكاراً، رفضاً مهيناً. إن خطر الصوت بالورقة البيضاء المشين اختفى.

ـ قادم من عدو، لا يشين، يعظّم ـ غير موافق العقيد مَنْ لم تسرّه الأنباء والتوضيح لم يقنعه.

ـ من الواضح أنه إذا وجد الصديق العزيز وسيلة للضغط على اللواء، زميل السلاح، حاملاً إيّاه على الانسحاب من التصويت، فهو، ليزاندرو، سيعمل على الفوز بقبول بعض هؤلاء الأشخاص المواليـن لفرنسا والحصول على أكثر الذين لا يحتملون، الذين بدل أن يقترعوا بأوراق بيضاء يمتنعون.

ـ الضغط على موريرا؟ لا يفيد. إنه لا يحتملني، يرى أني ساهمت في إخراجه إلى الاحتياطي ولا يتخلّى عن كونه مصيباً. لكنْ، هل ثمة مَنْ يقترع لهذا الشقي؟ شخص أخرق، معلّق عسكري فارغ لـ«كوريو دو ريو»[1] لانعدام القدرة. مدّعي التحرر تافه. ليس فيه إلا السماجة.

ـ بلا شك. لن يتجاوز السبعة أو الثمانية أصوات. لن يصل إلى العشرة.
ـ إلى هذا القدر؟ ـ قطّب العقيد وجهه.
ـ بوسعنا كسب اثنين أو ثلاثة، إني أعمل في هذا الشأن.

ـ من اللازم. ثمانية أصوات لموريرا خط ماجينو[2]؟ غير مقبول. اعتمد على كفاءتك، أيها القاضي. متأثراً بخيبة الأمل، فلم يدعه بليزاندرو، يشعر القاضي بالتحفظ الظاهر في إبدال الإسم باللقب لكنه لم يضطرب، يجب إستعادة الثقة والحميمية:

---

(١) اسم جريدة.
(٢) الخط الدفاعي الفرنسي الحصين الذي اخترقه الألمان في الحرب العالمية الثانية (ورد سابقاً).

ـ دع الأمر لي، فلن أوفّر جهداً، لديّ تجربة وأعرف ما أقوله لكل واحد. الآن إذا كنت موافقاً سنعمل على إنشاء روزنامة الزيارات الأولى. الحقيقة هي أن سفرك جعلنا نخسر وقتاً ثميناً، نحتاج إلى استعادته أيها العزيز آغنالدو.

ـ لديك الحق، هيّا بنا إلى هذا أيها الصديق ليزاندرو.

يتنهّد القاضي، يفتح الحقيبة ويسحب منها لائحتين مطبوعتين بالعلاقة مع الأكاديميين، ويسلّم واحدة إلى المرشح الوحيد السابق:

ـ إلى الهجوم يا عقيدي!

أمر الخدمة

وإذ صار منفعلاً بنبأ ترشيح اللواء فالدوميرو موريرا، تمّت إثارة العقيد سامبايو بيريرا في مجرى الزيارات الخمس الأولى إلى الأكاديميين. لمن يبدأ الحملة بلا معارض ومع وعد بانتخاب بالإجماع، المنظر العام للمعركة انكشف غامراً معتماً. لا يخشى هزيمة، فالنصر يبدو مضموناً، لكنه لن يكون تلك النزهة السارّة تحت تصفيق سحري من الخالدين. خط ماجينو المهمَل، كل شيء يشير إلى أنه سيتجاوز العشرة أصوات. إذا لم يبلغ الإثني عشر أو الخمسة عشر من اللازم مناقشة جدّية مع ليزاندرو، رسم مخطط جديد للعمل، إطلاق هجوم يسحق في الواقع غطرسات العدو. حسب ما علم، موريرا المدّعي والمعتزّ بنفسه يتجشأ انتصاراً.

اثنان ضمنا له الصوت، اثنان أبيا لنفس السبب وبالكلمات ذاتها تقريباً: أبديا التحسّر لكنّ العقيد وصل متأخراً، فقد سبق لهما وأعطيا التزاماً مع العسكري السامي الآخر، وهو أيضاً كاتب، اللواء في الجيش فالدوميرو موريرا. في المرتين شعر سامبايو بيريرا كما لو أنه تلقى صفعة. فانسحب من هاتين الزيارتين مثاراً بشكل مرئي، وكان عليه أن يضبط نفسه كيلا يظهر برودة أو انزعاجاً عند التوديع. لم يخفِ عن ليزاندرو لايتي عدم رضاه: إسما ذينك الأكاديميين لم يردا في الصلة مع الثمانية الذين، حسب قول القاضي، سيكونون المقترعين الوحيدين المحتملين للسفيه خط ماجينو.

في أمر الخدمة الأقل ودّياً مما كان يرغب القاضي، أمره العقيد بأن يطلق إلى المعركة الحلفاء الخارجيين. يحرّك الوزير، رئيس أركان الحرب، سلطات مختلفة، يعطي وعوداً، وإذا لزم الأمر، يلمح بانتقامات.

من بين الأكاديميين الخمسة الذين زارهم إثنان رهنا تضامناً لا محدوداً، وأحدهما

أضاف معلومات موضوعية وقيّمة.

ترك، حسب نصيحة ليزاندرو، الفتيان المندفعين من الأمن (مختارين بالأصبع من بين الفاعلين في الشرطة الخاصة) في السيارات المتوقفة في الشارع، ألقى العقيد المرتدي بزته ليدل على الطابع العسكري لترشيحه، بعد إلقاء التحيات والملاطفات الروتينية، خطابه على مثال خطاب اللواء موريرا. كانت توجد نقاط مشتركة في الدفاعين (وفوارق محسوسة في الشكل، أحدهما بتأثير من آفرانيو بورتيلا، والآخر من قبل ليزاندرو لايتي). لقد مالا إلى حالة متطابقة أدبية وحربية، كلاهما كاتبان وضابطان رفيعا المستوى يتنافسان على مقعد مشغول تقليدياً من قبل قادرين من الجيش. أضاف سامبايو بيريرا أنه سجّل نفسه بتكليف من رفاق البزة العسكرية، الذين يتزعمهم وزير الحربية، ولأنه هو ضابط فعلي، في مركز القيادة، فقد أطاع وكشف في النهاية تفصيلاً ثانوياً لكنه ذو قيمة لمن ينتظر أن يقوم بتقريظ شاعر غنائي في خطاب الاستقبال. كاتب سياسي ذو عمل ضخم ـ إثنا عشر مجلّداً ـ اعتمده في الصراع على المركز المفتوح بموت أنطونيو برونو، ومع أنه ناثر بشكل أساسي، كان أيضاً شاعراً. مؤلف كتاب أشعار رومانطيقية، كان يعتبر نفسه «النظير الملائم للسلف الطيّب الذكر».

أحد الأكاديميين أكد له الصوت وأظهر نفسه معجباً بحرارة وماكر حاذق. شكر إرسال الإثني عشر مجلّداً (مرسلة بعد التسجيل إلى جميع الخالدين مع إهداءات ذات هوى)، معظمها كان يمتلكها، هو القارىء المخلص والمتعاطف مع أفكار المفكر البارز. لمح على الأثر أنه لا تبدو له ملائمة جداً الطريقة التي كانت تقاد بها حملة العقيد. فالصديق ليزاندرو، المستعد للخدمة والنشيط في العمل، الذي يستحق كل الثناء، اقترف على كل حال بعض الأخطاء ـ خطيرة! ـ غير محتاط لملامح مهمة. قلق من راوول لاميرا حتى وإن لم يرشح نفسه، بدل أن يغطّي المنطقة العسكرية، الوحيدة الخطرة. من يأمر وينهي حالياً في بلدنا، أجبني؟ العسكريون، حمداً لله، الذين ينقذوننا من الفوضوية، فارضين على الأمة النظام والحشمة. لهذا، بوسع مرشح عسكري فقط أن يفعل أثراً للعقيد النبيل. يكسب، كلا، فاللواء لن يكسب لكنه سينتزع أصواتاً، أصواتاً عدة، ستكون له، يا سامبايو بيريرا، إذا لم يشأ ليزاندرو

احتكار الحملة، غير متيح دوراً للمعجبين الآخرين بصديقنا المشهور، وهم أيضاً مهتمون في العمل لنصر مدوٍ، ففيهم هو مدعوم في المعركة اليومية ضد قلب النظام.

ـ ترشيحي هو لجميع أصدقائي، ليس فقط للقاضي، مَنْ أنا ممتن له على كثير فعله إنما بتلك الحذاقة، أعترف لك، بأني بدأت أشك. فبما ينصحني الصديق العزيز؟

ـ بعض البطاقات من الوزير موجّهة إلى الأكاديميين. إلى المعروفين لديه، مخابرة هاتفية. فمَنْ يستطيع مقاومة طلب لوزير الحربية؟

الدبلوماسي

صوتان معه، صوتان ضده وواحد مقترح لكنْ ليس مؤكداً: السفير فرانسيلينو آلميدا، الأكاديمي الأول الذي يجب أن يزوره، في إذعان للممارسة.

استقبل الدبلوماسي العجوز العقيد بمجاملة قصوى، بسكويت ونبيذ أندلسي. شكر على سلّة الفاكهة (حسناً فعل ليزاندرو في إعلام المرشح بالمبادرة المتخذة عندما دفع الشرطيون المتوترون من حرسه الأمنيين الخالد الهش)، نسج له الثناء الأكبر لكنه لم يضمن له الصوت. ولم يرفض بدوره، إنها لحقيقة بيّنة، لم يتكلم في التزام سابق. بقي في محادثة رخوة، النصف هناك والنصف هنا، مجبراً سامبايو بيريرا على إجهاد نفسه ووضع السؤال:

ـ انتظر أن أستحق شرف صوتك.

ـ تستحق أكثر من ذلك بكثير كن مرتاحاً بأنك أيها السيد ههنا، ستكون منتخباً. ولست بحاجة إلى صوتي.

كان يعلّق اللفافة التركية في مبسم طويل من العاج، مثل تلك الاعتناءات كانت تزعج العقيد.

لغة مشككة، مميزة بإيتاماراتي؛ مَنْ يستطيع فهمها؟ العقيد المعتاد على تسمية الثيران، أحسّ بأنه ضائع أمام ذلك الرجل القميء المتجعّد الملامح والمتقلب الذي يلف نفسه في كلام فصيح مرتبك. ومع أنه سبق وزاره موريرا، لم يشر فرانسيلينو ولا مرة واحدة إلى اللواء، حتى ولو ذكر الإسم له. ماذا كان يعني هذا الصمت؟ الشيطان يعلم. حوار صعب، محادث كاذب، يهرب من الموضوع ليثني على النبيذ الاسباني

والبسكويت، ويعرض المبسم. إن الحوارات مع الانقلابيين في الاستنطاقات أكثر سهولة وتقديراً، عندما يستطيع العقيد ببراهين ملائمة مواجهة الحيل. قاده فرانسيلينو اللطيف جداً إلى الباب:

ـ بوسعك المضي في كتابة مسوّدة خطاب التنصيب. هل لديك كتب برونو؟ سيّد شاعر، مجنون بالنساء! ـ فجّر لسانه.

بطريقة ما بدا مستعداً لتأييد اسمه في الاقتراع، لكنْ لماذا لم يقل «صوتي هو لك»؟ ليزاندرو حاول تهدئة العقيد المتألم وتحمّل المسؤولية في ولاء السفير. إنه دائماً يعبّر هكذا، بشكلٍ ملتبس، تاركاً تفكيره يُرى مسبقاً فقط، وهي عادة اكتسبها في الوظيفة الدبلوماسية. لكنْ لا يوجد شك: إن فرانسيلينو في أية لحظة لا يرفض دعم مرشح موحى به من قبل الحكومة. أية أسباب لديه ليصوت للواء موريرا، الذي لا يقدّم له شيئاً أكثر من السلّة المتنوعة بالمشروبات الروحية والأطعمة الدسمة، مرسَلة، بالأحرى من قبل آفرانيو بورتيلا؟ إنها رائعة من دون شك، لكنها غير كافية لتغيير صوت الدبلوماسي الداهية.

مع هذا، بطريق الشكوك، ولنصيحته، أوصى العقيد على طلبية عاجلة، إلى شقة السفير بدزينة من زجاجات الشمبانيا (إنفاق على حساب المخصص للمعركة ـ ضد الشيوعية).

يوجد شمبانيا من سان باولو جيدة جداً. العلامة التجارية[1] هي...

متذكراً نبيذاً مشوّقاً من ريو غراندي دو سول من العنب الصافي، خمرة الجنة! ليزاندرو استخدم حق النقض:

ـ من سان باولو أم من ريو غراندي دو سول، الأفضل ألا ترسل. لا تنس أن فرانسيلينو قضى ثلاثين سنة خادماً في الخارج.

ـ ومن ثمّ؟

ـ المستحسن إرسال شمبانيا فرنسية.

---

(١) **MARCA**.

رفع العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا كتفيه في حركة تنم عن قلّة اهتمام، فالمخصص لمقارعة الشيوعية كان آنئذٍ عملياً محدوداً.

ـ اختر أنت نفسك العلامة. إنها هذه الأماكن التي تقود إلى هبوط وإذلال الجنس.

اجتماع لهيئة الأركان قبل الغداء

الإنذار بالخطر أُعطي من قبل إينريكي آندرادي، وهو سياسي ليبرالي بالميل والوراثة - الأب كـان حاكم الولاية، عضو مجلس الشيوخ ووزير - في عطلات أُجبر عليها نتيجة لحل البرلمان، متمتعاً بمفهوم أدبي رفيع، مؤلف سيرة حياة بارون ريو برانكو، ملحوظ بين الأكاديميين الذين لن يقترعوا، في أي ظرف، للعقيد سامبايو بيريرا. إذ أَلِفت بعثة دعت اللواء موريرا لترشيح نفسه، متصرّفاً في اللقاء بالرصانة المطبوعة فيه، ملحّاً في النداء، مقترّاً في الثناء. ولأنه كان يحوز دائرة واسعة من العلاقات، بخاصة بين الخصوم، فقد كانت لديه شهرة كونه أحد الرجال الأكثر استعلاماً جيداً في البلد، قادراً على التمييز بين الوقائع الصحيحة والشائعات السائدة، هناك مَنْ يؤكد أنه في هذه الحقبة، آندرادي، قد تآمر ضد الدولة الجديدة، في المكيدة مع محافظين، ليبراليين ويساريين. صديق مكرّس لأفرانيو بورتيلا وينتمي إلى نفس الولاية التي هو منها (الذي ساعده كثيراً عند انتخابه للأكاديمية، منافساً مرشحين آخرين أقوياء) اتصل به هاتفياً مقترحاً انعقاد هيئة أركان المقاومة لتحليل العقبة الكأداء بشكل جماعي. الدونا روزارينيو، المهتمة بالاشتراك في المكيدة، حددت موعداً لغداء خاص بيوم أحدٍ في المنزل الكبير في فلامينغو[1] - طعام باهيّاني[2] احتفاءً بمؤلف «حياة روي باربوزا»، مقتصراً أيضاً على الرجال. لو قدمت النساء، فإن الدونا روزارينيو ستقيم لهن صالوناً، مبعداً عن المستجدات الانتخابية.

حتى إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، الذي هو عادة متفائل، بدا قلقاً. فليزاندرو

(١) ضاحية من ضواحي ريو ده جانيرو.

(٢) نسبة إلى ولاية باهيا.

لايتي استبق العقيد في الزيارات إلى الأكاديميين، وهو الحامل لرسائل من وزير الحربية وسلطات عسكرية ومدنية أخرى، توصي بترشيح العقيد سامبايو بيريرا، إضافة إليه، شخصان مزعجان آخران كرّسا نفسيهما للمهمة الوسخة نفسها ـ الباحث العجوز تخلّى عن اللغة الأكاديمية المتواترة عند الاشارة إلى خصومه. بعض النتائج حصلت؛ صوت ماركونديس الموعود لموريرا بالتماس من إيفاندرو، غيّر صاحبه. فقد تلقى ماركونديس طلباً لا يمكن رفضه ـ طلباً؟ أمراً؟ تهديداً! ـ من وزير الزراعة، مَنْ كان مجلسه منعقداً مع ازدياد مفيد في مركز شاغر وفولكلوري في لجنة دعم قطيع الماعز. فالوزير وهو شبه مرتبك، أبلغه أنه، إذا ثابر الصديق الطيّب والمساعد الكفوء على الاستعداد للاقتراع للواء، العدو الصلب للنظام، فمثل هذا التدبير سيكون معتبراً عملاً من أعمال العداء للحكومة. وفي هذه الحال، لن يجد الوزير شروطاً للاحتفاظ به في وظيفة المستشار الخاص للجنة التي خاض منافسات كثيرة من أجل فعاليتها (بالغياب بالتأكيد). وإذ وُضع في مواجهة الجدار، استسلم ماركونديس، غير قادر على إضاعة ذلك المربى المعد من نتاج الماعز. كانت له النزاهة للمجيء إلى إيفاندرو لتوضيح عوامل التراجع.

ـ الحكومة قررت اعتبار انتخاب سامبايو بيريرا مسألة مغلقة ـ أوضح إينريكي آندرادي: ـ فالدولة الجديدة لا تستطيع قبول أية معارضة، تريد مراقبة كل شيء. الأكاديمية لن تنجو، بشكل دقيق عائد إلى الشهرة التي تحوزها إزاء الانعكاس الذي يحيط باختيار كل مرشح جديد. هل تعلمون كم طلباً تلقى بايفا لمصلحة بيريرا في أقل من اسبوع؟ خمسة...

العقيد ومساعدوه كانوا قد عبّأوا نصف العالم. حتى في العشية، في قصر ايبوسكوبال، سمع آندرادي من فم الكاردينال تقريراً عن الزيارة التي قام بها ليزاندرو إليه، في محاولة حمله على التأثير على أكاديميين، هم الأشد التصاقاً بالكنيسة. الأسقف رفض التعاون؛ ليس لأنه يحمّل العقيد آغنالدو المسؤولية مباشرة عن أعمال التعذيب للمعتقلين السياسيين، على اجتياح البيوت في الساعات الميتة من الليل، الإغارات المنجزة على المكتبات الرسمية والخاصة، إحراق الكتب في الساحة العامة، السلسلة العديدة من أعمال التعسّف. حتى في العشية أيضاً تلقى إعلاماً من أسقف رسيفي

وأوليندا[1]، سارداً وقائع شديدة الحزن، حصلت في بيرنامبوكو. وما دام الأمر هكذا، يفضل أن يبقى بعيداً عن الصراع الأكاديمي، من دون أن يورّط فيه السلطة الدينية. وحسب آندرادي، حتى وزير الخارجية قد تدخل في المعركة. فالمستشار[2] حسب ما كان عاماً ومعروفاً، كان لا يؤيد عنف أجهزة الأمن ويكره العقيد سامبايو بيريرا الذي كان يستبقي قيد المراقبة خطوط هاتف ديوان ومنزل الوزير، وقد استعفى من منصبه لأنه لم يتوافق مع سياسة الاقتراب من المحور النازي. وانتهى آندرادي بالقول:

ـ حسناً إن اللواء موريرا ليس الرجل الذي يرتعش من المهمة. في المقابل، أي نوع من الأديب الرديء تدبّرته لنا يا سيد رودريغو؟

ـ أشر إليّ بمن هو أفضل منه إذا استطعت. أدبه ليس عبقرياً، أوافق، لكنه شخص ثابت، مقدام، حائز على مزايا كثيرة.

ـ الميزة الفضلى للوائنا التعس هي ابنته... ـ قدّر ر. فيغيريدو جونيور: ـ بالإذن من السيدة روزارينيو، أظن أنها تستطيع أن تقدّم مساعدة جيدة، إذا أرادت التعاون. هي لذيذة ولديها وجه امرأة معطاء.

ـ لا تكن غير ملائم يا فيغيريدو ـ قاطعته سيدة المنزل ـ دع الشابة في سلام. أديب رديء أم لا، فاللواء مرشحنا ولم أدعوكم لتأتوا إلى هنا ولتتكلموا بالسوء عنه. الذي أريد معرفته هو ما الذي ستفعلونه لإلحاق الهزيمة بهذا...

لم تكن تعثر على الكلمة الدقيقة لتحديد العقيد سامبايو بيريرا، كان عليها أن تستعيرها من مفردات الإشبين إيفاندرو.

ـ الذي سنفعله؟ أشياء بائسة! ـ أعلن المعلّم بورتيلا.

أمام اللوحة المهددة، حينما بدت في تلك المرحلة الثانية معركة الـPETIT TRIANON لمصلحة الخصم، أبلغ آفرانيو بالحاجة إلى إطلاق اليد بجميع الأسلحة، من الاتهام الصادق إلى الخداع الجنسي ـ اقتراح فيغيريدو جونيور كان

---

(1) مدينتان في أقصى شمالي شرقي البرازيل في ولاية بيرنامبوكو.
(2) لقب وزير الخارجية.

صالحاً، وهو، بورتيلا قد سبق له. . . سبق له أن فكر في هذا، بوسعهم استخدام متعاونات أكثر قدرة، كمجرِّبات ومتفرغات، من ابنة اللواء، وهي حالياً مستغرقة في هيام شديد.

أبدت الدونا روزارينيو عجباً:

ـ كيف تعرف يا آفرانيو، عن الحياة الحميمة للفتاة؟

ـ شعبتي السرّية. . . من اللازم أن أكون على علم بكل ما يُشار إلى المرشح وإلى عائلته. لا تستطيعين تخيّل الأمور التي أعرفها. . .

حانت ساعة التخلّي عن الوساوس، إذ أن العار، الانحطاط الخلقي، التقتير والإهانة ستكون في انتخاب نازي، مشترك في جريمة كونه آمراً بحرائق الكتب، في استيراد أخصائيي الغستابو لتوجيه الشرطة الوطنية في تعذيب المعتقلين السياسيين، للأكاديمية البرازيلية للآداب. كان عليهم إلحاق الهزيمة به، مهما كان الأمر، للبرهنة على أنه لا تزال موجودة، في هذا البلد، فضيلة تجعل الأكاديمية تحتفظ باستقلالها وكرامتها. ليس الأمر مزاحاً، فالحرية وحياة البشر هما قيد المقامرة.

إيفاندرو الذي سيقوم برحلة عُيّن موعدها إلى رسيفي حيث كان سيلقي محاضرة في كلية الحقوق، شاء معرفة أن الأحداث كانت تلك الحاصلة في بيرنامبوكو التي أشار إليها الكاردينال.

ـ سمعت كلاماً عن سجون، في حظر عرض مسرحي ـ أعلم إينـريكي آندرادي : ـ لكنْ تنقصني تفاصيل. لا أعلم إذا كان لسامبايو بيريرا دخل فيها. بوسع إيفاندرو الاستقصاء في المكان وكشف الأمر لنا.

أُنجز اجتماع هيئة الأركان، مع الآراء والحلول، قبل الغداء. بعد الفاتابان[1]، الكارورو[2]، الإيفو[3]، الأطعمة المقليّة والموكيكاس[4]، كان ذلك مستحيلاً. قيادة المقاومة كانت تهضم الطعام الدسم.

---

(١)و(٢) و(٣) و(٤) VATAPA', CARURU, EFO, MOQUECA : أطعمة باهيانية محلية.

أحداث بيرنامبوكو

إذا استثنينا الإلقاء المنجز في راديو أوليندا من قبل الكاتب المسرحي آريستيو آرابويا والعدد المستوعَب من «لوزيرو ده كاروارو» فإن أحداث بيرنامبوكو لم تتوصّل إلى أن يكون لها صدى في الصحافة الناطقة والمكتوبة في البلد. برغم الأهمية الثقافية لموقّعي البيان، أو لهذا بالذات، منعت الرقابة، لا انتشاره فقط، إنما أيضاً أية إشارة إلى الوقائع التي حددتها الصحيفة الاسبوعية لمدينة كاروارو المتواضعة في الحجم والتداول: بحيث أن الموظف المناوب في DEIP (قسم الصحافة والدعاية الإيالي) نسي إرسال التبليغ لها، وهكذا فإن الـ«لوزيرو» لا تزال حتى اليوم تعتز بكونها الجريدة الوحيدة التي نشرت احتجاج المثقفين وجعلته في الصفحة الأولى إذ كان موجوداً بين الموقعين مدير الصحيفة، الفولكلوري جوان كونديه، الطبعة صودرت، والموظف المناوب أُنذر ـ جُرّحت الـ«لوزيرو»، أُلغي تسجيلها، جُرّم المتقاعس! سيكون ضحية المادة ١٧٧ من الدستور الجديد وهي لا ترحم، والتي بموجبها بالوسع أن يغدو ببساطة أي موظف، بلا استثناء، متقاعداً أو معزولاً عن الخدمة العامة.

كل شيء بدأ عندما هدم الملازم آليريو باستوس الذي يُقال عنه «كلب الطابور» وبعض جنود الشرطة العسكرية، الكوخ الذي كانت تُعرض فيه تمثيلية دمى خارج مدينة رسيفي، في منطقة فقيرة، حيث يختلط عمالٌ وعمال زراعيون. المسرحية الشعبية الصغيرة والهزلية تروي مصائب عائلة من ذوي الوجوه الممتقعة، مطاردة من قبل شراهة وفظاظة صاحب معمل للسكر ثري وفاسد الأخلاق، مالك فراسخ[1] وفراسخ من الأرض، مدعوم في مقاصده الشريرة من الميليشيا والشيطان. أجبر جنود

---

(١) LEGUA : ثلاثة أميال في المساحة.

بريوزا جوانزينيو إمبابوسادو، رئيس العائلة، على العمل ليلاً داخل حقل قصب السكر، فيما الشيطان يحاول أن يأخذ شيكا الجميلة، الزوجة الشريفة، بين ذراعيْ الاقطاعي الصّب. شهيّة الجياع، مُعد من الحديد، كان ذوو الكروش الصغيرة يتعشّون قطع الوحل. وكان جوانزينيو وشيكا والأولاد يعتمدون فقط على حماية العذراء ماريا مع شطارة قاطع قصب السكر.

على الرغم من التفوّق الهائل في الثروة والسلطان لصاحب معمل قصب السكر، فإن مؤلف المسرحية الجاهل أعدّ الحبكة بطريقة ساذجة وكان يعلم أن النصر النهائي من نصيب إمبابوسادو. جوانزينيو المكّار الذي لا يضاهى، أوقع بالجنود وحصل من العذراء التي ترعاه وتحميه، على معجزة عظيمة؛ فصاحب معمل السكر المعتد بنفسه أُصيب بسحر، سرٌ لا براء منه، صار عاجزاً. والجنود الفحول باتوا يتكلمون برقة، يقلّبون أعينهم، مخنّثين تحديداً، والشيطان المتقلّب المتمادي في غيّه حُمل مع الحلفاء القدامى إلى أعماق الجحيم. كان الحاضرون المعوزون يضحكون ويصفقون مكتشفين، في التمثيلية الهزيلة وفي الدمى الريفية، الأمل والفن. دزينات من تمثيليات الدمى المتحركة كانت تُقَدّم في مسارح منحطة مُعَدّة من خشب الصناديق والكرتون، في رسيفي، في جاراتها من المدن، في معامل السكر والمشاغل، موزّعة بالمجان واقعاً، معجزات وتعاليم.

لم يُعرف مَنْ قام بالوشاية غير أن الملازم آليريو باستوس، كلب الطابور المشهور، والذي يبعث الخوف لكونه سريع الغضب وحاد الطباع ـ في المنطقة، كانت نسوة يمارسن حياة البغاء لحسابه ـ ظهر مصحوباً بأربعة جنود وحطّموا بالهراوة المسرح الصغير، وصاحبه ومساعده، وهما أبٌ وابنه، وفاض أيضاً ما يكفي من الضربات للجمهور. محرّكو الدمى قد أُخذوا إلى الثكنة وهناك عوقبوا بالضرب لكي يتعلّموا أن يحترموا البزة ـ ضرب مبرح. والمساعد لم يكن قد أكمل الخامسة عشرة.

وإذ أُطلق سراحهم بعد بضعة أيام في السجن، مضى القائمون بتمثيليات الدمى المتحركة يشكون لآريستيو آرابويا، مؤلف مسرحيات ناجحة في البلد وفي الخارج، وهي مستوحاة من التمثيليات الشعبية في الشمال الشرقي؛ كان يحيا مع الممثلين

المسرحيين الساخرين، فناني الخزفيات، الشعراء الجوّالين[1]، رووا له القصة وعرضوا له علامات الضرب الحديث. لم يكن لدى الكاتب شكوك، فرفع عقيرته في العالم، في برنامج إذاعي يستمع إليه الكثيرون، ملهباً بالسياط عمل الشرطة العسكرية وكلب الطابور.

أنتج التشهير الساخط لآرابويا نتائج فوريّة؛ أُنذرت إذاعة أوليندا من قبل DIEP، عانى البرنامج عقوبة التوقيف والشرطة العسكرية أطلقت في كل ولاية بيرنامبوكو، خصوصاً في رسيفي، في أوليندا والجوار، عملاً مرعباً ضد الدمى المتحركة والعاملين في الدمى المتحركة، فتناثرت الأكواخ، وصودرت الدمى المتحركة، ومحركو الدمى لاذوا بالفرار.

آريستيو آرابويا، من مواليد السرتون وقح وعنيد، قرر مواجهة العاصفة، تحالف مع مدير مسرح الهواة في بيرنامبوكو، فالديمار ده أوليفيرا، وهو شخص محترم في جميع الأوساط، وصمم على تحقيق عرض للتضامن مع فناني الدمى المتحركة المطاردين، جالباً إلى مسرح «تياترو إيزابيل» الراقي، الدمى البدائية، مع قصصها الباعثة على الضحك والبكاء، لتغدو مشاهدة مع مسرحية من عمل آرابويا «دمى الله المتحركة» كُتبت بقصد المناسبة. والعائدات المحصّلة هي لمنفعة المسارح البائسة المحطمة من قبل بريوزا.

إزاء نوعية رجليْ المسرح، احتار المراقبون المحلّيون: يسمحون بالعرض أم يمنعونه؟ وإذْ كانوا مترددين، قرروا تسليم القضية لقرار الرقابة الفيدرالية التي بدورها حملت الموضوع إلى علم الدوائر العليا في الأمن الوطني الذي فيه كان أعضاء من الطبقات المسلّحة متورطين. انتهت القضية في يديْ العقيد سامبايو بيريرا الذي وضع في حسابه فوراً الطبيعة التأكيدية للدمى المتحركة، الموضوعة في خدمة الشيوعية الدولية، والمهيئة للحالة الانقلابية من العرض المخطط له. أمر بأن تمنع الرقابة، وأن تسحب الـDIEP أمر الصمت الموجّه للصحافة وللإذاعة.

قضية بيروقراطية متأخرة، في هذا الوقت عاد منظمو المهمة إلى العمل؛ بيعت البطاقات، لم تبقَ بطاقة دخول وحيدة، الموعد محدد، وكل شيء جاهز. وإذا كانت

(1) TROVADOR.

الريو لم تجب فذلك لأنها لم تر في العرض أيّ شيء يدعو إلى الإدانة. فانتهى الأمر برئيس الرقابة الإيالية إلى أن يوافق على منح الإذن.

كان مسرح سانتا ايزابيل ممتلئاً والستارة على وشك الارتفـاع، عندما أحاط الجنود بالمبنى، والحراب بقبضات أيديهم. أُخلي المسرح من الجمهور، العاملون في الدمى المتحركة طُردوا بالقوة. آرابويا ومدير مسرح الهواة اللذان سيقا إلى سكرتارية الأمن استطاعا، بعد نقاش كثير، أن يعرفا أن رئيس الشرطة ينفذ أمر الريو، الصادر عن العقيد سامبايو بيريرا. عنه شخصيا. الأمر كان يشمل أيضاً المسؤولين عن قانون الأمن الوطني في حال أبدوا مقاومة. يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم سعداء لنجاتهم من الدعوى. فلن ينجوا من صفحة المعلومات[1]، الصورة مع الرقم في الصدر، بصمات الأصابع.

حظي هؤلاء المثقفون البيرنامبوكيون[2] بالعفو. ولكون آرابويا لم يتصرّف كملاحَق، حرر بالتعاون مع المشتبه بهم الآخرين بياناً إلى الأمة، موقّعاً من كتّاب، موسيقيين، فنانين تشكيليين، فناني المسرح، أساتذة الكليات في الجامعة، أناس من كافة الآفاق السياسية والدينية، بدءاً بعالم الاجتماع الشهير، المجد الوطني، حتى مؤلف الكتاب الذي حظي بالتقريظ حول إيسا ده كيروز، الشيوعي الملحوظ. البيان يروي اعمال العنف الممارسة ضد العاملين في مسرح الدمى المتحركة والمسرحيين الذين أيّدوهم، وقد ذكر فقط إسمين: اسم الملازم آليريو باستوس، كلب الطابور في بريوزا، المعروف بالقوّاد، واسم العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، السلطة القسرية.

على الرغم من أنه نُشر فقط في «لوزيرو ده كاروارو»، فقد انتشر البيان بشكل سرّي. لقد أُنجزت اعتقالات لبعض الموقّعين؛ كان لدى الإيسي[3] حقيبة صغيرة مهيأة بالمنامة[4] وفرشاة الأسنان، فكم من المرات قدموا ليأخذوه. مساكن دوهمت،

---

(١) FICAA: وثيقة السوابق.

(٢) نسبة إلى ولاية بيرنامبوكو.

(٣) ECIANO: نسبة إلى الكاتب البرتغالي إيسا ده كيروز EÇA DE QUEIROZ.

(٤) PIJAMA.

كتب صودرت، تحقيق مفتوح. اخترقوا أسوار المنزل الذي تقطنه عائلة نبيلة حيث كان يعيش معلّم الدراسات البرازيلية، مَنْ امتدت شهرته إلى الولايات المتحدة وإلى أوروبا وفيها دوّن شتائم من اللهجة السفلى، موجّهة إلى ذلك الذي كان كثيرون يعتبرونه التعبير الأرفع للثقافة البرازيلية؛ مَنْ يضاهيه هو فقط الفيزيائي النووي بيرسيو مينيزيس، مجد وطني حقيقي آخر.

بعد إلقاء محاضرة في كلية الحقوق، دُعي إيفاندرو نونيس دوس سانتوس إلى الغداء مع عالم الاجتماع، ووقف على انجازات رسيفي، وسخط على الشتائم التي كيلت في التجمعات المغلقة وكسب نسخة مطبوعة على الستانسيل للبيان حيث عثر على إشارة إلى اسم العقيد سامبايو بيريرا، المرشح للأكاديمية. في الريو، اتُّخذ اللازم لطبع نسخ جديدة وُزّعت بين الأكاديميين، في يوم الخميس، يوم الشاي والجلسة.

بائعة المواد الغذائية

قامت ماريا جوان بآخر الرتوش على الماكياج قبل أن تبدأ في ارتداء ملابسها للدخول إلى المشهد:

ـ كنت أنا الكلب...

ـ كنتِ؟

على شفتيْ المعلّم بورتيلا وُلدت ابتسامة ذات خبث رقيق.

ـ ذات ليلة، سببت له قلقاً شديداً، شديداً، وجعلته يشعر بالغيرة، مذكّرة إيّاه ببعض الأمور، تاركة إيّاه يدرك أموراً أخرى، ذاكرة أسماء، بحيث أن برونو على حين بغتة صفعني بيده على وجهي.

ـ بالنسبة إلى برونو، يكفي هذا، يجب أن تكوني قد ذهبتِ بعيداً جداً.

ـ بعيداً أكثر من اللازم. لقد وجّه إليّ صفعة حينما قلت إن لديه ميلاً لقرن[1] وديع. عندها انطلقت في الإهانة، قوّاد، ذو قرون، ديوث بارز القرنين. وهو المسكين، النادم على اللطمة، ضبط نفسه كيلا يفقد صوابه. لكنْ عندما صرخت بالفرنسية:

COCU, ROI DES COUCUS!

أمسك بي برونو، ويا له من ضرب مبرح! ارتمى عليّ باللكمات والصفعات، فتدحرجت معه. لا أحسن القول أي ساعة تحوّلت فيها اللطمات إلى مداعبات. كانت ليلة مجيدة. في الصباح التقينا على حلف إيمان بالحب الأزلي. وفي اليوم التالي

(١) CORNO : قرن، المقصود: ديوث.

كنت زرقاء كلّياً في اليدين والفم من شاعري.

رفعت الرداء شبه المفتوح تترك للرؤية الثديين الصلبين والجميلين. ما استخدمت قط منهدة[1]. وشرعت ترتدي ملابس هيدا غابلر، فمسرحية إبسن، في ترجمة ر. فيغيريدو جونيور، بدأ عرضها الأول منذ أسبوعين.

ـ من أجله أيها المعلّم آفرانيو سأكون قادرة على بيع نفسي للشيطان أو لباريتو نوجينتو، وما هو أسوأ بكثير.

العجوز ستينيو باريتو، معروف في الأوساط المسرحية بـ«نوجينتو»[2] وهو تاجر شديد الثراء، كان هاوياً جمع الممثلات، بوزن الذهب. يملأ جوربه بكميّات منهن، وطنيات وبرتغاليات. رفضت ماريا جوان جميع العروض ـ بروح المعارضة أو أنها تنتظر أن يرفع سقف العرض إلى مستويات لا يمكن تصوّرها، مَنْ يدري؟ في المناسبة كان نوجينتو قد أومأ لها بشقة من خمس حجرات في كوباكابانا[3] لقاء نهاية الاسبوع في بيتروبوليس[4].

بسط المعلّم آفرانيو أمامها لائحة الأكاديمية:

ـ الذين يشار إليهم بـX هم أصحابنا، المضمونون. بـN هم للعدو، الذين لا ينثنون. والذين ليس لديهم أية اشارة هم الذين لا يزالون غير مقررين. بين هؤلاء الأخيرين، مع وعود كبيرة وحميميات صغيرة، كم منهم تضمنين صوته للواء موريرا؟

نصف هيدا غابلر ونصف عارية ـ كانت تساوي الشقة ذات الخمس حجرات وكان الثمن رخيصاً، قدّر الروائي، بنظرة العليم ـ ماريا جوان تدرس الأسماء:

ـ مضمون، اثنان. انتظر هنا... إثنان لا، ثلاثة. حسرة أن رودريغو قد صار من جماعتنا. إذْ كنت أحب السقوط معه مرة ثانية. دامت العلاقة معه وقتاً قصيراً جداً.

---

(١) SUTIAO: حاملة النهدين.

(٢) NOJENTO: المثير للقرف.

(٣) أحد أحياء الريو الراقية المطلة على شاطىء الأطلسي.

(٤) أحد ضواحي الريو.

ـ صاحبنا، راسخ جداً. بحيث أنه يشغل طيلة الوقت ابنة اللواء موريرا المجنونة، محظّراً عليها العمل من أجل أبيها. هؤلاء النبلاء هم هكذا، يا حوانزينيا، بعض الأنانيين. مَنْ هم الثلاثة؟

ضربات على باب القمرة، لتدخل السيدة ماريا جوان في المشهد خلال خمس دقائق. وإذ انتهت من ارتداء الملابس، تشير إلى الأسماء بإصبع واحد مأساوي من أصابع هيدا غابلر، في طريقها إلى ضباب اسكندينافيا:

ـ هؤلاء... هذا المعلّم بـ N، إنه في الجانب الآخر، لكن إذا طلبت أنا... ألا تريد صوته؟

ـ من الواضح أنه نعم، لكن حتى مع معرفتي بأنكِ لا تقاومين، لا أعتقد بأنكِ تستطيعين.

ـ هل تريد المراهنة؟ ـ تعض على إصبعها: ـ العجوز العزيز هو خروف صغير، يأكل من يدي، ولا يرفض لي شيئاً.

ـ أنتِ هو الكلب.

ـ ستكون تمثيلية هزلية تميت من الضحك.

ضحكة مرحة من فتاة، مَنْ كان يعطيها أربعين سنة؟ الحب هو أفضل المقويّات، يفكر المعلّم آفرانيو، فيما هيدا غابلر، تخرج من القمرة جليلة في اتجاه المسرح. لم تكن تحتفظ بخطوط الجسد فقط، لكنها فوق كل شيء، تثير فرح الحياة.

الممثلة الكبيرة

أُقيم انتخاب ملكة ألمي ـ كاريمي في تياترو سان جوزيه. علاوة على الشاعر أنطونيو برونو، اشتمل على هيئة التحكيم، رئيس الجمعية الكرنفالية «ملازمي [1] الشيطان»، المتعهّد سيغريتو وجوتا إيفيجيه والمعلّق المتخصص في احتفالات المومو[2]، في تجمعات السائرين، فرق الكرنفال، والراقصين، والشخصية الأكثر مرتبة في المسرح البرازيلي في تلك الحقبة، إيطاليا فاوستا، في ذروة المجد.

وأيضاً كان أنطونيو برونو، على حافة الخامسة والثلاثين، في الذروة. فنجاح الكتاب الأول كرر نفسه في مرحلة كبرى مع إصدار ثلاثة مجلّدات أخرى: «قصائد[3] أوغني» و«أنشودة[4] القديس انطونيو»، كلاهما في الشعر و«الحقيقة عارية تقريباً»، مجموعة تعليقات نُشرت قبلاً في الصحافة. حظي بتقريظ مع حماس من قبل غالبية النقاد: «شاعر شاب كبير، ناظم قصائد لا يُبارى»، «شاعر غنائي جدد الغناء والشعر الغنائي»، «العصافير والشجر والنساء والحب كانت مستنبطة مجدداً من قبل انطونيو برونو في شعر حر وحقيقي»، «تعليقات هي قصائد الحياة اليومية» ومن ثَمَّ فصاعداً. ولم تغب أيضاً التهجمات الفظة على القصائد والتعليقات: «معسـولة ومكررة»، «غير متنبّه للطرق الجديدة في الشعر»، «عاطفية من أجل ربات البيوت». وقد ارتأى المتحذلقون والحاسدون لإنجاز الغير، المهانون حتى أعماق النفس: إن كتب برونو،

---

(١) TENENTE: رتبة عسكرية أقل من النقيب.

(٢) MOMO: التمثيل الإيمائي.

(٣) جمع SONETO: وزن من أوزان العروض.

(٤) BARCAROLA: أنشودة الحّارة.

علاوة على التقريظ الفقير جداً، فوق هذا أيضاً، لها جمهور معيّن، طبعات متكررة. قصائد قد تُليت في المسارح من قبل نجوم[1] فاتنات شهيرات، في حفلات مسائية[2] لعمل الخير؛ من قبل طلاب في سهرات أدبية ومن قبل معجبات في حفلات صغيرة عائلية.

ولكي يزيد مخصصاته الهزيلة كموظف بسيط في نظارة[3] وزارة العدل، كان برونو يمارس أنشطة مختلفة، كان يلقي محاضرات في أندية وصالونات، يكتب تعليقات في جرائد ومجلات، اسكتشات، للمسرح توضع لها موسيقى، كلمات أغنيات. وإذ كان مؤلفاً مجهولاً يبلغ من العمر أكثر بقليل من العشرين سنة، طلب منه هيكل تافاريس بعض المقاطع الشعرية للحن انتهى من استنباطه. وهكذا وُلدت «كوروبيون»[4]، الأغنية الشعبية الخالدة لعزيزنا مؤلف الأغاني. وقد أعلن ليوبولدو فرويس أنه عما قريب سيقدّم مسرحية لبرونو، كوميديا عن الحياة في الريو، كانت لا تزال قيد الكتابة. فلاح الشاعر وفلاح الرجل، «الصورة الجانبية الرومانطيقية لبدوي» أُعيد انتاجها في الصور الفوتوغرافية، رسوم، لوحات زيتية، رسوم كاريكاتورية. عذارى ومتزوجات كنَّ يتنهدن، وفتيات صغيرات وثلاثينيات، عند تأمله في صفحات «فون ـ فون»، الذقن مدعوماً باليد، النظرة الغارقة في التفكير، الشعر على طريقة ماسكاني. لقد انصرمت سنة ١٩٢١، وأمست الحرب العالمية الكبرى الأولى إلى الوراء والبلد قد بدأ يعدّ نفسه للاحتفالات المئوية للاستقلال.

آه! يا له من لقبٍ شديد الطموح، ملكة ألمي ـ كاريمي! علاوة على التاج المصنوع من الصفيح المذهّب، **الرداء**[5] المخملي والخاتم ذي الحجر شبه الكريم المقدَّم من متجر المجوهرات أوفيدور، حصلت فوق كل هذا، على صدى واسع في الصحافة؛ مجلات، تحقيقات، صور جانبية وحسد مجنون من الزميلات. من هنا فإن المنافسة

---

(١) VEDETE : نجمة المسرح أو السينما أو الاحتفال.

(٢) SOARÊ: سواريه في الكلام الدارج.

(٣) السكرتارية في وزارات البرازيل الخاصة بالولايات.

(٤) الريح الجنوبية الشرقية.

(٥) MANTO : نوع من المعطف بلا أكمام.

الوافرة، مرهونة في صراع شديد العراك حتى ليبدو انتخاباً للأكاديمية البرازيلية للآداب. كنَّ يتنافسن ممثلات المسرح الخطابي، نجمات وفتيات الكورس في المسرح الاستعراضي والمغمورات والفتيات الشرهات في مسرح الهواة، محاولات انتهاز الفرصة واللقب من أجل أن يتحـولن محترفات للمهنة الساحرة والقليلة المردود في المسرح. قليلة المردود، ومع هذا مجزية؛ النجاح؛ الشعبية، الشهرة، ولإصلاح ضآلة المرتبات، يوجد ستينيو باريتو ونوجينتوس[1] والآخرون، الطاعنون في السن أصحاب الملايين المتلافون.

ثلاثة من المحكمين الأربعة، الذين يعملون من أجل المتعهّد، قرروا انتخاب المليحة والسافلة مارغاريدا فيلار ذات الساقين المتقنتين، طويلة القامة وشقراء الشعر، صوت دافىء، نجمة[2] فرقة «ميسيس، ماشيشي وفاتابان»، وهو استعراض تجاوز المائة تقديم. لكنْ اثناء عرض المرشحات، ألقى الشاعر برونو عينيه على إحدى أولئك الشرهات المغمورات وظل مأخوذاً. فلم يحدث له أبداً أي شيء مماثل؛ غرام آني، مجنون، فظيع. إنها فارعة الطول هيفاء وذات كبرياء، شفافة، مشعّة لشدة ما هي شقراء، زرقاء البشرة بلون الأوبال[3]، أين رآها؟ في لوحة بالتأكيد، لكنْ في أيّ متحف؟ أي معلّم فنان من عصر النهضة تنبأ بها ورسمها قبل قرون؟ نداء وتقدمة في العينين الليليتين، في الشفتين حيث كان يبدأ الجنس، في خطوة الوركين الجريئين والنهدين الجسورين. أحسّ برونو أن فمه جاف وأن تقلّصاً في معدته. فأمامه المرأة المقدَّرة له، في اللحم والعظم.

خُلق الحرج بسبب الصوت المختلف من الشاعر، لكنهم كانوا جميعاً أصدقاء طيّبين وأشخاصاً محبين، ولكي يكون انتخاب مارغاريدا فيلار بالإجماع، قرروا تعيين ومنح المرشحة المغمورة لقب أميرة ألمي ـ كاريمي.

ما كان برونو يعرفها، وإذا رآها فذلك كان في لوحة أو في حلم، وما كان يعلم أي شيء عنها، العمر، الاسم، المهنة. سمع المناداة عليها من هيئة التحكيم بلوسيا

(١) NOJENTOS: المقرفون، وردت هنا كإسم علم.
(٢) VEDETE (وردت سابقاً).
(٣) حجر كريم لونه شبيه بلون الحليب الذي تخالطه زرقة، نطلق عليه أيضاً: عين الهر.

بيرتيني، من أسرة إيطالية بالتأكيد على صلة قربى بفرانسيسكا بيرتيني، إذ أن أصلها من نفس القرية حيث وُلدت فاتنة السينما العظيمة التي لا تضاهى؛ راشدة في الحادية والعشرين (سن الرشد المطلوبة للمنافسة على اللقب والاشتراك في الحفل الراقص المخصص للتتويج). صاحبة بعض التجارب المسرحية، حصلت عليها عندما قطنت مدينة كامبوس وانخرطت في مجموعة فينيكس للهواة. قدمت إلى المسابقة مصحوبة بأحد أبناء عمها، وهو شخصية مكتئبة، يجلس في أحد صفوف المسرح الأخيرة.

اهتمام برونو واللقب الذي قدّمه هو لها باسم المحكمين تركاها منبهرة. عند رؤيتها له يصعد إلى المسرح مع أعضاء هيئة التحكيم الآخرين، عرفته في الحال من الصورة المنشورة في «الحياة البيتية» ومن الصورة الكاريكاتورية في «ماليو»، حيث الشاعر وقلم الحبر في قبضة يده يكتب بخط ذي نزوات عنوان كتاب، ماذا كان حقاً؟ «المركب»[1]. . . مركب ماذا؟ باركارولا أنطونيوس[2]؟ كان هذا بالذات، العنوان الغريب، ماذا كان يعني؟

انتهت في سلام الأعمال المضطربة لهيئة التحكيم، وأُعلنت الفائزات وصُفّق لهن، وأراد برونو الخروج مع الأميرة، على أمل أن يشبع الجوع الذي كان يلتهمه تلك الليلة. بيد أن سموّها الملكي، الفاضلة والعفيفة جداً، رفضت، كان يجب أن تعود مع ابن العم:

ـ والدي صارم جداً، تركني آتي فقط مصحوبة بابن عمي ولا يعلم أني أتيت لأشترك في المنافسة. لو علم، لكان بوسعه أن يضربني وأن يغلق عليّ في البيت.

عيّنا موعداً للقاء في اليوم التالي، في أحد أمكنة بيع البوظة، في ساحة كاريوكا. الكؤوس المزبدة (كانت دسمة)، الكلمات المهموسة، كلمات عذبة حسنة الوقع في السمع، القصيدة المتولّدة من تأثير العشية عند اكتشافها جمال البدوي، أسطورة الشاعر غزتها، تاركة إيّاها نهمة، التنفّس مخنوق. اعترفت ببعض الأكاذيب الأولى، لم تعش في كامبوس، لم ترتقِ مسرحاً أبداً، ما كانت لوسيا بيرتيني ولا متحدّرة من

---

(١) BARCO، وهي من ناحية اللفظ قريبة من لفظة BARCAROLA.

(٢) جمع أنطونيو.

إيطاليين، فاللقب والدم مسروقان من بعض الجيران. كانت تدعى ماريا جوان، اسم اختاره أبوها، برتغالي ومتوفى، اسم فظيع، ألا ترى ذلك؟ لا يوجد اسم أكثر منه جمالاً، سأدعوكِ جوانزينيا، سواء أردت أم لا. لم تعد تحوز إرادة خاصة، أرادت كل ما يريده برونو، ما تخيّلت قط أن تعرفه شخصياً، فكم بالحري أن يغدو الأمر وهو يقبلها في عتمة سينما ايريس، قبلات لا تنتهي كما القبل في الفيلم، تحسّ يديْ الشاعر تداعبان لها الثديين الطليقين تحت البلوزة. هكذا بدأ ذلك الغرام المجنون، في حمّيا الرغبة والغيرة المغلّف في موجة دائمة من الأكاذيب، مع اعتداءات وفضائح أمام الجمهور. في السنتين تقريباً اللتين استمرّت العلاقة فيهما، ما استطاع برونو قط فصل الواقع عن الاستنباط، أن يحدد تخوماً بين التمثيل والحقيقة.

ابن العم لم يكن ابن العم، أجل، موظف في المتجر المتروك ارثاً من البرتغالي، المدار من قبل الأخ والشريك. من العائد الزهيد كانت تعيش هي وأمها وأخوها الأصغر. في قسمة الأرباح، كان السلف والعم[1] يمارس قواعد خاصة في الحساب. وبالنسبة إلى العمر، كان يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى بلغ السابعة عشرة المكتملة حديثاً. ابن العم المزيّف كان الرجل الثاني الذي تمكن منها، مسبوقاً بابن عم حقيقي، وهو صبي في الخامسة عشرة من العمر، أصغر منها. وإذ حدث الأمر، أراد الفتى الصغير الزواج، تصوّر فقط! كانت تروي بتفاصيل، من دون أي إلمام بالحياء، وتتكلم بلا توقف. وعندما لم يكن لديها ما ترويه، كانت تستنبط.

في الحفل الراقص الكبير الخاص بالتتويج، في مقر «ملازمي الشيطان»، جهزّت الفضيحة الأولى، بعد أن أُعلنت وزُيّنت (تاج أصغر من تاج الملكة، رداء برّاق من الساتان بدل الرداء النبيل والمخملي الثقيل، خاتم صغير من الفيروز تقدمة من متجر المجوهرات أوفيدور المذكور) جابت الصالون متأبطة ذراع أنطونيو برونو، مصفّقاً لها كثيراً بقدر ما صُفّق للملكة. كان الشاعر يحسّ بثديها وهو يخفق. لقد وُلدت ماريا جوان من أجل الهتاف والعرض.

ـ وأنا أيضاً لديّ هدية لكِ يا ملكتي، ملكة سبأ، لكنني لن أعطيكِ إيّاها الآن ولا ههنا.

---

(١) المقصود: سلف الأم، أي شقيق زوجها، وهو في الوقت نفسه عم الفتاة.

علبة صغيرة بشكل قلب، معلّقة بسلسلة ثخينة، حلية برتغالية عتيقة، ذهب خالص، مكتشفة في أحد متاجر باعة التحف القديمة الرصين ـ لم يغش زبوناً أبداً ـ ولص، لكي يشتريها برونو كان عليه أن يأخذ نقوداً مستقرضة من آفرانيو بورتيلا.

فتح الصندوق، وأظهر لها الحلية. وعلى الرغم من أنها ما زالت جاهلة حيال قيمة ونوعية الحلى، كانت ماريا جوان تحوز ذوقاً أصيلاً، فأدركت الصنف، وأحسّت بجمال الحلية وتخيّلت أنها كلّفت ثروة.

ـ لي؟ حتى أني لا أصدّق.

أرادت أن تتقلّد بها على الفور لكنه لم يسمح لها.

ـ في البيت، حينما تكونين عارية. أريد أن أعلّقها فوق ثدييكِ، هديّتي للزفاف.
ـ لكنْ هكذا لن يراها أحد...
ـ أنا سأرى، ألا يكفي؟ لمرة واحدة، ستتقلّدينها من أجلي فقط. بعدها، بوسعكِ عرضها حيث تشائين.

عندها ابتسمت وعضّت شفتيها، مستبقة المشهد. أغمضت عينيها، وخرجا إلى الرقص، زوجاً مواظباً.

ـ أريد صورة لك لأعلقها في العلبة.

وجد برونو، الراقص الممتاز، مع خصائص كباريهات باريس، في ماريا جوان تلميذة مجتهدة قادرة على مرافقته في التنوعات الأكثر جرأة. وكانت تراقب، وهي بين غاضبة ولامبالية، النظرات التي كانت النساء يطلقنها إليه، يا لهنّ من خالعات العذار.

أثناء توقف قصير من فرقة الجاز، فيها هدأ الموسيقيون وأخذوا يفرغون كؤوس الجعة[1]، انتهزت أميرة ألمي ـ كاريمي الفرصة للذهاب إلى التواليت. وعندما عادت بدأ الرقص ثانية وكان برونو يدور مع نغم الفوكستروت، ملتصقاً بالملكة مارغاريدا الصادر عنها زفير كفحيح الأفعى. تغلّب الغضب على عدم الاكتراث، والأميرة

(١) CHUPE : جعة البراميل (وردت سابقاً).

المطيعة غدت وحشاً، وانطلقت في اتجاه الزوج. وقبل أن تتنبّه جلالتها ، كان التاج الملكي قد انتُزع والرداء النبيل المخملي كنّس أرض القاعة إذ أن ماريا جوان قذفت نفسها على نجمة المسرح الاستعراضي الكبرى وأمسكت بها من شعرها؛ كانت مارغاريدا فيلار تشعر باعتزاز خاص لانعكاسات النحاس اللامع في المسرح، المتولّدة من سقوط الضوء على خصلات الشعر الشقراء. لم يروا أبداً مثل هذا التلألؤ الشديد مثلما حدث في ليلة الحفل الراقص.

ـ لا تدسّي نفسكِ فيه، أيتها العاهرة العجوز، الخالعة العذار، إنه لي ولا لأحد سواي.

انتهى الحفل الراقص وألمي ـ كاريمي بعد قليل. ولكي ينسحب بها من القاعة وينصرفا اضطر برونو إلى اللجوء للقوة الوحشية. وتصرّفت ماريا جوان بردة فعل، عاضّة يده. جاعلة إيّاها تنزف دماً.

ـ دعني، لا أريد أن أعرف بعد الآن شيئاً عنك. ابقَ مع تلك المتسكّعة، أعطها الهديّة، إني ذاهبة إلى بيتي.

ذهبا إلى بيته، سرير الجنون والغلمة. السلسلة الثقيلة حول العنق، العلبة الصغيرة بين الثديين، قلب من الزخارف. البشرة شبه شفّافة بلون الأوبال، الفرج متفتّح قمحاً ناضجاً، كلها في الذهب.

فجر الذئاب العاوية، من المصمصات والعضّات، هجوم الجياع، الصراع الجسدي. وعندما أدركهما الصباح في النهاية، قالت:

ـ إغفر لي يا حبي، لكنني هكذا. ما هو لي، هو لي فقط، لا أبالي بأحد. والآن أطردني إذا شئت. . . ـ ابتسمت وتثاءبت: ـ وإلا فبمشيئتي لن أذهب، من هنا لن أخرج بعد الآن.

كانت لديه غراميات كثيرة وقد استيقظت كلها. لكن لم تكن أي واحدة جد عنيفة ومدمّرة مثلها. دام غرامهما سنتين تقريباً وأحياناً ظنّ هو أنه سيصاب بالجنون. فماريا جوان كانت المرأة الوحيدة التي ضربها وفعل ذلك بغيظ. إحساس طاغٍ، الغيرة سممت الغرام. غيرة مفعمة بالهذيان أبدتها هي في كل لحظة وفي أيّ مكان. غيرة

تسعى إلى وضع حب برونو قيد البرهنة. مشادّات متكررة، تتضاءل، وتغدو بشكل يومي، عذابات انتهت في التصادم الهائج للجسدين الملعونين بالرغبة.

أقامت له ماريا جوان مشاهد مرعبة، فلم تكن تتحمّل رؤيته يتكلم أو يضحك مع امرأة أخرى. وفي الوقت نفسه تترك أسماء رجال تفلت منها، تشير إلى عروض تقبّلتها، تخبىء قصاصات من الورق بيضاء بلا كتابة لكي يظن هو أنها رسائل محرجة، بطاقات تحدد مواعيد لقاءات. كم مرّة تكررت فضيحة الحفل الراقص في ألمي - كاريمي؟

في الغيرة، استُهلك هيام برونو. امرأتان في نفس الجسد الرائع؛ ماريا جوان، البنت الرقيقة والعذبة المتيّمة، ونقيضتها الساحرة[1] التي لا تُحتمل ولا يمكن ضبطها والتي وضع هو لها اسم ماري جوان. وكلتاهما بلا منافس في السرير.

عنون المسرحية الشعرية «ماري جون» التي كتبها برونو أخيراً لمجموعة ليوبولدو فرويس، بشرط هو إسناد دور البطولة لماريا جوان. قبلاً حصل أن اشتركت، تحت اسم لوسيا بيرتيني، في بعض الاستعراضات، تغني وترقص. مارغاريدا فيلار، الكريمة، وغير القادرة على الاحتفاظ بالضغينة، منحتها أكثر من فرصة سانحة وصارتا صديقتين. على الرغم من الجمال، الجسد الرائع، السحر، كانت تنقص ماريا جوان مواصفات معيّنة مطلوبة لذلك النوع من المسرح. ذات يوم، هتف برونو، في أوج اليأس:

- أنتِ ممثلة فطرية، هذا أجل، سأكتب مسرحية لكِ يا ماري جون.

لم يولد برونو كاتباً مسرحياً، بل شاعراً. في التمثيلية الكوميدية حيّوا الاشعار وتمثيل القائمة بالدور للمرة الأولى، عائشة، بموهبة خارقة، الشخصية المتناقضة للفتاة البرازيلية الفاتنة واللطيفة، ذات الميل المتحوّل إلى السينما الأميركية، في تقليد عادات وتصنّعات هوليوود. لم يكتب أنطونيو برونو بعد ذلك أبداً للمسرح التمثيلي. ولم تعد هي أبداً لتغدو لوسيا بيرتيني في أدوار صغيرة في الاستعراضات في ساحة

---

(١) BRUXA : ممارسة أعمال السحر.

تيرادينتس[1]. فقد ظهرت نجمة، الممثلة العظيمة، إيطاليا فاوستا جديدة.

استمرّا صديقين، هي وبرونو. حدثت نكستان لكنهما، كلتيهما، دامتا وقتاً قصيراً.

(١) إحدى ساحات الريو حيث تكثر فيها الملاهي والمسارح الاستعراضية.

الاستنفاد

عسيرة، محزنة، مستَنْفَدة، الحملة الانتخابية التي كانت تقترب من نهاية المرحلة الأولى؛ الشهران اللذان يستطيع خلالهما المرشحون تسجيل أسمائهم، معركة الـPETIT TRIANON كانت تنمو في عنف لكنَّ أحداً لم يتكهّن بالنتيجة غير المنتظرة.

العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا المعتاد على إصدار الأوامر وأن يكون مُطاعاً، قد أُثير عندما تحقق من مقاومة صريحة أو صمّاء لمطالبته بالخلود. فالمسيرة المظفّرة، المعلَنَة من ليزاندرو لايتي، تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى سباق العقبات. إنها مستَنْفَدة بشكل مثير للرعب.

في جلجلة[1] الزيارات البروتوكولية، مجبرٌ على الضعة والتملّق، رأى نفسه، عشر مرات، ملزماً على الإصغاء بصمت إلى الترتيل المهين:

ـ أنا آسف بما لا يُقاس أيها العقيد، لكنَّ صوتي قد أُلزم، عن طريق المصادفة، لزميل لك، ذي بزة، شخصية أخرى لامعة من الجيش، هو اللواء فالدوميرو موريرا.

كانت الكلمات تتبدّل، ويستمر المضمون نفسه؛ إلتزام سابق مع الأخرق موريرا. اكتشف أن أكاديميين كذبا حينما أكدا أنهما قد وعدا بالاقتراع لخط ماجينو، إذ أنه لم يزرهما بعد. برهانٌ جليٌّ على معارضة إسمه وما كان يمثل. صفعة تكررت عشر مرات، ذات معنى بالرقم ويكشف واقع خطير؛ أعداء الوطن قد مدّوا دوافعهم حتى المؤسسة اللامعة.

---

(١) CALVARIO: الجلجلة، الدرب التي سار عليها المسيح وهو يحمل الصليب.

ولكون الأكاديمية البرازيلية جمعيـة ممثلين بـارزين، لمهن لها علاقة بحقول المعرفة ـ ليس فقط للأدب لكنْ أيضاً لقطاعات أخرى من الحياة البرازيلية، من علم القانون إلى السياسة، من الأكليروس إلى القوات المسلحة، من الدبلوماسية إلى الطّب، من العلوم إلى الصحافة ـ ذات تقاليد محافظة، فإن العقيد لم يستطع أبداً أن يتخيّل أنه سيعاني مثل هذا النفوذ من القوى المنحطة والمشتتة، التي تناهض الأفكار التجديدية المظفّرة، التي ترمز إليها شخصيتا الفوهرر والدوتشي[1] الممجدتان. كانت الأكاديمية تظهر نفسها موبوءة بتعفن الليبرالية، والتي تسرّب إليها الشيوعيون. كانوا يتهمونه بالطابور الخامس، هكذا تناهى إلى علمه. حسناً، في حال انتخابه، سوف يتخذ التدابير اللازمة لتلقيح الكيان البشري المريض بدم نقي وصحي، مجدداً إيّاه في كل مركز شاغر. فالخالدون القادمون سيكونون منتقين بالإصبع.

الحقيقة الناصعة هي أن خمسة عشر زارهم قد التزموا الاقتراع لاسمه واثنين أو ثلاثة من بينهم انضموا إلى ليزاندرو في التأييد الفعّال للحملة. إنهم غـائبون عن الريو (واحد متقاعد في ميناس[2]، وآخر سفير في المكسيك) وغير قادرين على القدوم إلى الانتخاب، أكاديميان قد وثقا إليه ببطاقتيهما اللتين كان يجب أن تضمهما المغلّفات المغلقة مع أصوات لأربعة اقتراعات. لحظات السرور البالغ حينما يضرب هو نفسه على الآلة[3]، بعد أن يكون قد استُشيرمن قبل القاضي، بالأوراق الصغيرة، الإسم كاملًا مستبقاً براءة الترخيص. في المقابل كان عليه أن يبتلع ضفادع وأفاعي[4] لكي يضمن الفوز.

خمسة وعشرون صوتاً محددة، خمسة عشر إلى جانبه، عشرة ضده، وأربعة عشر غير مؤكدة. أربعة عشر، كلاّ؟ إنها ثلاثة عشر، إذ أن آفرانيو بورتيلا، مسيّر ترشيح اللواء، كان العدو الرقم واحد لسامبايو بيريرا. مراقبة هاتف الروائي أظهرت نشاطه اليومي البالغ مع الأكاديميين الاخرين من أجل الحؤول دون دخول الغستابو إلى

---

(١) DUCE: لقب موسوليني السياسي حليف الفوهرر هتلر.

(٢) ولاية ميناس جيرايس في وسط البرازيل عاصمتها مدينة بيلو أوريزونتي (الأفق الجميل).

(٣) المقصود : آلة الطباعة (الدكتيلو).

(٤) اصطلاح برازيلي يعني: عليه تحمل كل شيء.

الـPETIT TRIANON، الجملة الحرفية. مع ليزاندرو، حلل العقيد، حتى الاستنفاد، الأسماء الثلاثة عشر، واحداً واحداً، في حساب فردي للاحتمالات. في رأي القاضي المجرّب، جميعهم بلا استثناء، سيصوّتون للعزيز آغنالدو. لكنَّ العزيز آغنالدو تخلّى عن الوثوق بشكل أعمى في التجربة الرائجة وفي توقعات العزيز ليزاندرو. كان يمضي خائب الظنّ لدرجة أنه وضع بين المشكوك فيهم العجوز فرانسيلينو آلميدا، بالرغم من الفاكهة والشمبانيا (الفرنسية).

كان متبقياً له زيارة ثلاثة فقط من الثلاثين أكاديمياً. قام بالطقوس مع جميع الآخرين ولم يكن الأمر دائماً سهلاً ومسرّاً. كان عليه السفر إلى سان باولو من أجل التحبب إلى ماريو بوبنو، شاعر «كتاب المزامير»، وإلى بيلو أوريزونتي لقطف اقتراع المدير السابق لمصرف البرازيل، الاستاذ الجامعي المتقاعد، مؤلف كتب قصص قصيرة ذات رقم مختزل للصفحات وانتشار مختزل، المصاب بفالج. من ميناس، أتى برسالة الأشل في جيب ردائه. الشاعر السانباولي منحه وقتاً قصيراً، لكنه ضمن له، بلطف، الصوت. كان عليه إرساله رأساً إلى الأكاديمية. إنه لطيف مع جميع المرشحين، الجميع من دون استثناء. ماريو بونيو ضمن الصوت، دائماً يرسله إلى الاكاديمية، ولم يُكْتَشَف أبداً الإسم الذي يقترعه. إزاء الحالة، وضع العقيد الشاعر في لائحة غير المؤكدين، برغم ضمانات ليزاندرو. في ما يتعلق بالسفير في المكسيك، ريناتو موللر فيرا، زاره عبر وسترن[1]، في برقية حارّة وفسيحة (بند مقارعة الشيوعية كان مموّل هذه النفقات الضئيلة: مراسلات، تذاكر سفر، فنادق، الهدية الفاخرة لزفاف ابنة أحد الخمسة عشر غير الملتزمين بشروط). تلقّى إجابة وديّة جداً ورسالة غالية للاقتراع من خلال الحقيبة الدبلوماسية. ريناتو موللر فيرا، شاعر وروائي، لم يكن يعرفه شخصياً ولم يتمكن من قراءة كتبه العويصة، «الولد الإله» لدى النقد الجامعي الحديث، أعلن نفسه معجباً غير مشروط لسامبايو بيريرا: «عملك الأدبي الخالد ونموذجك الرائع يوحيان لشبيبة البرازيل في فجر عالم جديد حلم به شوبنهاور». تأييد حماسي، يعوّض المعارضة والكراهية الباديتين من قبل بعض المتعاطفين الأشرار مع موسكو.

---

(١) شركة أميركية خاصة بالرسائل البرقية.

اثنتان من المقابلات كانتا اجمالاً غير سارّتين، وداعان بأقل حدٍّ من اللطف؛ باعثان على الغم. إيفاندرو نونيس دوس سانتوس لم يستضيفه في البيت، عيّن موعداً للقاء في مركز دار نشر كتبه، في جوزيه أوليمبيكو. أصغى إليه في صمت، بوجه مقطّب، وأعلن نفسه متضامنا مع المرشح الآخر؛ ومدّ إليه أطراف أصابعه وهويودعه. وبالنسبة إلى الكاتب المسرحي ر. فيغيريدو جونيور، كانت لديه الفظاظة لأن يسأله عن العامل الذي حمله إلى الاقتراع على المركز الشاغر. وإذْ ألمّ بالايديولوجية والطبيعة اللتين يمارسهما في الحكومة، لم يتمكن من فهم اهتمامه بالأكاديمية البرازيلية. التلميح الوحيد المباشر إلى حالته كفاشي ورئيس قوى الأمن، الاستقصاء الخبيث للكاتب المسرحي بقي يحزّ في حلقه، رجل مبغض للبشر وحشي. كان عليه أيضاً أن يزور الرئيس كارمو، والمحتضر الجليل بيرسيو مينيزيس والروائي آفرانيوبورتيلا.

بورتيلا الذي لا يُبْلَع، الليبرالي المنحط، مبتكر ترشيح خط ماجينو، لن يزوره، وما كان بسبب إطراءات ليزاندرو فالامتناع يتحكّم بطبيعة الانتقام. الخالدون نزقون جداً، وقد يعتبرونه خرقاً لا يمكن تحمّله للبروتوكول، يطال الجميع. فالعزيز آغنالدو، على الرغم من أن انتخابه مضمون، يجب ألّا يخلق مشكلات قادرة على اختزال التصويت له. إضافة إلى ذلك فإن بورتيلا طفيلي اجتماعي، محب جداً للحياة، على خلاف ايفاندرو وفيغيريدو، سيكون لطيفاً، ومَنْ يدري، فقد يكون حتى مسروراً.

في كنيسة كانديلاريا، في قداس اليوم السابع، التقى سامبايو بيريرا إيرمانو دو كارمو، الذي التزم بتحديد موعد لاستقباله؛ لم يفعل ذلك حتى الآن. أظهر له تقديراً لامتناهياً لكنّ العقيد رأى فيه رصيناً أكثر من اللازم. تكتم لصيق بالمنصب، أوضح ليزاندرو: على الرئيس احترام الشروط الخاصة بالأنظمة التي تمنع الإشاعة المسبقة للصوت. بيد أنه برغم الحيطة والصمت، قد أظهر دائماً إيثاره بطريقة غريبة. كيف؟ فيما كان يستقبل المنافسين الآخرين عند الصباح، مقدماً لهم فناجين القهوة البسيطة، دعا إلى الغداء المرشح الذي سوف يقترع له.

بيرسيو مينزيس، الحكيم ذو الشهرة العلمية العالمية، مَنْ بدأ تحضيره العلمي مع

ماري وبيـار كوري[1]، المتعاون مع إينشتاين[2] في جامعة برنستون، أستاذ الميكانيكا العليا والسماوية، عضو معهد الراديوم في السوربون، الشاعر السوريالي في ساعات الفراغ، المتزوّج من عازفة البيانو أنطونييتا نوفايس، لم يجب أيضاً على طلبه بموعد للزيـارة. بسبب الحالـة الصحية، بـينّ ليزانـدرو. هاجمه السرطان المتفشي وكان يقضي أياماً وأياماً تحت تأثير العقاقير ليسكّن الآلام، مورفين بكميات. تخلّى عن القدوم إلى الاكاديمية منذ عدة شهور ويستقبل فقط الأصدقاء الأشد حميمية. لكن لماذا استقبل إذاً خط ماجينو؟ لماذا استبق اللواء العقيد في طلب الموعد للزيارة والشخصية المهيبة كانت مغالية في مسائل الإتيكيت. يستقبل العزيز آغنالدو فقط حين يشعر بالتحسّن؛ هكذا قال له ليزاندرو، الذي استطاع في العشية التكلم معه بالهاتف من أجل أن يستوفي الموعد. وزاد جملة كانت تشتمل، عملياً، تصريحاً سابقاً للتصويت: اهتم بشكل مطلق في أمر استقباله.

العقيد الواثق من الفوز، كان يشعر مع كل هذا انه محبط كما لو أنهم كانوا يفرغونه من الداخل. مقاومات، كمائن، عمليات خدع، كلمات ذات معنى مـزدوج، هزائم، مجابهات، كلها مرهقة بشكل مرعب، مستهلكـة. فإذا لم تستبد به الرغبة بمثل هذا الطموح ـ ما زال اكبر الآن فيها الانتخاب يتحوّل إلى معركة بلا ثكنة، اللقب، المقعد، الرداء، الخلود ـ فإنه سيتخلّى عن الصراع، سيستعفي وهو قلق، منكّل به، مهتز الثقة بالنفس، أعصابه في خرق بالية.

الانقلابيون والمشبوهون سيدفعون غالياً ثمن منغصّات العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا. سينتقم منهم؛ العصابة الكارثية من الأكاديميين، من الذين ينكرون حقه في الصوت، ملتمسينه لمصلحة أحد ماسحي الأحذية الرديئين، من الذين أهانوه بالبرودة، التهكم، التنديد ومن أولئك الأشد سوءًا من الجميع، الذين إذ يقولون إنه المنتصر، وإنه منذ الآن منتخب، يحمون أنفسهم، تاركين إياه في شك، مرتبكاً، ضائعاً، في وسط لغوٍ برّاق وغير معقول. لكمات على الطاولة، صرخات، تهديدات، أوامر متوحشة للمتحزبين ـ المعتقلون والمشبوهون الذين يمرون على يديه في تلك الأيام ويجعلون مرّاً الخبز الذي عجنه الشيطان، فيختارون غياهب الجحيم.

(١) الزوجان اللذان اكتشفا الراديوم.

(٢) صاحب نظرية النسبة وأحد علماء الذرة.

الزوجان (والابنة)

ـ إنك تبدو قلقاً يا ليزاندرو. لماذا؟ ـ الصوت الهادىء والعذب للدونا ماريوسيا، في استقصاء ودود.

الناس عموماً كانوا يندهشون حين كان القاضي ليزاندرو لايتي يقدّم الزوجة. بدينٌ، ينضح عرقاً، مهملٌ في ارتداء ثيابه، ذو لطف مبالغ فيه، انتهازي وفهيمٌ، مختلف في كل شيء عن السيدة الرقيقة، الأنيقة، جيدة تسريح الشعر وجيدة التزين[1]، لا تزال بعد جذابة، دائمة الابتسام ،متنبّهــة .كان لديها خمسة أبناء، أربعة رجال ، كلهم متخرجون ـ محاميان، طبيب، ومهندس ـ ومتزوجون وبرو (برودينسيا، كانت تكره الاسم) عازبة، في السنة الرابعة في الحقوق، جميلة تشبه أمها، مرحة ومحبّة للحياة أكثر حتى من أبيها. الدونا ماريوسيا، اللطيفة والهادئة، جدّة سبعة أحفاد، لم تكن تبدو في الخمسين من العمر التي ستنجزها عما قريب.

كانت متوافقة مع الزوج جيداً. دائماً متضامنة، حتى عندما تتحدث مع برو، تبدو غير موافقة على وجهات النظر والمواقف المتخذة من قبله. معاً كانا قد حققا مسيرة طويلة، في البدء كان الأمر صعباً جداً. لقد توجّب على ليزاندرو أن يصارع كأسد كيلا ينقص المرأة والأولاد الأشياء الجوهرية على الأقل. زوج متيّم، والد مكرّس نفسه لأولاده وطيب، قلق لمستقبل أبنائه، عمل بشكل قاسٍ، واندفع بشجاعة وجرأة، متجاهلاً فلسفة الأخلاق والوساوس، لكي يزوّد أسرته بالراحة ويرشد أبناءه، كلهم بفضل الله وبمناورات ومساعي الوالد، مستقرّون جيداً، والحياة منتظمة. لا يوجد في البيت غير برو، وهي ما زالت طالبة ومعتمدة على الغير. معتمدة على الغير في حدود؛

(١) وضع مساحيق التجميل على الوجه.

المسكن، الطعام والثياب لكن إلى ههنا كان ينتهي الاعتماد على الغير إذ لا شيء أكثر. متشامخة وغير خاضعة، ما كانت برو لتقبل أقل تدخّل من الوالدين. مستعدة للعيش بمفردها، مستقلّة، حالما تتاح لها الظروف. شرعت في ممارسة العمل في مكتب محاماة، حيث لم تكن تكسب مالاً إنما تكسب خبرة وتقوم بواجب. فالمكتب قد تخصص في الدفاع عن المعتقلين السياسيين أمام محكمة الأمن الوطني.

جلس ليزاندرو إلى جانب الزوجة:

ـ وهذا الانتخاب البائس. ظننت أن من السهل تحمّل مسؤولية ترشيح آغنالدو، خُدعت.

كان لطيفاً مع ماريوسيا، منذ فترة الغرام الطويلة. وهو غير متماسك، يداه دائماً مبللتان بالعرق، غزير الشعر، لحية رديئة التشذيب، عدو للرياضة، راقص سيء، وهو فتى قليل القبول لدى الفتيات، وحتى اليوم لا تدري ما الذي حدا بها إلى القول نعم عندما أعلن نفسه في الحفل الراقص عند التخرّج. وجد صعوبة في التصديق بأن المدرّسة العاشقة ـ كانت تدرّس في المجمّع المدرسي في الحي ـ تريد في الواقع الزواج منه. فما كانت لتغويها المنافع الخفية إذ أن ليزاندرو المتحدّر من أسرة أفقر من أسرتها أيضاً، ومن أجل أن يفي بنفقات الكلية، كان عليه أن يعمل (حتى لتحصيل مصروف التعليم) لاستيفاء حسابات نصابين معسرين لأحد متاجر الألبسة الجاهزة والثياب المفصّلة وكان يتمكن من الاستيفاء. اعتبر نفسه مديناً للزوجة طيلة حياة بكاملها.

ـ أناس كثيرون ضدّه؟

لم تكن الدونا ماريوسيا تهتم، بشكل عام، بالصراعات على المراكز في الاكاديمية، بالرغم من الوقت والدور الذي كان ليزاندرو يكرّس له نفسه. كانت تستضيف المرشحين في الزيارات البروتوكولية، وتأتي إلى الـ PETIT TRIANON لمناسبة انعقاد الاجتماعات المهيبة وحفلات الشاي في عشيات عيد الميلاد، حينما كانت تتآخى مع سيدات الأكاديميين الآخرين. دائرة الصداقات التي كانت تختلف إليها تتألّف فوق كل شيء من زوجات قضاة وأفراد عائلاتهن، وعائلات الكنّات.

ـ عديدون، أكثر مما تصوّرت. وأوغاد. آفرانيوبورتيلا، هل تذكرينه؟ يتصرّف كأحد أفراد المجتمع الراقي...

ـ أعلم، لطيف جداً. قرأت بعض رواياته، أحببتها. «آديليا» إنها جميلة.

ـ لطيف؟ في المقارنة معه، ماكيافللي هو طالب قانون. هل تعلمين ما الذي توصّل إليه؟

ـ خبّر ـ تناولت يده الناضحة بالعرق، متوسّلة.

ـ لم يرض بتدبير لواء لينافس آغنالدو، فألقى ماريا جوان لاستمالة الأصوات.

ـ فنانة المسرح؟ وتأتي بنتيجة؟

ـ يكفي القول إنبايفا، عزيزنا الوزير، وهو صوت لي، عنيد، يمضي راغباً في انتزاع جسده خارجاً. ما شوهد قط أمرٌ من هذه الأمور، إنه انعدام الاحترام إزاء الأكاديمية.

ضحكت الدونا ماريوسيا:

ـ إني قادرة على أن أُقسم، بأنك من جهتك، قد فعلت أموراً كثيرة أخرى. هل ثمة خطر على مرشحك من الخسارة؟

ـ هذا، لا. سيفوز.

ـ إذن، لماذا تقلق؟

ـ لأني أريد فوزاً بالإجماع. هنا يظهر الوباء بورتيلا مع لواء ليفسد الحفلة.

ـ كل مرّة، هي نفس الشيء. هذا العراك الضاري.

ـ أعتقد يا ماريوسيا، أنه لا يوجد شيء أشد إثارة للطموح في البرازيل من رداء الأكاديمية. فالأكاديمية هي الذروة، ولا شيء يقارن بها. نحن أربعون فقط، المنتخبون من الآلهة، الخالدون.

ـ وأنت وصلت إلى هناك يا ليزاندرو. غدوت أنا فخورة. لكنْ أكان الأمر صعباً جداً؟ إني لم أعد أذكر.

ـ كانت المناسبة ملائمة، كنت نوعاً من مرشح مصالحة. حتى مع ذلك كان عليّ أن أسعى. وقد ساعدني بايفا كثيراً.

صمت، متذكراً معركة السنوات العشر إلى الوراء؛ إذ اعتُبر أضعف المرشحين الثلاثة، فإن أحداً لم يصدّق أنه سيغدو منتخباً. آه! الأكاديمية تكلّف عرقاً ودماً! بيد أن الرّداء ينظّف كل شيء يجعل الجروح مندملة، تطلّع إلى المرأة بحنو:

ـ إنكِ زوجة عضو الأكاديمية البرازيلية للآداب.

ـ إن كثيرات لديهن غيرة، ولا يخفين ذلك: «زوجك أكاديمي، أليس هو؟ يا له من أمر رفيع!». وأغدو بكلّيتي ذات خيلاء.

ـ من اللازم أن تري آغنالدو، العقيد سامبايو بيريرا، مَنْ اسمه يثير الارتجاف لدى نصف الناس، إنه أحد أكبر الشخصيات في الدولة الجديدة، مقدّماً صناديق الشمبانيا الفرنسية للعجوز فرانسيلينو، السفير المتقاعد، الذي لا يملك شروى نقير.

ـ ولماذا ترعى ترشيح هذا العقيد؟ قرأت بعض الأشياء حوله، تثير القشعريرة. في هذه الأوراق التي تأتي بها برو إلى البيت، مخبّأة في الحقيبة.

ـ برو تمضي متورّطة مع الشيوعيين، ها قد قلت لك. ذات يوم، سيُكشف أمرها، لا أريد حتى التفكير بهذا. تصوّري، ابنة لي، في السجن. إني أدفع ثمن خطاياي.

بيان المثقفين البيرنامبوكيين، الذي وُجدت نسخة منه في درجه في الأكاديمية، ظهر أيضاً في البيت، فوق طاولة المكتب حيث كان يدرس القضايا. وُضع هناك من قبل الإبنة، لكي تنتقد تصرّف الوالد. جلبت برو أيضاً قصيدة أنطونيو برونو حول باريس وكتبت في الهامش: لا يمكن لنازي أن يخلف شاعر الحرية. تتهمه المتمرّدة. لكنْ مَنْ سينتزعها من السجن، إذا يوماً... تخيّل، إذا ارتاب العقيد...

ـ دع برو وشأنها كما أتركك أنا وشأنك. لكنْ أوضح لي لماذا تقلق نفسك كثيراً بسبب هذا الترشيح؟ لماذا ترعاه، إذا كان هذا العقيد ليس حتى صديقك؟

ـ إنه ذو سلطان يا ماريوسيا، فوقه لا يوجد إلا وزير الحربية فقط، هو الرجل، آغنالدو، إنه يختار ويسمّي. إني مدين لك بالكثير، مدين لك بأكثر من اللازم يا عزيزتي. وما دمتِ الآن زوجة أكاديمي، أريدكِ أيضاً أن تكوني زوجة وزير المحكمة

الاتحادية العليا.

لطيفة، أنيقة، لا تزال جذّابة، مرغوبة، أراحت الدونا ماريوسيا رأسها على كتف زوجها:

ـ تفعله من أجلي، إني أفهم الآن.
ـ قدّمت له شفتيها.

حوار في الهاتف

- ليلة طيّبة أيها العزيز ليزاندرو.
- قل يا عزيزي آغنالدو.
- تسلّمت في التو مخابرة هاتفية من كارمو، محدّداً موعداً للزيارة غداً.
- من الرئيس؟ رائع! ومن ثَمَّ؟
- دعاني إلى العشاء في بيته، مع زوجتي. طلب مني عدم نشر الواقعة.
- أما قلت لك؟ دعوة إلى العشاء، ضمانة الصوت.
- الجميع يقولون إن الأمر في الواقع كهذا. أردت الاتصال بك في الحال.
- أشكرك. هل تعلم أي يوم هو غداً؟
- غداً؟ دعني أرى... الخميس.
- ليس يوم خميس كيفما كان. غداً تختتم التسجيلات. بدءاً من السادسة، لا أحد يستطيع ترشيح نفسه بعد ذلك.
- ترى هل استقبل الرئيس موريرا ماجينو[1]؟
- أعلم بالتأكيد أنه حتى الآن لم يستقبل اللواء موريرا.

حتى في التعامل مع خصم، لا يجسر ليزاندرو على انتزاع الرتبة التي تسبق اسم ضابط رفيع المستوى؛ وأكثر من ذلك أنه يناديه باسم العائلة المبخس للقيمة، لينجّه الله:

---

(١) المقصود: خط ماجينو الذي أقامه الفرنسيون أثناء الحرب العالمية الثانية دفاعاً عن حدود بلادهم بوجه الألمان (ورد سابقاً).

ـ دعني أكون عارفاً بكل خطوات الخصم. ينبغي للواء أن يكون راضياً بفنجان قهوة.
ـ هل بوسعنا نحن الالتقاء بعد غد لكي أقول لك كيف جرى العشاء؟
ـ أجل بالطبع، عيّن ساعة. إني دائماً رهن الإشارة، أنا رهن أوامرك يا عقيدي.
ـ قائد أعلى، هذا نعم، يا عزيزي ليزاندرو. المحكمة الاتحادية العليا.

استعلام

فُتحت الأعمال، قُرىء محضر الجلسة في ذلك الخميس، بعد شهرين بالتمام من جلسة الحنين المكرَّسة لذكرى شاعر «قصائد[1] أوغني» وأعلم الرئيس السادة الأكاديميين الحاضرين (وأمر بإرسال منشورات للغائبين) بانتهاء مهلة التسجيل للمرشحين للمركز الشاغر «المفتوح بموت رفيقنا الذي نذكره باشتياق انطونيو برونو» قدّم كاتبان، بعد أن أكملا المسوّغات القانونية في النظام، العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا واللواء فالدوميرو موريرا، كلاهما مع كتب عديدة منشورة. الانتخاب سيكون ناجزاً بعد شهرين من الآن، في آخر يوم خميس من شهر كانون الثاني ١٩٤١، الأخير مصادفةً قبل العطلات الأكاديمية.

---

(١) SONETOS.

العشاء

في المنزل العصري في أوركا، استقبل ليلاً الرئيس وعقيلته العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا وزوجته ، الدونا إيرمينيا على العشاء. الدونا إيرمينيا كانت تبدو أكبر سناً من زوجها مَنْ كانت تدعوه سامبايو؛ مطبقة الفم، تجيب بمقاطع ذات نبرة واحدة لمحاولات الرئيسة في دفعها إلى التحدّث. وعلى كل حال، عند تناول حلوى ما بعد الطعام، خرجت عن الصمت لتطري الأطباق والحلوى: «كل شيء رفيع المستوى»، قالت :

بدأ العشاء هادئاً، بعد ذلك كسب انتعاشاً حيوياً. روى إيرمانو دو كارمو وقائع من حياته الصحافية. بدأ من الأسفل، صبيّاً يوصل الرسائل، آخذاً أصولاً وجالباً بروفات من التحرير إلى المطبعة، في «فوليا دو كوميرسيو»، صحيفة انتهى إلى أن يغدو مديراً لها ومالكاً. قبل أن يشغل رئاسة الأكاديمية، شغل رئاسة الجمعية البرازيلية للصحافة.

برغم جهد الرئيس لتجنّب شعارات مثيرة للنزاع، كيف يمتنع عن التعليق على الحرب؟ ولكون ربّة المنزل قد أشارت بإعجاب إلى المقاومة المناهضة من قبل الإنكليز للقصف الوحشي الجوي الألماني، ذاكرة تشرشل[١]، فإن العقيد لم يقاوم، وبين السمك والسمك المنقوع بالخل واللحم البقري المشوي مع الخضار، تسلم قيادة اللوفتفاف[٢]، مسح لندن من الخريطة، وعلى الأثر احتل إنكلترة ووضع تشرتشل في السجن.

---

(١) ونستون تشرشل رئيس حكومة بريطانيا أثناء الحرب العاللمية الثانية.

(٢) LUFTWAFF : السلاح الجوي الألماني.

عند تناول حلوى ما بعد الطعام! عادوا إلى المواضيع المبهجة أكثر، سُمع الصوت الخجول للدونا إيرمينيا مطرياً السمك، اللحم والحلوى. مجنونة بالحلوى، ومع هذا لم تكن تستطيع أن تؤذي نفسها، وقد كانت بدينة أكثر من اللازم. أضافت تفاصيل مرتجلة: سامبايو يستحسن النساء البدينات. وأكد العقيد: الذي يحب العظام هو الكلب. عندما انسحب الزوجان، سألت الرئيسة زوجها:

ـ هل سيغدو منتخباً؟

ـ للأسف، نعم. لحسن الحظ، حينما يتسلّم المنصب، لن أكون بعد في الرئاسة.

وهو شبه رصين وشبه مبتسم، اتّهم السيدة الأنوف ذات الشعر الأبيض:

ـ تكلمت عن تشرشل عن قصد، ألم يكن ذلك؟ يا لك من محرِّضة.

ـ لماذا دعوته إلى العشاء إذا كنت لن تقترع له؟

ـ لن أقترع له؟ كيف تعلمين؟

كـانت أيضاً تأخذ علماً بما يفضله الزوج حالما يعلن لها فقط إسم المرشح المدعو إلى العشاء.

ـ كيف أعلم؟ لأنه من غير الممكن أن يحظى رجل على أصوات كثيرة وهو من هذا النوع الذي منه النغل هتلر. هل لاحظت المرأة؟ المرأة بالنسبة له كائن أدنى، جيّدة لتسمينه وللسرير.

ـ بصوتي أو من دونه، سيغدو منتخباً. بفارق ثمانية أصوات إلى عشرة.

مرر ذراعه حول خصر الزوجة:

ـ في الأسبوع القادم، الثلاثـاء، سيأتـي إلى العشاء اللواء فالدوميرو موريرا وامرأته.

ـ المرشح الآخر؟ أي خبر جديد هو هذا؟

ـ لستِ ملزمة باختلاس قبور الخمور، فالنبيذ الفرنسي باهظ الثمن وصعب المنال. قدّمي النبيذ التشيلي نفسه الذي قُدّم اليوم.

أضيئت ابتسامة في وجه الرئيسة:

ـ ها قد أدركت. فإذا دعوت الإثنين، ستصوّت بورقة بيضاء.

ـ إمرأة تجيد التخمين.

هبطا، يمسك أحدهما بيد الآخر، إلى الحديقة الصغيرة حيث أزهرت أشجار الياسمين، معطّرة الليل.

دورات دراسية،
محاضرات وبائعات مع الجيش

مجموعة المحاضرات التي ألقاها أكاديميون، الدورات الدراسية في الأكاديمية البرازيلية للآداب حول ملامح الأدب الوطني في العام ١٩٤٠ حللت الشعار «الشعر في حركات الإلغاء والجمهورية». جمهور مؤلف عموماً من أناس فتيّين، في غالبيتهم طلاب، علاوة على أصدقاء ومعجبين بالمحاضرين في الأسبوع. الأكثر شهرة استطاعوا ملء القاعة وتغيير هيئة الحضور الاعتيادية بحضور أساتذة جامعيين، ناشرين، كتّاب، أصحاب مكتبات وسيدات المجتمع.

منذ أن سجّل نفسه مرشحاً للمركز الشاغر لأنطونيو برونو، لم يُضع اللواء فالدوميرو موريرا درساً واحداً. دائماً في الصف الأول، ملف وقلم حبر أمام الرؤية، مدوّناً ملاحظات مصحوباً بكلاوديونور سابينسا الذي لا يتعب. متغلّباً على الامتعاض الناتج عن المخابرة الهاتفية السفيهة، التي من خلالها صرف اللواء النظر عن الأكاديمية الفلومينية للآداب، عانى العاشق سابينسا الخطوب الناجمة عن الترشيح الجديد والمجيد لمؤلف «مقدّمات لغوية»، وهو سكرتير فعّال ومجاني. وفي المقابل واصل التردد إلى البيت المضياف في غراجاوو، متابعاً في الحظيرة الرصينة أمام المنفصلة عن زوجها سيسيليا. ما دام الكلام عن سيسيليا اللطيفة إبنة اللواء فإنها لمعت بحضورها المحاضرة حول لويز غاما، مسؤولية رودريغو إيناسيو فيليو، مصفقة له بحماس شديد، لدرجة التسبب بنفور وغيرة سابينسا الطيّب، الموضوع في الاحتياطي لكن ليس مهملاً. لم تكن سيسيليا لترمي خارجاً طالبي زواج، حتى في ظروف كتلك، حينما تلتحم جنسياً في شقة مترفة للقاءات الغرامية مع الخلود. مثل تلك العطاءات من القدر، أوّاه! اعتادت أن تدوم فترة قصيرة. كانت تعرف كيف توقظ الاهتمام،

تجعل من نفسها مرغوباً فيها، غزواً شهيّاً، لكنها، تافهة وعديمة الحياء، لم تكن تستطيع الاحتفاظ بلهيب البداية متقداً، فسرعان ما تُخيب أمل العاشق ويذوي الغرام، زهرة قصيرة الحياة، غير قادرة على تحمّل الوحدة، فتهرع آنئذ إلى الأشخاص الثانويين. خسرت أحدهم، الجراح ـ طبيب الأسنان إذ لمعت على القبلات مع رودريغو في سيارة الخالد الليموزين. أظهر نفسه ذا رأي مسبق وسوقياً في مخابرته الهاتفية الأخيرة ـ لكي يهينها (لكي يحدد مواصفاتها، قال هو) وظف ذلك الأسم.

العجوز فرانسيلينو آلميدا مراقباً اللواء موريرا وهو يأخذ كميّة من الملاحظات ، فرانسيلينو الذي قاد الأكف تصفيقاً في مناسبة الاستعارات الأكثر بلاغة، يخرج مندفعاً ليغدو أول مَنْ يهنىء الخطيب، مثنياً على سعة الإطلاع في العلوم والتركيب، تذكّر رهطاً من الزملاء، بينهم آفرانيو بورتيلا وإينـريكي آندرادي، الفصل من الحادثة المسلّية الذي فيه كان هو وليزاندرو لايتي بطلين، وكان آنئذٍ مرشحاً مع فرصة ضئيلة بالفوز.

بالمنـاسبة، كـان الدبلوماسي في نهاية العصر، في أيام الجمعة، سيتلو دورة دراسية من المحاضرات في مقر «بن كلوب»، حول الثقافة اليابانية الكلاسيكية. موضوع مجدب، جمهور صغير، في كل مناقشة الجمهور أقل عدداً. كان ليزاندرو يجهّز الأغلبية المطلقة من الحضور. يجنّد طلاباً مهدّدين بعدم الأهلية للقبول في منبر الحقوق التجارية، وعلى أساس وعود بأفضل العلامات في المسابقات المقبلة، كان يحصل على حضور وتصفيق من دزينة حسنة من المستمعين لشروحات السفير السابق في الامبراطورية السماوية حول الكوجيكي، المانيو ـ شو والمونوغاتاري والميكي وغيرها من النوادر المشابهة. في المحاضرة ما قبل الأخيرة، علاوة على ليزاندرو والتلاميذ المهدّدين بالتشهير، حضر فقط رئيس نادي «بن» والموظف المولج بإيصال الأوراق والإتيان بها، وهما كلاهما ملزمان بسبب وظيفتيهما اللتين يمارسانها. استوعب الحضور الصفّين الأولين من المحفل الصغير. في عشية المداخلة الأخيرة، أُنجز الانتخاب وخرج ليزاندرو فائزاً في الاقتراع الثالث، ليفاجأ الكثيرون. من بين الذين صوّتوا له، كان فرانسيلينو، الذي في شك بين المرشحين الثلاثة، ولا يوجد أي نافذ بينهم، قرر ذلك لكونه مواظباً ومرتاداً كثير المجاملة للدورة الدراسية. في المداخلة الأخيرة اقتصر

الجمهور على الرئيس، وعلى الموظف المولج بالأوراق وأربعة أشخاص تافهين، بوّابين وحارسين للمبنى، دعاهم إلى الاجتماع فرّاش في إحدى الجامعات ذو خبرة. فلقد شعر الأكاديمي المنتخب ليزاندرو أنه غير ملزم، فأعفى الطلاب من التزامهم.

- أريد أن أرى هذا اللواء هو نفسه بعد الانتخاب، فإذا انتُخب خسرنا المستمع. لكن لديه خصائص قيّمة، برغم أن الآخر ينهي ويأمر نوعاً ما في الحكومة. مبارزة صعبة، أليست كذلك؟

انفرط عقد الجمع، ودّع فرانسيلينو آلميدا:

- أشكرك يا إينـريكي، لكنني اليوم سأتخلّى عن الركوب معك بسيارتك، فلديّ التزام في وسط المدينة.

- غرامي؟ - استقصى ممازحاً، إينـريكي آندرادي.

تجاهل العجوز السؤال:

- إني أتعاطف كثيراً مع هذا اللواء.

الخاصية الأشد إغواءً للواء موريرا، عاملٌ للتعاطف النامي للعميد، خيّاطة ذات مهنة، سكرتيرة في الكذب، كانت تتجه في تلك اللحظة إلى سينيلانديا، حيث لديها موعد في برازيليا للقاء السفير في اليابان وفي السويد، حديثٌ سارّ، إذ أن لديه الكثير ليرويه حول الملامح الغريبة للحياة في الشرق، وفي اسكنديتافيا، مغازلٌ، يدان مرتعدتان بعض الشيء، لكنهما ما زالتا تجيدان التصرّف وجسورتين.

- إن بائعاتي اللواتي يرافقن الجيش يزرعن ألغاماً للقوات المعادية...

عقّب المعلّم بورتيلا، وهو يستقل سيارة إينـريكي. كانا سيتناولان العشاء في تلك الليلة، مع الدونا روزارينيو والدونا آندرادي، في كازينو أوركا، حيث تعرض أوركسترا كارلوس ماشادو الخرافيـة «BRAZILIN SERENADERS» وذلك الشاب الخارق غراندي أوتيلو، وهو عبقري بالتأكيد.

الدعوة

هذه المرة، في ديوان العمل وتصريف الشؤون، لم يكن العقيد آغنالدوسامبايو بيريـرا جالساً إلى جانب من المائدة، والعدو إلى الجانب الآخر من الخندق، حيث يكون مسحوقاً. مرشح وعرّاب يتحادثان على الأريكة العريضة المصنوعة من الجلد، في زاوية من القاعة. على الحائط خريطتان لأوروبا ولأفريقيا، والدبابيس ذات الرؤوس السوداء تتقدم داخل البحر حول الجزر البريطانية. في أفريقيا تسيطر على الصحراء. الحرب تتنفّس في ذلك المركز المتقدم من القيادة.

ـ قبل الاصغاء إلى رواية العشاء، دعني أنقل إلى الصديق العزيز خبراً حسناً؛ إن سكرتيرة بيرسيو اتصلت بي هاتفياً وطلبت مني ابلاغك بأنه ينتظرك في يوم الاثنين المقبل، عند الساعة الثامنة عشرة.

ـ أين؟

ـ في البيت، إذا لم يعدْ يذهب إلى معهد الفيزياء حيث اعتاد استقبال الزيارات. إنه يسكن في كوزمي فيليو.

ـ أعلم، العنوان في اللائحة.

ـ سوف يسلّمك الصوت شخصياً، الصوت الأكثر طموحاً في الأكاديمية. ذات مرة سمعت مرشحاً يقول إنه ما كان ليهتم للهزيمة إذ كان لديه صوت بيرسيو مينيزيس. العزيز آغنالدو سيكون الأخير الذي استحق مثل هذا التكريس من قبل أحد أكبر الشخصيات في العلوم العالمية، عبقري. المؤرخون، في المستقبل، سيتذكرون هذا التفصيل.

منح وقتاً للعقيد ليحوز على إدراك كامل لمعنى صوت العالم المختصر والزيارة التاريخية الناتجة عن دوره:

ـ الآن ، العشاء...

ـ ليس الآن. وأنا لديّ إبلاغ لك أيضاً أيها العزيز ليزاندرو.

ـ وقف، عسكرياً ومهيباً: ونهض القاضي مقلّداً إيّاه، متأثراً، هاجس، أمل مفاجىء؛ أترى ستكون الدعوة الطموحة؟ بدا له صوت العقيد الخطابي سماوياً:

ـ أريد أن يكون الصديق الوفي هو مَنْ يُلقي خطاب استقبالي عند تسلّمي المركز. ولن أقبل رفضاً.

ـ أنا؟ أستقبل الصديق العزيز؟ لا تتصوّر بأي بهجة سأفي بهذا الواجب المشرّف! إني متأثر إلى أقصى حد. إسمح لي بأن احتضنك، يا عزيزي آغنالدوا

ـ شاب صوته دموع. هكذا ربّى أبناءه، شق طريقه في الحياة، صاعداً درجة درجة حتى المراتب العليا حيث وصل. في تلك اللحظة لمح ذروة العلى التي سيبلغها عما قريب. بفضل الحملة والخطاب. فلقد توفي برونو في الساعة الدقيقة.

بعد ذلك العناق الذي ختم بطابعه تلك الصداقة للحياة وللموت، وهما جالسان مجدداً، كشف ليزاندرو:

ـ أنظر أية مصادفة؟ من دون انتظار لهذا البرهان الكبير عن التقدير والثقة اللذين استحققتهما حالاً، بدأت بدافع المتعة الثقافية البسيطة، مراجعة عملك الأدبي الفريد، لدراسته، قاصداً كتابة بحث حوله. سوف أستخدم في الخطاب التفسيرات التي دوّنتها لوضعه في مكانه اللازم في الثقافة البرازيلية المعاصرة. ينقصني فقط كتابك المتضمن قصائدك، لم أتمكن من الحصول عليه في مكتبة كارلوس ريبيرو للكتب القديمة.

ـ خطايا الشباب، أشعار رومانسية. يكفي أن تشير إلى الكتاب عرضاً ، أذكر العنوان. سأرى إذا استطعت الحصول على نسخة لكي أقدّمها لك.

لم تكن لديه نيّة الوفاء بالوعد، أشعار رومانسية، فائضة، لا تنسجم مع قائد في

بنيته. تمكن ليزاندرو من السيطرة على الانفعال:

ـ والمأدبة؟ أعلم أنكما لم تتكلما في الانتخاب، فالموضوع تابو[1] للرئيس، والدعوة إلى العشاء تعني التصريح بالصوت.

ـ إنها الحقيقة، لم يتكلم في الانتخاب والصوت، تتبّعت بحذر توجيهاتك. روى أنه كان موظفاً مولجاً بتوصيل الأوراق في الجريدة، قبل أن يغدو المالك. بعد ذلك دسّت امرأته نفسها الثناء، تصوّر على مَنْ! هذا الكلب الإنكليزي البغيض الذي يُسمى تشرشل.

ابتسم، راضياً من نفسه.

ـ عندها أعطيتها درساً حول الحرب...

ـ تناقشتما حول الحرب؟ ـ ارتعب ليزاندرو: ـ كنا قد قررنا تجنّب المواضيع السياسية.

ـ لا تخف. كل شيء جرى حسناً، إنها خرست، فلم تجب. وخذ في حسابك أنني لم أكن الذي جرّ الموضوع. من اللازم تهذيب هؤلاء الناس، أيها العزيز ليزاندرو.

ابتلع القاضي الاعتراضات والانتقادات، فالأمر السيء قد تمَّ، والخطأ المقترف لا تفيد مناقشته. تشرشل، ديغول، المقاومون في فرنسا، الشعب الإنكليزي الصبور، مواطنو لندن الرابطو الجأش، كل هؤلاء الناس يقارعون لمصلحة اللواء، يهدد العقيد. حتى على هذا الشكل، ففي الحساب النهائي للمحادثة، تنبأ ليزاندرو بفوز سامبايو بيريرا بثمانية وعشرين صوتاً مقابل أحد عشر. سيعطيه إذا استطاع هامشاً أكثر اتساعاً، لكي يشكر الدعوة المنتظرة بكل حرص؛ في الحقيقة كان قد ضاع الخطاب. قطعة تبعث الحيوية، عملٌ فذٌ في المراهنة.

ـ لتكن سبعة وعشرين مقابل اثنيْ عشر، إن ما اهتم له هو أن أحظى بأكثر من ضعف التصويت لخط ماجينو. بدون ذلك، سأشعر بأني مهزوم.

---

(١) TABU: الشيء الذي يحظر لمسه أو المساس به.

امتياز

في يوم الأحد، يوم الراحة، كان ليزاندرو ينقش خطاب الاستقبال، حين دُعي إلى الهاتف، من قبل سامبايو بيريرا. من رنّة الصوت، حسب أن العقيد كان على علم بنبأ مزعج. وهكذا كان:

ـ علمت توّاً أن الرئيس دعا موريرا إلى العشاء. ماذا تعني هذه المهزلة؟ إنه أمرٌ لا يُحْتَمَل!

ـ تشرشل، أيها الصديق العزيز...

ـ ماذا؟ ماذا تريد القول بهذا؟ كانت امرأته مَنْ بدأ... اعتبر تصرّف كارمو غير مُحْتَمَل حقاً. إنه لأمر فاضح، مثير للسخرية. إنها نذالة.

مع نذالة الرئيس، إلى الضفدع النقّاق المجتاز الحلق، أضاف العقيد سامبايو بيريرا، أفعى الكوبرا السامّة تخنق صدره، أفعى الكاسكافيل[1] ذات الوخزة المميتة.

ـ أركن إلى الهدوء، لا تنفعل، هيّا نتحادث. حتى لو خذلنا، لدينا سبعة وعشرون مقابل اثنيْ عشر، ثلاثة أكثر من الضعف، من دون حساب أن صوت بيرسيو يساوي خمسة.

لقد عرف ليزاندرو، قبل عشية أمس، بالدعوة الغريبة التي وجهها الرئيس إلى اللواء واستنتج أن النقاش حول الحرب حمله على تبديل الصوت. العزيز آغنالدو لم يقتنع بأن المرشح إلى الأكاديمية لا يستطيع أن يكون له رأي خاص به، وأكثر من ذلك

---

(١) CASCAVEL: نوع من الأفاعي صغيرة الحجم لكنها شديدة السم سريعة الحركة.

ان يتظاهر به إنه مخوّل بالاصغاء، وإذا لم يستطع التأييد والتصفيق، ينبغي له أن يبقى أبكم، مبتسماً لا يناقش أبداً، لا يردّ، فصاحب الصوت، الأكاديمي دائماً على حق.
هذه هي ميزة الخالدين.

مسيرة جنائزية

مفاجأة، الفتاة الرصينة والمتأهّبة ـ خادم؟ سكرتيرة؟ قريبة؟ ـ تأخر لحظة في الانتباه لتحرّك أفراد جهاز الأمن الذين وثبوا من السيارات واحتلّوا المساحة الأرضية أمام البيت. بحركة، تدعو العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، البزة ملأى بالأوسمة والميداليات، ليتبعها عبر الممر الفسيح في شبه عتمة.

تأخذه إلى المكتبة، ممتلئة بالكتب، الرفوف تغطّي الجدران، تعلو حتى السقف. الكتب تفيض في كل الأرجاء؛ مكوَّمة على الأرض، فوق المقاعد، مفتوحة على طاولة العمل الثقيلة. في المساحات الفارغة، بين النوافذ (من خلالها تُرى ساحة بوتيكاريو) ثلاث لوحات كبيرة وفوق صخرة أيقونة عتيقة دهريّة لسيدتنا مُدرّة الحليب[1]، الثدي البادي يرضع منه الطفل[2]. في إحدى زوايا الرفوف، القائمة الخشبية لرسام وعليها لوحة حديثة، صورة بيرسيو مينيزيس موقّعة من فلافيو ده كارفاليو، في ألوان ساخنة وضربات ريشة عنيفة، الرأس متمرّد واللحية مرسَلَة متشابكة، مختلطاً مع الشمس والنجوم، العينان من نار، جوبيتر[3] يحرّك الشعاع، بركان يشكل الجحيم. فوق الطاولة، زهور مفرحة في أصيص من البلّور.

العقيد يشعر أنه قلقٌ، مجتاحٌ من إحساس غير متوقَّع ومزعج من التفاهة. يسعى إلى ردة فعل على الإحساس غير المريح، مركزاً على أنغام البيانو الآتية من القاعة

---

(١) إحدى صفات السيدة مريم العذراء.
(٢) المقصود بالطفل هو يسوع المسيح.
(٣) أحد الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية.

المجاورة. إنه يعرف هذا اللحن، أين سمعه؟ مع أبناء دينه ورفاقه في سانتا كاتارينا، في احتفالات التآخي، سمع جوقات[1] موسيقى ألمانية، عرف بإعجاب الفوهرر بريتشارد فاغنر. مَنْ يدري، ربما أُلّفت من قبل فاغنر هذه النوطات العسكرية، المعلنة للنصر النهائي.

ـ خذ مقعداً. البروفسور لن يتأخر.

ـ هذه الموسيقى؟ إنها لفاغنر، أليس كذلك؟

تبدو الفتاة مستغربة السؤال، فتتأخر في الإجابة، النظرة مثبّتة في الأوسمة البرّاقة، يا له من أمر!

ـ فاغنر؟ كلا. إنها السيمفونية الثالثة لبيتهوفن، الـ HEROICA[2]. معروفة جداً.

تضيف، وهي تريد ربما استباق أسئلة جديدة:

ـ إنها الدونا أنطونييتا التي تعزف، الاستماع إليها ميزة. عن إذنك...

خادمة، قريبة، سكرتيرة؟ سليطة. نبرة المدرّسة في مَنْ تعلّم الـ«بيه ـ آ ـ با» لشخص أمّي. تطلق نظرة أخيرة إلى الأوسمة وتخرّج، تاركة إيّاه وحيداً وأيضاً أصغر شأناً: موسيقى معروفة جداً، ميزة الاستماع إلى السيدة الجليلة أنطونييتا نوفايس مينيزيس. مبتعدة عن الأوركسترات والمسارح منذ سنين كثيرة. زُوّد بالمعلومات من قبل ليزاندرو المحتاط للأمر، وعلم أنها كانت في أوقات منصرمة قد بويعت عازفة كونسرتو.

في الحقيقة، لا يوجد سبب حقيقي ليشعر أنه معقّد كهذا في شبه عتمة الوسط غير المألوف حيث يكشف كل متاع معرفة وذوقاً، عظمة بلا مباهاة، صرامة بلا حزن. بالتأكيد، من وجهة نظره، السيدة الجليلة، في تصرّف من الرعاية الـوديّة، تجلس إلى البيانو، مانحة إياه ذلك الامتياز. قدم ليتسلّم صوتاً مضموناً عملياً؛ الحكيم أفهم القاضي أنه كان يرغب تسليمه إيّاه باليد. في دفع للمقابل، من أجل الاحتفاء بالعالم

(١) جمع جوقة: CONCERTO.
(٢) البطولية.

الشهير، شدّ العقيد أشرعة البزة الأولى المغطّاة بالأوسمة والميداليات. فصوت بيرسيو مينيزيس يساوي خمسة. لكنَّ ارتداء ملابس الاحتفال والأوسمة لم تتآلف مع وسط المكتبة، اللوحات، القديسة ذات العبادة المتوفاة. ربما، لو كان قد تتبع نصيحة ليزاندرو - إذهب مرتدياً لباساً بلدياً، هو أفضل - كان سيشعر أنه على سجيّته أكثر، وأقل طغياناً وفقداناً للإتزان.

قد يكون بيتهوفن معروفاً جداً لكنْ فاغنر هو الذي يحبه الفوهرر، يجب أن تكون له أسباب للتفضيل إذ لا يُخدع أبداً، معصوم الرأي حول الحرب أو حول الفن. أليست الحرب هي الفن السامي، الأكثر جمالاً؟ خمدت أصوات البيانو، العقيد يتفحّص الصورة على الركيزة الخشبية باستنكار، فنٌ منحطٌ يبعد النظر، بلا طائل، يواصل رؤية تينك الحدقتين الناريتين اللتين تتفحّصانه، غير المحتملتين.

يعود البيانو ثانية، تغيّر الإيقاع، محط النغم مسيرة[1] جنائزية. وإذ هرب من الصورة، مطارداً من الموسيقى القوية، رفع العقيد سامبايو بيريرا النظر وقدّمه للموت المؤطر في الباب، يحدّق فيه، الحدقتان الناريتان ذاتهما. ارتعد.

خطوات متأنّية، الرؤية المرعبة تتقدّم ببطء شديد حيث أنه لينتظره توقف الزمن. عملاقٌ مشوّه، قبل المرض، كان رياضياً قوياً؟ الآن، هيكل عظمي مغطّى بجلد رث؛ اللحية المرسلة والشعر المتمرّد باتا قليليْ الشعر. الأصابع الطويلة هي مجرّد عظام. الملابس الفضفاضة تبرز تدمير الجسم. وجهٌ هزيل، لون الشمع، وجنة متوفى.

يتقدّم بيرسيو مينيزيس خطوة خطوة، العقيد المذعور ينهض عن الأريكة واقفاً، الميداليات تتحرّك في صدر الحلّة. بعيدة إنما مسموعة، أصوات موسيقى المسيرة الجنائزية.

أمر الصوت الأبح الذي يبدو منبعثاً من القبر.

- إجلس.

---

(١) MARCH.

لم يبسط يده، مخلب وحش. رغب في أن يجنّب الزائر الاحتكاك المزعج للأصابع العارية من اللحم، يفكر سامبايو بيريرا، شاكراً. يحتل، أمام أريكة العقيد، مقعداً من الجلد ظهره وذراعاه من الجاكـارندا[1]. أذِنَ، بحركة سريعة، للمرشح المذعور بالتكلم. والعقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، المرشح لعضوية الأكاديمية البرازيلية للآداب، مجهداً نفسه ليتغلّب على فقدان الأمان، يبدأ الخطبة ذات النص الروتيني النامي بالتمجيد للخالد المقترب من الموت والذي منه يرتبك.

البروفسور في الميكانيكية السماوية يصغي في صمت، العينان المضيئتان شبه مغمضتين. النغمات تذهب وتجيء، ترتفع وتهبط، تربك عرض طالب العضوية. لماذا لم تنتق عازفة البيانو موسيقى لفاغنـر إذا فكرت في الواقع أن تمنحه امتيازاً؟ العقيد المتردد، يصل إلى نهاية التوسّل؛ ينتظر أن يستحق شرف الصوت الشهير للأكاديمي المجيد، يثق في أن لا يكون قد التزم بعد.

ـ إن صوتي مقررٌ، منذ وقت،

الصوت خفيض ومتباطىء، كل كلمة تكلف جهداً:

ـ منذ الآن أعلمك بأني لن اقترع لخصمك، اللواء الذي كان ههنا منذ أيام. ليس لديّ شيء ضده، شخصياً، لكنَّ الأدب الذي يقترفه هو من الصنف الأخير. لهذا لن أصوّت له.

من دون أن يرفع صوته، حدد:

ـ بقي وقت قصير جداً من الحياة لكنْ قبل أن أموت كنت أرغب في رؤيتك إذ أعلم كل شيء يشار إلى السيد، الغقيد آغنالدو سامبايو بيريرا.

للمرة الأولى منذ أن اجتاز عتبات باب البيت في كوزمي فيليو، تنفس العقيد الصعداء.

لقد أزفت اللحظة المهيبة والمجيدة للتصريح بالصوت؛ الرسالة المحررة مع الاسبقية ينبغي أن تكون على الطاولة، مضروبة على الآلة الكاتبة من قبل السكرتيرة.

---

(١) JACARANDA : شجرة تنبت في البرازيل.

ينتظر، أعصابه مشدودة، محاولاً عدم الإصغاء لأنغام البيانو، امتيازٌ ملعون.

يرفع بيرسيو مينيزيس اليد الهزيلة، يشير بإصبعه إلى صدر آغنالدو، الدافىء بالميداليات:

ـ أين هو الصليب الحديدي؟

ـ لا يترك وقتاً للإجابة، الأصبع يرتفع إلى مستوى وجه العقيد المنذهل:

ـ الوحيد الذي ينبغي للسيد أن يستعمله، فوق القلب. في حلّة الغستابو، وليس في رداء برازيلي.

العقيد الحائر، يتلعثم:

ـ ماذا تريد القول؟

بيرسيو مينيزيس يتكىء على ذراعيْ المقعد، ومعه ينهض الموت:

ـ كيف تجرؤ على انتظار صوتي؟ أنت أيها السيد النازي! المضاد للثقافة، المناهض للبرازيلي.

أنغام موسيقى المسيرة الجنائزية، الصوت الصادر من القبر، المنتزع من الأحشاء المريضة، وقفات طويلة بين الجمل، تقززٌ مميتٌ في كل كلمة:

ـ جميعنا لدينا جانبان، واحد طيّب، وواحد رديء. أسوأ من روبوت، أنت أيها السيد رجلٌ من النصف، معذّب السجناء. أنت أيها السيد هل لديك على سبيل المثال زوجة وأبناء، شخص تحبه؟ لا أعتقد. شخصٌ ما يحبك؟ لا أحد. الذين يخدمونك يفعلون ذلك بدافع الخوف أو المنفعة. ذات يوم هل أحببت أيها السيد، هل أحسست بعاطفة إزاء امرأة، ابتسمت لطفل، كان لديك لحظة حنان؟ أم دائماً كنت هكذا، شخصاً شقيّاً؟ أنت أيها السيد عفنٌ وتنبعث منك رايحة كريهة. صوتي! كيف استطعت التخيّل بأني أقترع للغستابو؟

الصوت حتى ذلك الحين متمهل وخفيض، ويرتفع مخيفاً:

ـ أخرج من هنا، قبل أن أصفعك!

يرفع اليد، الأصابع الهزيلة منتصبة في اتجاه وجه المرشح المشوّه. العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا يتراجع إلى الخلف، تتزايد شديدة الارتفاع أنغام موسيقى المسيرة الجنائزية. الموت يتقدّم إلى العقيد الذي يخرج مندفعاً من الممر إلى الخارج، يعبر الباب المفضي إلى الشارع، الذي فتحته السكرتيرة، ويقع بين أذرع قرود الغوريلا من أمنه، يتهالك على مقعد السيارة، يغطّي الوجه بيديه.

الملازم الثاني

عند استيقاظها ونزولها من السرير، دُهشت الدونا إيرمينيا لرؤية الزوج لا يزال راقداً، في سبات عميق. في هذه الساعة، يكون قد قام بالتمارين ليحافظ على اللياقة البدنية، آخذاً حماماً رشراشاً[1] بالماء البارد، ثم مرتدياً الرداء العسكري، جارعاً القهوة، ينبغي أن يكون في الوزارة، لم يتأخر أبداً. مستثنياً مناسبات غير اعتيادية، فقط عند التأخر في الليل، أحياناً في الفجر، تلقي الدونا إيرمينيا عينيها على سامبايو. العقيد كان يقول ويكرر بتأكيد اسبارطي[2]، أنه لا يخصّها - وقته، انتباهاته، حياته تخصّ القضية - وإيرمينيا قد اعتادت على ذلك.

سبات الزوج يبدو لها أكثر اطمئناناً من اللازم. تقترب منه، تلمس وجهه بأصابعها. كان ميتاً.

مندسّاً في المنامة، العينان مستديرتان وساذجتان شبه مفتحتين، لا يشبه بطلاً ساقطاً في ميدان المعركة، الشخصية الدمية رمز الشر والظلامية[3]، SS[4]: نازي، رئيس الغستابو المتسلّح بالسوط. مجرّد رجل مسكين ميت، ممدد على السرير، مثل كثيرين غيره.

تتذكّر أحداً ما. الدونا إيرمينيا تستجلب وجهاً من الماضي - يشبه الملازم الثاني

---

(١) DUCHA: في العامية «دوش» المقتبسة عن الأجنبية.

(٢) نسبة إلى اسبارطة المدينة اليونانية القديمة ذات التقاليد العسكرية الصارمة.

(٣) OBSCURANTISMO: مبدأ التعصب ضد تثقيف الشعب.

(٤) رمز لفرقة الصاعقة الألمانية في زمن الحكم النازي.

الشاب الهيّاب والعاشق الذي عرفته منذ وقت طويل، في زمن آخر؛ كان ينشد أبيات شعر متوسّلاً قبلة. الدونا إيرمينيا تتذكر على حين بغتة، وتشرع في البكاء بصوت خفيض.

القسم الثالث

حرب عصابات في اسبلانادا دو كاستيلو

ندفنه بعظمة وعجلة، وهكذا نغدو متحررين منه قبل أي شيء وإلى الأبد، نصح مدير شعبة الصحافة والدعاية، التي تمّت الإشارة إلى الرياء السياسي فيها سابقاً. انتهى تجنّب البيان الرسمي من رئاسة الحكومة معلناً موت العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا، الذي صيغ فيه تقريظ لـ«جندي الوطن الشجاع، حامل صفحة خارقة في الخدمة، حيث أن تكريسه للنظام شكّل عاملاً أساسياً في ضمانة النظام وفي سحق التهديد الشيوعي».

شاء المحرر أن يعرف، من أجل مفاعيل نشرة الأخبار لتغدو موزّعة من قبل الوكالة الوطنية:

ـ الرجل هل يرافق الدفن؟ أم يظهر في ليلة السهر على الميت فقط؟

ـ مَنْ؟ الرئيس؟ إنك لمجنون؛ لا الدفن ولا السهر على الميت. كان يقرّ بفائدة غوبلزنا[1] المتوفى لكنه كان يكنّ له بغضاً. قال لي ذات مرة: «بيريرا هذا تفوح منه رائحة كريهة من العصور الوسطى».

إزاء المناجاة، تملّق المحرر:

ـ في اليوم الذي تستطيع فيه أيها السيد كتابة مذكراتك، يا له من كتاب، هيه، يا دكتور[2]؟

(١) النسبة إلى غوبلز وزير الدعاوة النازي.
(٢) لقب يطلق على موظفي الدولة والمحامين ولو لم يكونوا حائزين هذه الدرجة العلمية.

ـ لو كانت عندي ذاكرة، لما شغلت هذا المنصب، يا بني. فأنا أصم أبكم وفاقد الذاكرة. إنما لست عاجزاً. أيضاً.

جد سافل، لماذا أراه لطيفاً؟ تساءل المحرر، مجازفاً بالتعليق المسموع في قاعات التحرير، أعشاش المحرّضين:

ـ مكروه كما كان هو، فإن العقيد مُنح حظاً. مات على سريره موتاً طبيعياً. لأنه لو وُجدت يوماً حركة مضادة، وهو على قيد الحياة لما أُنقذ من الحشد...

ـ في السرير، أجل. موت طبيعي مَنْ قال لك؟ مات مسموماً، شيئاً فشيئاً. شوكران[1] سامٌ، لتكون المسألة مع الوسط. اكتشاف مؤثر، آتٍ ممَنْ يعلم، آه! يا له من أمر مؤثر حين ينشره الصحافي بين الزملاء! هكذا يقال في مصادر الدولة الجديدة، في الصراع على السلطة، تحدث أمور مخيفة:

ـ مسموماً؟ بالشوكران؟ كيف؟ ممّنْ؟

ـ من العجائز الصغار في الأكاديمية. جرعة جرعة، مزيدة كل يوم. الكأس الأخيرة كانت بيرسيو مينيزيس الذي قدّمها له ليشرب.

نظرة المدير شبه الحولاء ضاعت في الحديقة فوق منظر الإسمنت المسلّح.

ـ إنه رجل عظيم، بيرسيو مينيزيس هذا. إنه شخص عبقري. هل تعلم أنه في برنستون[2] اكتشف وحدد مكان نجمين كانا حتى آنئذٍ مجهولين؟ قطن السماء...
ـ ابتسم: ـ والجحيم أيضاً.

---

(١) CICUTA: نوع من النبات السام.
(٢) جامعة في الولايات المتحدة.

مرشح وحيد

فور وفاة انطونيو برونو، عاهد ليزاندرو لايتي العقيد القادر سامبايو بيريرا على تقديم امتيازات الترشيح الوحيد. ومع موت العقيد، المدفون مع القرقعة الصاخبة، للدبابات، الجنود، عزف الأبواق، خطب وتحية الطلقات النارية، كل هذا بعد ثمانية أيام من إغلاق التسجيل، مَنْ وجد نفسه بغتة مرشحاً وحيداً كان هو غير المعتبر والمحظوظ اللواء فالدوميرو موريرا.

علم بوفاة الخصم (والعدو) من خلال مخابرة هاتفية من الوفي سابينسا، من هيئة تحرير «ذياريو دا تاردي»[1]، حيث كان يقضي خمس ساعات يومياً مصححاً برتغالية المواد المكتوبة بلغة رديئة من قبل زمرة الأميين في قسم التحقيقات والأخبار.

ـ البشرى يا لوائي! أريد أن أكون أول من يهنىء الخالد الجديد.

أوّاه، قلبُ اللواء موريرا، آلة متعبة! يقذف بسهولة، يحتاج إلى سيطرة دائمة، يجب تجنّب الانفعالات. من المستحيل أن يفعله في مثل هذه الحالات، في خضم المعركة الانتخابية. ماذا حدث؟ آفرانيو بورتيلا كان قد تقبّل فرضية السافل بيريرا بسحب نفسه من الترشيح.

ـ هل انسحب هو؟

هو وليس غوبلز بيريرا أو أية كنية محقّرة؛ فاللواء ذو هاتف تحت المراقبة منذ أن سجّل نفسه للمنافسة على المركز الشاغر بوفاة برونو: صديق أنذره، موصياً إياه بأخذ الحيطة في المخابرات الهاتفية، له وللطائشة سيسيليا.

(١) DIARO DA TARDE: جريدة المساء اليومية.

ـ دقّت ساعته، مات

ـ هيه؟ متى؟

خفقان القلب المتسارع، يتزايد. أين وضعتاه[1] كونسييسون وسيسيليا؟ يحتاج إلى إحداهما لتجلب له الدواء والماء.

ـ أصبح وقد مات. موكب الدفن يخرج عند الخامسة، سيكون مشهداً، مع خطاب الوزير، عرض الدبابات وتحيّة بطلقات نارية، الآن وقد أُغلقت التسجيلات، بلا متنافسين، فالصديق النبيل منتخب بالأسبقية.

لحسن الحظ، ظهرت الدونا كونسييسون في القاعة، خرجت راكضة لتجلب الدواء. عند علمه بأنه صار منتخباً، أُنقذ اللواء من الصدمة بفترة قصيرة.

خارج نطاق الخطر، يتكيء بظهره على الأريكة، وهو منبسط، أبلغ الزوجة والابنة ـ ظهرت سيسيليا بوجه مطلي بالكريم، في بدء عملية التزيين التي تستغرق وقتاً طويلاً، كان يوم اللقاء مع رودريغو ـ بالنبأ ذي الفأل الحسن:

أمامكما هو اللواء فالدوميرو موريرا عضو الأكاديمية البرازيلية للآداب، شخصٌ خالدٌ!

لاحقاً، تحسرت الدونا كونسييسون: لماذا لا يموت في الساعة المعيّنة؟

---

(١) المقصود: العقار، الدواء.

المحاربة

عند معرفتها بموت العقيد من خلال «جريدة الغداء»، من راديو كاريوكا، اتصلت ماريا مانويلا بآفرانيو بورتيلا طالبة رؤيته إذا أمكن في ذلك اليوم ذاته. بعد موت برونو كانا قد أجريا أحاديث هاتفية مستفيضة كان الروائي قد وضعها فيها على علم بمجريات المعركة. التمست اللقاء، شرهة للتفاصيل حول النبأ وشديدة الرغبة لإبلاغه شخصياً رحيلها المقبل عن البرازيل، وكانت قد أعدّت حقائبها.

بارٌ رصينٌ، في الطبقة الأخيرة من بناية عالية في فلامينغو، ذو إطلالة على الجون، قريب من بيت الروائي، مزدحمٌ ليلاً، حين كان يعرض منوّعات جذّابة رفيعة المستوى ـ سيلفيو كالداس، ديرسينيا وليندا باتيستا، دوريفال كاييمي، المكسيكية إلفيرا ريوس، لامارتين بابو، الشقيقات الحاميات باغان ـ في نهايات المساء روّاد الـ«بريفيه» كانوا يتناقصون؛ زوجان أو آخران متيّمان وغير شرعيين، مع الوشوشات. وهما جالسان إلى جانب الحاجز، الروائي والبرتغالية يتأملان موكب الدفن الذي يبدأ الظهور في شارع روسيل، تتقدّمه جوقة فيلق، إيقاع مقطوعات موسيقية جنائزية فوق عربة عسكرية، التابوت مغطّى بالعلم البرازيلي. جنود راجلون وفرسان، فرقة من الشرطة الخاصة في آليات المانية جديدة، سيارات قوية ودرّاجات نارية سريعة جداً؛ السيارات الكبيرة السوداء مع شخصيات رسمية. دباباتان حربيتان تختتمان الموكب. العقيد سامبايو بيريرا يتسنّم مجدداً مركز القيادة. تنظر ماريا مانويلا مفتتنة. تطلب إيضاحات:

ـ موت مفاجىء، ألم يكن هو؟ ما هو السبب؟

ـ إني أقول: موت غير متوقع. السبب؟ أي سبب آخر بالوسع أن يكون غير

المعركة التي كنا نقوم بها؟ أعترف بأني ما كنت أتوقعه، فالهدف المنظور كان آخر. لكنْ لنكن عادلين، العقيد مات في المعركة.

ـ إصنع معروفاً، يا صديقي. أبدل هذه الأحاجي بأشياء صغيرة. مات في المعركة، كيف؟ المعلّم لم يكن ينتظر موته لكنه كان ينتظر أمراً آخر، ما هو؟

ـ التنحّي.

سحب عينيه عن موكب الدفن، كان يفضّل رؤية الجمال الحزين لعشيقة برونو الأخيرة:

ـ سامبايو بيريرا لم يكن أكثر من أبله، مليئاً بالزهو، يعتقد أنه كلّي القدرة، مقتنعاً بأن لا أحد لديه الجرأة ليناهض رغباته. كانت الاستراتيجية حمله على الاستقالة، الانسحاب من الترشيح، التكتيك الممارَس كان في إفراغه، من خلال سلسلة متزايدة من الإحباطات والإخفاقات. في كل صدمة يتلقاها، يغدو مثاراً، مستنزفاً، تالفاً من داخل. ظنَّ أنه سيغدو مرشحاً وحيداً، كان لديه منافسٌ. حلم بانتخاب إجماعي، والحلم أُجهض. بعدها، بدأ يخسر أصواتاً معتبرة أكيدة، يشعر برفض ترشيحه. فيغيريدو ألحق به الإهانة، إيفاندرو لم يتكلم معه. وهو فاقد الوعي، مهاناً، رأى نفسه ضائعاً.

ـ هل كان مهزوماً؟

الموكب يتابع طريقه بطيئاً ومهيباً، يقود «البطل عند خندق الخلود»! (كما قال الوزير في خطابه الضليع عند حافة الضريح)، المرور متوقف ليتيح له العبور؛ جماعات من الفضوليين على الأرصفة.

ـ ليس أيضاً، كان الأمر بعيداً عن هذا. لا أدري إذا كنا سنهزمه في حال وصولنا إلى الانتخاب. أشك. الدافع في أن الحملة كلها كانت مخططة ليشعر أنه محبط المعنويات، مطرود ويخشى الهزيمة، ليتخلّى هو عن الاقتراع. واقعة مأدب العشاء للرئيس، عملٌ فذّ[1]، ترك سامبايو بيريرا في ذعر. نحن جعلناه يبتلع ضفادع وأفاعي لكي يتقيّأ الترشيح. غصّ، فمات من الاختناق.

---

(١) OBRA - PRIMA : العمل الأدبي الرائع للمؤلف.

أنغام الجوقة تذوب في الهواء، موكب الدفن يبلغ جادة ليغاسون، ويبدأ في الاختفاء.

- إقناع بيرسيو لاستقباله كلّف جهداً، مثل ذلك النفور الذي كان يحسّه إزاء العقيد. إنه فعل ذلك حباً ببرونو، وحباً ببرونو جلست أنطونييتا إلى البيانو ونفذت موسيقى المسيرة الجنائزية من هيرويكا[1]. تكلمت مع بيرسيو البارحة، بالهاتف، وقال لي إنه كان يخشى من كونه قد شطَّ في الأمر. عندما طلب منه الشخص الصوت، بيرسيو بات خارج نفسه وهدده بالصفع. فخرج سامبايو بيريرا راكضاً. جرعة مميتة، كما يُرى. وهذا الذي لم يبلغ به الأمر حد زيارتي. . . على كل حال، يا ابنتي الجميلة، ذكرى عزيزنا برونو قد سلمت، وفيت بوعدي؛ فعلنا المستحيل. وهو أمر يستحق العناء.

أخذت ماريا مانويلا يد المعلّم آفرانيو وقبلتها:

- كنت أحب أن أقبّل أيضاً يد البروفسور بيرسيو. وصحته؟ ألا يوجد أمل؟

- ولا أيّ أمل، لسوء الحظ. أخشى أن يكون هذا إسهامه الأخير في الثقافة البرازيلية.

- الآن، أجل، أستطيع السفر مرتاحة. إن آفونسو، زوجي، قد رُفّع إلى سفير وعيّن في فينزويلا، سنمضي رأساً من هنا، وهو تدبيرٌ من أبي من أجل أن أتجنّب ركوب أخطار السفر في البحار إلى ليشبونة[2]. في الشهر القادم ينبغي لنا أن نغادر، سنذهب إلى ماناوس[3].

في صمت، تأمّلا المنظر الباعث على الانبهار؛ بحر غوانابارا[4]، الجزر، الجبال، الشواطىء صفوف البيوت في نيتيروي[5]، بعيدة.

---

(١) سنفونية، العنوان يعني «البطولية» (ورد ذكرها سابقاً).

(٢) عاصمة البرتغال.

(٣) عاصمة ولاية أمازونيا في البرازيل.

(٤) خليج الريو.

(٥) إحدى ضواحي الريو.

ـ هل تعلم أين عرفت أنطونيو؟ في نيتيروي . . . أمرٌ جنوني جداً . . . إذا كان لديك وقت للإصغاء، أخبرك.

ـ اليوم هو أول يوم لي من الراحة منذ أن مات برونو وأنتِ أيتها البنت بحثتِ عني في ساعة العشاء. الآن، لديّ كل وقتي حرّاً وأعبد سماع قصص خرافية.

ابتسامة شبه مستهترة قطعت حزن وجه ماريا مانويلا:

ـ لديك الحق، كانت قصة ذات أحداث خارقة على الطريقة العصرية، مع سياسة وزوجة غير وفيّة، حكاية عبثية.

أتت بوضعية قبل أن تسأل:

ـ تعلم بأني محاربة خطرة مضادة لسالازار[1]، ألست كذلك؟

ـ برونو أراني قصيدة أشار فيها إلى إحدى الآلهة من الأولمب[2]، حاملة المنجل والقدوم. قصيدة لذيذة.

ـ «الآلهة والمعتوه»، إحدى أوائل القصائد التي كتبها لي. حسناً؛ كان لديّ موعد محدد في نيتـروي مع رفيق منفي، كان عليه أن يسلّمني وثائق لتُرْسَل إلى البرتغال. في وضعي، أهيّء السبل . . .

إبنة وزير لسالازار، كنّة مصرفي في البلد، زوجة مستشار سفارة البرتغال، وجدت نفسها في وضع مميَّز لمقارعة الفاشية، داخل كهف العدو، مصغية إلى معلومات سرية، عارفة عملاء الـPIDE[3] في نشاط البرازيل، قادرة على استخدام الحقيبة الدبلوماسية لمراسلاتها الشخصية. آفرانيو بورتيلا يتطلّع ذاهلاً إلى المرأة الجالسة أمامه؟ رشاقة، رقّة وأناقة، مؤلّهة من قبل أخبار المجتمع، ملكة في صالونات مجتمع الريو والجسم الدبلوماسي ـ مَنْ كان يتخيّل دورات الانقلابيين، يتحركون في السرّ، يمارسون أنشطة غير شرعيـة؟ هذا هـو، هنا موضوع لـرواية، جد محرّض بقدر ما

---

(١) ديكتاتور البرتغال في زمن الحرب العالمية الثانية وبعدها.
(٢) جبل الآلهة في اليونان القديمة.
(٣) الأسماء الأولى لجهاز الشرطة السياسية.

يشعر هو أنه يحاول العودة إلى القص.

ـ المكان كان باراً[١]، في ساكو سان فرانسيسكو. وصلت أولاً حسب ما اتفقنا، اتجهت إلى منصّة التبغ، اشتريت سجائر، قدم الرفيق مذعوراً، شبه راكض. سلّمني المغلّف وقال لي إنه كان متبوعاً لا تَدّعي الـPIDE تراكِ، أمرني واستشفّ خارج الباب. وضعت المغلّف في الحقيبة، كيف أفعل لكي أتجنّب رؤية الشرطي لي؟ هل فكرت إذا كان يعرفني؟

المعلّم بورتيلا، تذوّق المشروب، يا له من مشهد لرواية!

ـ وعندها؟

ـ رأيت أنطونيو جالساً إلى إحدى الموائد يتناول الخمرة، بالتأكيد في انتظار إحدى النسوة. كنت أعرفه من الصورة والقراءة، كنت أعبد أشعاره منذ الوقت الذي كنت فيه طالبة. لم أتردد، احتللت مقعداً إلى جانبه، وبلا إيضاحات كثيرة، قلت له إنه لم يكن بوسعي أن أكون مرئية ولا معروفة من قبل شخص سيمرّ من أمام الأبواب ويستقصي ما في الداخل. لم يأت بأسئلة. الـPIDE يستطيع الارتياب بأيّ شخص، ما عداي، حيث أن وجهي ليس بالوسع أن يُلْمَح، مغطى كما كان بوجه أنطونيو، وفمانا متحدان في أكبر القبلات في العالم... تركني أذهب بعد ذلك، بسيارة أجرة[٢]، من دون أن يسأل مَنْ كنت أنا...

رأى آفرانيو بورتيلا نفسه يشيّد الرواية؛ مَنْ يدري، سيأخذ آلة الكتابة، رزم الورق البيضاء، ويضع جانباً الصفحات حول الشعراء العديمي الولاء للحكم، يحاول إعادة خلق تلك المكائد السياسية، الوسط في سفارة سالازار، مصاعب المنفيين، الغرام الأخير للشاعر، لغز ماريا مانويلا؟

ـ في اليوم التالي، تلقيت كتاباً مع إهداء شكلي إلى أقصى الحدود، مصحوباً بأجمل زهور الأوركيديا التي رأيتها. الاتصال الهاتفي جاء بعد وقت.. كان أنطونيو مَنْ

---

(١) BAR : في البرازيل مقهى وحانوت لبيع المواد الغذائية.

(٢) TAXI.

كشف لي الحب قبلاً كنت فقط مُحارِبة، وهو أكملني، جعلني امرأة.

تحيّة الطلقات النارية، بعيداً في المدى. تسقط الحبة الأولى من التراب فوق جثة العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا.

السيدة المتشحة بالسواد

١

قاومت في البدء. لا في التقدير للـزوج أو احترام القران. ولا أية عاطفة كانت تربطها بالزوج، الكسول التافه والطائش، الشره في التمييزات والأمور المشرّفة، مَنْ تتضمن أكبر تطلعاته في لقب باباوي للنبل يحصل عليه حالما يرث حصته من الثروة الطائلة من الأب، المبنيّة في المستعمرات بعرق الزنوج، المضاعفة في العاصمة[1] بفضل الحكومة. كثير من طموح الارستقراطية حمل آفونسو كاسيتيل إلى الوظيفة الدبلوماسية، نشاط نبيل، تاركاً إلى الأشقاء مسؤولية الإدارة المتشعّبة للمصارف، الشركات الزراعية والصناعية؛ والزواج من ماريا مانويلا كوفو سيلفاريس ديسا، إنتاج فاخر لعائلة قديمة وتنتمي إلى الأسرة الملكية، مع الدرع والشارة: «في يديْ الملك علّقت حياتي وشرفي». آه! لو استطاع آفونسو تبنّي الأسماء اللامعة لأسرة الزوجة بدلاً من إضافة إسمه كاسيتيل إليها، اسم العائلة مع رائحة محسوسة للمعزل[2]. وشائج حميمة من الصداقة والمداخيل المالية كانت تربط المثري سالومـون[3] كاسيتيل بالوزير النافذ سيلفاريس، في الأعمال الخارجية؛ كانا كلاهما يتمتعان بثقة وتقدير صعب المنال من الديكتاتور. بالنسبة إلى السرّ المقدّس[4]

(١) METROPOLE : العاصمة المركزية للمستعمرات، أي ليشبونة.
(٢) GUETO : الحي اليهودي في مدن أوروبا.
(٣) سليمان في العربية، اسم عبراني.
(٤) SACRAMENTO : أسرار الكنيسة.

للزواج، ما كانت ماريا مانويلا تعتبره خليقاً بأقل احترام، وزواجها ليس أكثر من مهمة ثقيلة في كلّيتها. قاومت بسبب الخلقية البروليتارية، أسباب إيديولوجية.

أنطونيو برونو تحقق من شخصيتها في البار، في نيتيروي. أدرك أن الرعب من أن تكون معروفة والحاجة في إخفاء الوجه اللذين قذفاها إلى ذراعيه لم يكن لهما أي شيء مشترك مع مكائد المخدع. دسيسة سياسية، مَنْ يدري، تجسس؟ رآها عندما مرر الشخص إليها المغلّف؛ لصق منصّة بيع السجائر. جمال المرأة والغموض المحيطان بها تركاه مختلط العقل، في جنون العشق. ما كان ليستطيع العيش إذا لم يغزها. كان عليه أن يمتلكها، مهما كان الأمر؛ فم الرمان، حضن الأوزة.

شرع في الطوق مستخدماً إجمالي الموارد المتراكمة في تجربة وافرة. زهور وكتب، صوت مدغدغ، بلاغة عسلية، بريق ولطافة الحديث، حرارة الطمع. ماريا مانويلا، مجاملة وكاتمة للحقائق، لم تذعن، قلعة صلبة.

استطاع برونو فتح ثغرة من خلال الأدب. في مقابل كتبه، المرسلة واحداً إثر واحد، والإهداءات في كل مرة أقل شكلية، تسلّم بالبريد المجلّد الوحيد المنشور في حياته لفيرناندو بيسووا: «إلى الشاعر البرازيلي المدهش انطونيو برونو، هذه الرسالة من أكبر شاعر برتغالي معاصر مع إعجاب عميق، القارئة ماريا مانويلا سيلفاريس كاسيتيل». برونو سمع إشارات مبهمة عن زميله البرتغالي مَنْ لم تمتد شعبيّته إلى البرازيل إلا بعد الحرب. مثقف عائد إلى الثقافة الفرنسية، كان يعرف القليل عن الأدب الحديث في البرتغال، أبعد من الجيل العظيم لإيسا، راماليو، آنتيرو. قرأ «الغابة» لفيرّيرا ده كاسترو، كان يعرف بالإسم آكيلينو ريبيرو، فما كان يغريه الشعر المكتئب لأنطونيو نوبري لكنه كان يحب شعر سيزاريو فيردي. من هنا، أدهش ذلك الجهل الكلّي الجميلة المجازة في الآداب من جامعة كويمبرا وأثار مشاعرها الوطنية.

انطلقا من فيرناندو بيسووا ومؤلفاته التي تحمل إسمه الحقيقي، وطالت الأحاديث الهاتفية، منتهية في لقاء أول في المعهد الأدبي البرتغالي، حيث وصلت هي متعبة وجميلة، محمَّلة بكتب الشعر، عناوين ومؤلّفين مجهولين من قبل برونو. ما كان الشعراء البرتغاليون، بالحري، الذين قادوها إلى هناك؛ استجابت لتوسّلات المتيّم

لأن تلك القبلة الأولى، المتولّدة من الطارئة السياسية، استمرّت تحرق فمها الذي فيه دام مذاق شفتيْ ولسان الشاعر البرازيلي، مضعفة إرادتها، مشعلة الرغبات الجامحة المقموعة.

لعبة هذيان؛ برونو المنفعل، يتكلم في الحب. ماريا مانويلا، العالمة والأفلاطونية[1]، تفسّر له معنى الجماعات الملتفّة حول مجلات «أورفيو» و«بريزينسا»[2] مقدّمة له أعداداً من «المحصول الجديد»[3]. أية وسيلة، من غير استخدام الأسلحة ذاتها؟ هاجم برونو مع بريفير، بريتون، اراغون، إيلوار، تزارا، وشاعر فشاعر، بيت من الشعر فبيت، الحميمية فرضت نفسها، كلمات عذبة مختلطة بمقاطع من قصائد؛ نار العشق أشعلت المداولة الأدبية. مع لوركا في «المغني الغجري»[4] وجدا أرضية مشتركة، أرضاً مناسبة حيث ازدهر الحب. تبادلا القبلات، جالسين على مقعد خشبي ريفي مستطيل[5] بين أشجار مرتفع سيلفيستري، قارئين قصائد «عشرون قصيدة في الحب وأغنية واحدة يائسة»[6] لنيرودا.

تخلّت ماريا مانويلا عن المقاومة، أذعنت، حين أعلن برونو، والصوت منهك وهامس، سلسلة من ثلاث قصائد على طريقة كامونز، مستوحاة منها: «زيارات جونو[7] لفيلاريال في الشاطىء الكبير لنيتيروي». ماذا كان يعني بالضبط الخلق البروليتاري؟ ما أعطوه قط إيضاحاً صحيحاً لكنْ ما كان بالتأكيد، أن تبقى وفيّة لأفونسو، الزوج أكثر من كونه لامبالياً لمغامرات الزوجة. إفعل بي ما تشاء، قالت لبرونو، مغلوبة وراضية.

بالنسبة إليه، المغامرة الأخيرة، حماقة، هراء؛ وبالنسبة إلى ماريا مانويلا، الحب

---

(١) التعفف في الحب.
(٢) في البرتغالية: PRESENÇA.
(٣) في البرتغالية: SEARE NOVO.
(٤) في الاسبانية: CANCIONERO GITANO.
(٥) BANCO.
(٦) في الإسبانية: VINTE ROEMAS DE AMORYNA CABCION DESESPERADA.
(٧) إحدى آلهة الإغريق.

الأول، اكتشاف الجانب الآخر من الحياة معطياً بعداً جديداً للإنسانية الذي كان يوجّه أفعالها. رفيق، هو فيرناندو كاسترو، علّمها التضامن، ومع الشاعر أنطونيو برونو تعلّمت الحب. أنطونيو أكملني، أسرّت للمعلّم آفرانيو في يوم دفن العقيد.

الحب الأول تأخر، كانت تسير في بيت الثماني والعشرين سنة. عرفت وقتاً ذا سعادة كلّية ـرقة لانهائية، شهوانية لا حدود لها، متحررة. اللقاء الطارىء في نيتيروي حدث قبل قليل من عيد الميلاد لعام ١٩٣٩، وبرونو توفي في أيلول ١٩٤٠، عشرة أشهر متكاملة، لم يكن فيها لحظة واحدة لم تكن ذات انسجام فائض وجمال.

٢

قاطعة العادات الإقطاعية للعائلة، ومع انتهاء الثانوية، رفضت ماريا مانويلا القيود البيتية، وفازت بالحق لدخول الجامعة، سجّلت نفسها في دراسة الآداب في كويمبرا. متحمسة، فرحة، ذكية، شرعت في الحال بالاشتراك في الحياة الطالبية. بعد مرحلة خائبة قصيرة من السيريناتات[١] الرومانطيقية عند حافة مونديغو[٢]، ارتبطت بمجموعات من اليسار الذي كانت جدّيته تغويها. فيرناندو كاسترو طالب القانون ذو الملامح التصوّفية والصوت الخشن، حمّل نفسه مسؤولية توجيهها عقائدياً. وبينما الزملاء الآخرون شكّلوا بطانتها، كان يبدد الوقت في تصريحات مضحكة، كان يتكلم في السياسة، عن شقاء البلد والشعب، عن عسف السالازارية[٣]، عن مظالم الاستعمار، عن جشع الإمبريالية التي تقتلع مخالبها الدامية أحشاء الأمة البرتغالية. أعطاها كتباً ممنوعة لماركس ولينين. «البيان الشيوعي»، ملخصاً لكتاب «رأس المال»، «الامبريالية، مرحلة عليا من الرأسمالية» (وهي قرأتها، هذه الكتب وغيرها عديدة)، «الأم» لغوركي، وأشعار ماياكوفسكي. وصف أسطورة ثورة أوكتوبر، عَلَم وأمل المستغَلّين. فتحة عالم أفضل، بلا أغنياء، ولا

---

(١) جمع SERENATA: السهرات التي يتخللها الرقص والموسيقى.

(٢) نهر في البرتغال.

(٣) نسبة إلى الديكتاتور البرتغالي سالازار.

فقراء، بلا طبقات، حيث لا توجد الملكية الخاصة، الجميع لديهم طعام للشبع من الجوع والحق في عطاءات الثقافة. انبهرت ماريا مانويلا.

طلبت الانخراط في الحزب، وبعد فترة من التجارب، لا غنى عنها بسبب أصولها، خلالها يلاحظونها ويحكمون عليها؛ قُبلت تحت اسم الحرب[1] بيرتا. عند العودة ذات فجر من الكتابات على القار في أسوار الجامعة، وهي سعيدة، سلّمت نفسها للرفيق كاسترو الناضح عرقاً، والذي يمقت المبادىء الصارمة للخلق البروليتاري، أعاد الاعتبار للأطروحات المهجورة في الحب الطليق ووضعها قيد الممارسة. وحده قديس من الحجر فقط كان بوسعه الانطلاق نهاراً وليلاً في جولات مع جمال ماريا مانويلا الفتّان ويبقى لامبالياً. الرفيق كاسترو كان تقريباً أحد القديسين. عارياً من اللحم لكنه ليس من حجر.

وهو المتحزّب عن اقتناع ومزاج، ثقّفها على الأرثوذكسية[2] والعقائدية[3] جاعلاً من الرفيقة بيرتا نوعاً من الراهبة الماركسية. وتخلّت ماريا مانويلا عن كل ما يعني الترف، الافتخار، السموّ، في الثياب والأحذية الباهظة الثمن والمساحيق والأصباغ، بديهيات التعفّن الرأسمالي. نظيفة من الأشياء المصطنعة، مشرقة في الجمال النقي للوجه، في الأناقة التي لا تتضاهى للجسد المتحرر من التزويقات غير المجدية، أصابت بالجنون طلاباً وأساتذة، ملهمة دزينات من القصائد الرديئة، صفحات متشائمة من النثر، أغاني وفادو[4] مقيتة. لا شيء من هذا أقلقها أو أثارها ـ تعبيرات جاهلة للبورجوازية المنحطة. الفراش القاسي والمضاجعة الزهيدة للرفيق كاسترو كانا كافيين لحساسيته المخدّرة حيث أن شهيّته ما كانت متيقظة. المهم هو الثورة فقط، والباقي كان ثانوياً. أغلق نفسه عن الاحساس والرغبة.

في لقاء للمسؤولين، في سيرا دا استريلا وقع فيرناندو كاسترو في أيدي الشرطة.

---

(١) الإسم الحركي، كما هو شائع عند العرب.
(٢) الاستقامة في المبدأ.
(٣) DOGMATISMO.
(٤) FADO : ضرب من الغناء البرتغالي الشعبي ذي النبرة الحزينة.

أرادت ماريا مانويلا زياراته، عارض الحزب، لم تفهم الدوافع لكنها أطاعت النقض[1] القاطع. استمرّت في كويمبرا، منهية الدراسة، متابعة العمل غير الشرعي. بحثت في الشعر عن بديلٍ للخطاب السياسي عند الرفيق الغائب، مَنْ يتضمن خطابه، بالرغم من كونه قاسياً ومطابقاً، إلهاماً سخيّاً. لم تهتم بأيّ من الرفاق، في الدروس أو الأفكار. محكوماً بعقوبة قاسية، فيرناندو كاسترو لم ينفذها؛ توفي في معسكر تارافال، بعد بضعة شهور من اعتقاله، تحسّست ماريا مانويلا موت الرفيق بشكل عميق، فلم تبك العشيق.

وإذ تسلّمت الدبلوم، وفي العودة إلى ليشبونة، قدّمت نفسها لتعمل في النشاط السرّي، قاطعة صلتها بالعائلة والوسط الذي كانت تعيش فيه، متحوّلة إلى ثوريّة محترفة. لم يرفضوا لها فقط مثل تلك الفرصة السانحة؛ حين طُلبت للزواج من آفونسو كاسيتيل، نصحوها بقبول العريس الذي اقترحه تطابق العائلتين.

نصيحة! ليس هو التحديد الحسن. فالزواج من دبلوماسي كان مفروضاً عليها، مَهَمّة للتنفيذ. بعد أن أخبرت المسؤول عن الجهاز التنظيمي للقاعدة التي كانت تجاهد فيها القصة المضحكة لطلب الزواج، مضيفة بأنها ولا بأية طريقة ستقبل الاتحاد بذلك المعتوه المختال، ألفت نفسها مدعوّة لاجتماع بعد أيام على مستوى عالٍ من المسؤولية والسرّية. رحلة طويلة بالسيارة، العينان معصوبتان، في صمت كامل، هي وحدها والسائق المجهول فقط. فللمرة الأولى سوف تلتقي ماريا مانويلا عضواً في اللجنة المركزية.

هبطت من السيارة، تناول السائق يدها وقادها، كما لو كانت عمياء، إلى داخل البيت. قال «انتظري ههنا» وانصرف. بعد قليل صوت مهذّب وغير محدد الجنس جعلها تسمع: بوسع الرفيقة أن تسحب العصبة. رأت أمامها رجلاً في منتصف العمر، نحيلاً، متغضّن الوجنتين، متّقد العينين، هيئة حواري. أنا مبتهج لمعرفتك أيتها الرفيقة بيرتا. مدّ لها يده، وبعدها أشار إلى مقعد، إجلسي، لدينا الكثير للتحدّث فيه. أنا الرفيق نيفيس. أحسّت ماريا مانويلا بالقلب يخفق بسرعة أكثر. فقد كان أمامها الرفيق نيفيس، عضو المكتب السياسي، المسؤول الأسطوري، بطل

(١) VETO: حق النقض.

قصص خيالية؛ فراران من السجن، واحد من قلعة كاشياس، في ليشبونة، والآخر من تارّافال، مواجهاً البحر المحيط في قارب بدائي صنعه هو بنفسه. وعن قدرته النظرية كانت تُروى روائع، درس في مدرسة الكومينترن في موسكو. انطلقت منه كرامة[1] فرضت احتراماً وطاعة.

خلال بضع لحظات بدا قريباً وإنسانياً، عندما يتكلم برقة تقريباً حول فيرناندو كاسترو، مات في معسكر الاعتقال في تارّافال، ضحية عمليات التعذيب التي أُخضع لها في ليشبونة أثناء الاستجوابات. تصرّف بشكل بطولي، فلم يكشف شيئاً من الكثير الذي كان يعلمه، وكان مسؤولاً عن التنظيمات الطالبية في كويمبرا. أخذ على عاتقه ظرفه كشيوعي وأعلن للجلّادين زوال السالازارية الذي لا يمكن تجنّبه. «مثال لكل الحزب» أنهى مستعيداً الرنّة غير الشخصية، رنّة القيادة التي تحدد مسافة بين المسؤول والمنخرط في حزب: والآن، نتكلم عن الرفيقة.

مع مضي المقابلة، عاملها بتقدير لكنْ بلا حرارة، تقدير سياسي بكل نقاء؛ صلة وحيدة كانت تربطهما، الثورة، ولا شيء أكثر. رفيقان في الحزب، لا رفيقان، إذ أنه عضو المكتب السياسي، كان يقرر ويقود، تاركاً لها تنفيذ الأوامر المتلقاة. كان المسؤول يعلم كل نشاطها السابق، في كويمبرا أو ليشبونة، فأتى بثناء عليها وانتقادات لها، من دون مبالغات. أوضح، بصفته استاذاً، أن الحزب لم يعرف الاستفادة منها كما يجب آخذاً المركز الذي يحتله الأب ومكانة العائلة، فإن الرفيقة بيرتا يجب أن تنفذ مَهَمّات نوعية ـ كان ثمة أناس كثيرون للكتابة على الجدران وتوزيع المنشورات.

اتخذ المكتب السياسي بعض القرارات بصدد عمل الرفيقة. من الآن فصاعداً، مرتبطة بالإدارة، مبتعدة عن تنظيم القاعدة، سيكون لها اتصال دائم فقط مع مسؤول من اللجنة المركزية الذي سيزوّدها بالمساعدة في نشاطها الحزبي الجديد. كانوا في خضم الحرب الإسبانية والرفيقة، إبنة وزير الخارجية، مع مرور طليق في الوسائط الرسمية، تستطيع أن تغدو ذات نفع بالغ. مَهَمّتها سوف تشتمل على الاستعلام والإعلام: المكتب السياسي صمم في الوقت نفسه على قبول الزواج من آفونسو كاسيتيل لكونه توسيعاً محسوساً للقطاع الأرضي حيث يجب أن تتحرك.

---

(1) CARISMA.

ماريا مانويلا الفاغرة الفم، حاولت أن تناقش. لم تكن هذه المهمات الخطرة هي التي تنتظر أن تكون قد عُيّنت من أجلها. لم تُخفِ المفاجأة؛ سوف تشعر أنها جاسوسة أكثر منها ثورية. صوت المسؤول بارد وشفرة قاطعة من الفولاذ ارتفعت واضعة حدّاً للشكاوى وعدم الاتفاق:

- الرفيقة بيرتا جاءت لتكشف أنها ما زالت غير متحررة من تأثيرات بورجوازية صغيرة، لم تحصل على الذهنية البلشفية. فالحزب صمم على الوثوق بكِ في جبهة مهمة من المعركة، معتقداً أن الرفيقة ستجد نفسها قادرة على احتلالها، وبدلاً من أن تشعر أنها مسرورة وفخورة، تحاول الرفيقة مناقشة قرارات المكتب السياسي. ما الذي ترغبين فيه؟ تعرضين نفسكِ كبطلة، تكتبين على الجدران، وتوزعين مواد الدعاية في الأسواق المتنقلة[1]، خاطبة في اللقاءات الانتخابية القصيرة المدة؟ الحزب يعطيكِ مهمّات، بوسع الرفيقة تنفيذها.

قبل أن تتحقق حقاً من عدم جدوى أية مقاومة، اقتنعت ماريا مانويلا بالخطأ المقترف. وما كانت أكثر من بورجوازية صغيرة، بلهاء ورومانطيقية، ما زالت بعيدة جداً عن القوة واليقين اللذين يميّزان الشيوعيين المحرّضين. الرفيق نيفيس، هذا أجل، كان بلشفياً، مثقفاً في مدرسة الرفيق ستالين. أحسّت نحوه بإعجاب شديد:

- لديك الحق، أيها الرفيق. سأسعى إلى التغلّب على تحديداتي الطبقية وأكون خليقة بثقة الحزب، فاعلة نقداً ذاتياً في الممارسة شعارها - «في يديْ الحزب وضعت حياتي وشرفي».

كانت حفلة زواج ماريا مانويلا كوفو سلفاريس ديسا من آفونسو كاسيتيل حدث العام، وحتى اليوم يتذكره المجتمع الليشبوني. العروس، شاحبة ومنبهرة، فستان، خمار والتاج المرصّع بالأحجار الكريمة قدمت من باريس، موقّعة من كوكو شانيل[2]، موسيقى مسيرة الزفاف منفّذة من قبل عازف الأرغن كلاوس بيرغمان، الذي استُقدم بشكل خاص من فيينا، بوزن الذهب. عظة الكاردينال في جيرونيموس[3] ممجّدة

(١) FEIRA: السوق المتنقل من حي إلى حي آخر ومن قرية إلى أخرى على مدار الاسبوع.
(٢) إسم إحدى مصممات الأزياء المشهورة في باريس.
(٣) كاتدرائية معروفة في ليشبونة.

حلف العائلتين الكبيرتين والمشهورتين، المرتبطتين الآن بأواصر الزواج، ببركات الله! على الأثر، حفلة الاستقبال، ذات أبّهة، مباهاة لا مثيل لها.

في السرير، آفونسو الغطريس والمتعطّر، كان أقل إثارة للاهتمام من فيرناندو الحيي والناضح عرقاً. عندما قلع بذلة الرسميات[1] تصنّع الأبله دور الفحل، فأوصاها بأن تلوذ بالشجاعة ووعد بأن يتصرّف بحذر شديد ـ لا تخافي، لن تشعري بشيء. مقتنع بأنه سيفض بكارتها ومقتنع بأنه سيفعل ذلك عندما تمكن منها وأنشد نصراً. كانت ماريا مانويلا على علم بعلاقات آفونسو مع مغنية الفادو الشعبيّة من ألفاما مَنْ كان يعيلها ـ هي وأبناء عمها المتعاقبين، الكسولين المرحين.

كان المسؤول على حق. بوسع ماريا مانويلا أن تزوّد الحزب بمعلومات ثمينة حول شؤون سريّة، أحياناً خفيّة، معلومات تحصل عليها من ديوان أبيها، في بيت حميها، في محادثات مع الزوج المتشدّق. كان آفونسو يعبد كشف وإخبار آخر الشائعات، يحصد الأقاويل في أروقة الوزارة، في قاعات الانتظار في الحكومة. على علم بكل ما له علاقة بمساعدة سالازار لفرانكو، وكانت الرفيقة بيرتا ذات مساعدة حقيقية لقضية الجمهوريين الإسبان.

بالاتفاق مع الحزب، رافقت الزوج إلى البرازيل، حيث قدم هو ليخدم في مركز المستشار في السفارة، وصارت البريد السريع والمأمون بين المنفيين الشيوعيين والادارة في البرتغال. رفيق موثوق بقي على اتصال بها، الوحيد الذي يعرف انتماءها السياسي. بعد سنة من التواجد في الريو، تعرّفت إلى أنطونيو برونو في ذلك المساء المضطرب في نيتيروي.

٣

أزهرت بين ذراعيْ الشاعر. في كويمبرا اكتشفت عالماً يتحوّل، في الريو عرفت الحياة في اكتمالها. كشفٌ مدوّخٌ، أخيراً، بعد كثير من الخداع، عندما تجرّدت من

---

(١) FRAQUE.

ملابسها على سرير انطونيو وللمرة الأولى أنّت من النشوة، وعرفت التشنّج. لم تلبث أن صارت الأنثى الأكثر اكتمالاً، الأشد شراهة، عطشى وجائعة، ساعية إلى إعادة استيفاء الوقت الضائع. محققة نفسها وسعيدة.

محققة نفسها وسعيدة، لم تتخلّ مع كل هذا عن خندق المعركة المناهضة للفاشية. لم تنقض الولاء للحزب، لم تُهمل المهمات التي أضافت إليها واحدة، لحسابها الخاص - تحويل الشاعر الغنائي أنطونيو برونو إلى شاعر ملتزم، جاعلاً من غنائه سلاح العمال المرتهنين بتغيير العالم. ذكرت له مثال التشيلي بابلو نيرودا، ذلك الذي نظم «عشرين قصيدة حب» المسؤولة عن القبلات البدائية. وهو قنصل في اسبانيا أثناء الحرب الأهلية، وعلّق إلهامه الشعري على خدمة البروليتاريا التي هي تحت السلاح.

لمناسبة هذا الموضوع الثابت من المحادثة، أراها برونو موضوعاً لناقد، برغم إطراء «الخاصية البرازيلية» لشعره، يتهمه بجهل المعضلات الاجتماعية وليس التحديد في «عالم مرتعش، في ساعة حاسمة، عندما غارسيا لوركا، مَنْ يدعوه بالأخ، يُرمى بالرصاص من قبل فرانكو، وتوماس مان ينفي نفسه كيلا ينتهي في معسكر للاعتقال لدى هتلر، وأنطونيو ماتشادو يموت في المنفى». مقالٌ منشور عرضاً في العدد الأخير من مجلة «للجميع»، الممنوعة من التداول من قبل الـ DIP على الرغم من مكانة وعلاقات آلفارو موريرا، صاحبها ومديرها. ماريا مانويلا أعطت الحق كله لكاتب المقال: فأنطونيو لم يكن يقوم بواجبه. من المحتمل أن تكون البرتغالية الحسناء والمتمرّدة قد ساهمت في الخطاب الذي ألقاه في الأكاديمية حول البرج البلّوري الموضوع في أسفل من قبل الحرب.

برونو الضاحك، كان قد أعلن كتاباً كله قصائد في المضمون الاجتماعي لكنه ما وفّى قط بالوعد. لقد كتب هذا، نعم، قصائد حب، غرام مجنون، أخرق معتوه، شاعر جوّال[1] عند قدميْ السيدة الشجاعة التي كانت تجازف من أجله بالشرف والثروة.

لم تكن تجازف بشيء. كررت ماريا مانويلا؛ فبينها وبين زوجها توجد فقط

(١) TROVADOR.

الصلات الشكلية للزواج. آفونسو يواصل إعالة مغنّيات ـ الآن خلاسية مثيرة، راقصة سامبا في أحد مسارح ساحة تيرادينيتس، وهي أيضاً محاطة بأبناء عم، ذوي فظاظة مسلّين ـ وإذا لم يكن لماريا مانويلا عشاق آخرون قبله، فذلك عائد فقط لواقع عدم وجود أي شخص يثير اهتمامها من بين الكثيرين الذين يلاطفونها في الصالونات. هددت بما فيه هجر الزوج والموقع لتعيش مع برونو، في الفقر والشعر. وليمنعها من اقتراف مثل هذا الجنون، كان على الشاعر الاستعانة بالأسباب السياسية. ماذا سيفكر الحزب إزاء هذا؟

سيكونون قادرين على طردها. حجة حاسمة.

في الرابعة والخمسين من العمر، ولا يزال في لياقة بدنية لكنه يستشف اقتراب الشيخوخة، أحس برونو أنه بلغ الحد الأقصى من المصير مع حب هذه المرأة الفاتنة والفتيّة، المثقفة والمقدامة، المولودة نبيلة والتي ارتقت إلى حالة إبنة الشعب. كتب مقالات، في الخفاء، نظم قصائد المعركة التي طالبت بها، لم يتمكن؛ إذ كانت ترنّ زيفاً. الوحيدة التي تلقت نَفَس الابداع الحقيقي، مستودع الحقد، القرف، الغضب، القنوط والأمل، القلب الدامي والقبضة المرفوعة، كانت «غناء حب لمدينة محتلة»، المكتوبة بقصد البكاء على سقوط باريس، استعادة من أجل الصراخ على شعوب العالم للمعركة ضد النازية ـ الفاشية، من أجل تحرير جميع المدن المحتلة، قصيدة برونو وماريا مانويلا، حيث أن النسخة الأولى ضربتها هي على الآلة الكاتبة. إرث حصدته المحاربة المتشحة بالحداد، السيدة ذات الملابس السوداء، المشككة في ساعة خمود الهمّة الأكبر في البرازيل، في البرتغال وفي المستعمرات الأفريقية ـ المقروء في غابات آنغولا، غينيا بيساو، موزامبيق، حيث الزنوج في ثورة يضرمون نار أولى حروب العصابات.

حوار أكاديمي على طيران العصفور

العميد فرانسيلينو آلميدا، الملاحظ الرفيع المستوى، لاحظ على الفور بوادر تبدّل في موقف اللواء فالدوميرو موريرا، الجالس على الكنبة العريضة[1] إلى جانب الوزير بايفا، من المحكمة العليا، يتأمل المائدة المقدَّمة حيث عديد من الأكاديميين كانوا يتناولون الشاي، مرطبات الفاكهة، يأكلون أقراص الحلوى[2]، محمّصات وبسكويتاً، قبل بدء الجلسة الاسبوعية، الأولى بعد موت العقيد سامبايو بيريرا. حذّر الصديق حول الواقعة بصوت خفيض:

ـ لم يعد هو نفسه، انتبه. شيء ما تغيّر في طريقة التحية، في التوجه إلينا، في المعاملة قبلاً، معجب وضيع، يثير الظرف. الآن بات أقل نذالة، رفع صدره. والآخر أيضاً انتظر إغلاق التسجيل ليموت، تاركاً له الطريق حرّاً، معطياً الانتخاب بيد مقبّلة...

ـ كنت ستقترع له، لو لم يمت سامبايو بيريرا؟

ـ كنت في شك. العقيد كان فعّالية، ورفض الصوت له، مجازفة. حتى أن موريرا لديه عرّاب ذو سلطان... قد يحدث أن ينتهي بي الأمر إلى اقتراف عمل مجنون...

الوزير الصغير والأعجف، يغمز بعينيه بسبب الضوء، فأخفض الصوت أيضاً أكثر:

ـ أخبرني الحقيقة يا عزيزي فرانسيلينو: عرّاب أم عرّابة؟

---

(١) SOFA.

(٢) BOLINHO : معجنات بالسكر (غاتو).

ـ أصبت. إنها عرّابة: ـ حدّة اللسان ذات معنى.

ـ لا تقل لي إنها هي نفسها...

ـ أنت أيضاً؟ أنت صوت مؤكد للمرحوم... السكرتيرة؟

ـ سكرتيرة؟ أيها؟ سكرتيرة مَنْ؟

ـ سكرتيرة اللواء، جد متواضعة وخجولة، أصل في التفكير إلى أنها قد تكون عذراء...

ـ هذه لا أعرفها. تريد القول إنه وضع السكرتيرة في أثرك؟ إن ما يدهشني هو مكانة اللواء لدى النساء. ليس لديه وجه ولا طريقة...

ـ والمخصصة لك، مَنْ هي؟

ـ مَنْ ينبغي أن تكون؟ ذلك الشيطان المعبود الذي يدعى ماريا جوان.

ـ الممثلة؟

ـ هي، نعم. أغلقت المسألة، هل تتخيّل أمراً من هذه الأمور؟

ضحك العجوزان الصغيران، وداعة بفرح. علّق الوزير وهو لا يزال يكيد:

ـ مَنْ كان يقول إن موريرا هذا سيكون لديه مثل هؤلاء الحاميات...

وتحقق فرانسيلينو:

ـ الحقيقة هي أن موت بيريرا حلّ مشكلاتنا. لكن لاحظ اللواء، لا يبدو أنه الرجل الفقير الذي زارني. بالأحرى، يجب الّا يكون فقيراً، بالحكم على سلّة المشروبات الروحية والبسكويت التي قدّمها لي.

ـ إنه فقير، نعم، يعيش من مستحقات مرتبه. كل ما لديه هو البيت حيث يقطن، الذي ابتاعه بالتضحية. يجب أن يكون قد انفق عليك مرتب الشهر.

ـ كيف تعلم أنت كل هذا حوله؟

ـ من ماريا جوان، إنه واضح. فالشيطان الصغير[1] واصلت الشكوى طيلة الوقت من فضائل اللواء ووضعه المحزن، اللواء النزيه والفقير.

ـ أهو هذا؟ هؤلاء العسكريون اقتصاديون ووحيدو الزوجة، لديهم نفقات

(١) المقصود: المرأة التي تدعى ماريا جوان.

صغيرة، يجمعون دائماً مالاً. يصنعون كسبهم الخاص... السلّة التي أرسلها إليّ يجب أن تكون قد كلّفته غالياً.

ـ هل سبق له وجاء للشاي؟ إني أراه في الصالون دائماً، متنبّهاً للمحاضرات. ههنا، لا أذكر أني قد رأيته.

ـ اعتقد أنه كان هنا مرة واحدة، آتياً به رودريغو. كل شيء محسوب، لم يكد يتذوّق فنجاناً صغيراً من القهوة. اليوم جاء لحسابه الخاص، لاحظ شهيّته.

إلى مائدة الشاي، كان اللواء فالدوميرو موريرا يتكلم بصوت مرتفع، يكرر القهوة بالحليب، معطياً أقراص الحلوى المصنوعة من الذرة إحساساً متدنياً. وعند رؤيته هكذا، غير شاعر بالضيق، لم يظنّ أحد ما أنه مرشح، يأخذ على عاتقه شرط الأكاديمي المنتَخَب. الوزير بايفا، الرجل المحب للحياة، عاد إلى موضوع النساء المبهج:

ـ هنا بالنسبة إلينا؛ مَنْ حقق متعة هو عزيزنا رودريغو. فإبنة اللواء امرأة رائعة...

ـ أنت تقول هذا لأنك لم ترَ السكرتيرة... امرأة خلاسية إلهية...
ـ خلاسية؟ ـ اتسعت عينا الوزير المرهفتان، والصوت مرتبك من الحسد ـ المحظوظ!

حوار في الأكاديمية، بانتظار الجلسة، في خلاله اعلن الرئيس وفاة العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا. الآن مرشح واحد فقط سيقارع للفوز بالمركز الشاغر من قبل أنطونيو برونو، هو اللواء فالدوميرو موريرا. الأكاديمي ليزاندرو لاييتي أثنى على المتوفى، مستدعياً التسجيل في تدوين وقائع الإعراب عن الأسى.

اللواء المرشح الوحيد، وهو لا يزال إلى مائدة الشاي، بمفرده، ابتلع آخر قطعة من قرص الحلوى مفكراً حيال بلاهات معيّنة لقواعد وعادات؛ ما دام هو عملياً أكاديمياً، فإن مكانه كان هناك داخلاً، بين الخالدين الآخرين. في حالات كحالته، ما كان يجب تغليب الفقرة التنظيمية، في المبدأ الحق، الذي يمنع الدخول لغير الأكاديميين إلى قاعة الجلسات ـ فلا توجد قاعدة بلا استثناء.

المهزوم

الأكاديمي الوحيد، أحد المدنيين النادرين الذين رافقوا موكب دفن العقيد سامبايو بيريرا ـ العزيز والمفزع آغنالدو ـ في عودته من المقبرة، ليزاندرو لايتي ألفى نفسه مهزوماً. أسوأ من هذا؛ بلا مرشح. فذلك الانتخاب الذي كان ينتظر منه أقصى ما يبتغي، انتهى إلى كارثة. على طاولة المكتب، في هامش الجريدة المفتوحة على أخبار واسعة حول وفاة الضابط اللامع والكاتب المقدَّر، المرشح للأكاديمية البرازيلية للآداب، كتبت برو بقلم أحمر: «لقد فات الأوان!» ناكرة الجميل.

قضى أياماً محزنة، مقطّب الوجه، قليل الحديث. عند عودته من جلسة الأكاديمية، أخبر الدونا ماريوسيا:

ـ استدعيت الإعراب عن الأسى، قلت بعض الكلمات. بورتيلا، إيفاندرو، فيغيريدو وآخرون كانوا يبتسمون، متمتعين بوجهي الهزيل. إنهم منتصرون. واللواء موريرا الذي قدم من أجل الشاي، يسبح في السعادة. فاللقمة ليست لمَنْ يعدّها، هي لمَنْ يأكلها. جهدٌ ضائعٌ. وأيضاً فوق كل هذا، برو، هذه الناكرة للجميل...

ـ دع برو بسلام ولا تضايقها كثيراً.

ـ لقد حسبت أمر التعيين في المحكمة العليا...

ـ لا تقلق، سوف تصل إلى هناك.

ـ لا أحد يعطي شيئاً بلا مقابل يا ماريوسيا، من اللازم العمل بجد لكل شيء، خلق الشروط.

ـ ستتمكن، أنا متأكدة، إرفع رأسك أيها الرجل! ما رأيتك هكذا قط.

ـ المسألة هي انتظار متى سيقرر بيرسيو أن يموت. يبدو من حديد، حسب الأطباء

يجب أن يكون مدفوناً منذ وقت طويل. . . عندها أنهض بترشيح راوول ليميرا الذي هو صديق حميم للرجل. ـ الرجل هو رئيس الحكومة: ـ بدعمه ودعم بايفا، مَنْ يدري. . .

ـ ها أنت ترى. ما هو إلّا انتظار، كل شيء له أوانه.

أُخذ تفكير ليزاندرو بنفور:

ـ يوجد أمرٌ ما كنت أحب أن أعرفه. . .
ـ ما هو؟
ـ ما هو الذي جرى في زيارة آغنالدو لبيرسيو. كان عليه أن يتصل بي هاتفياً على الأثر. فلم يتصل، أخذت أتصل بجميع أرقام هاتفه، فلم أعثر عليه، في أيٍّ منها. تكلمت بعدها مع الدونا إيريمينيا، بطاقة بيرسيو المرافقة للأصوات لم تكن بين الأوراق التي تركها.

ـ إنسَ هذا، إنها مياه قد جرت. سأقول لك: أنا متأكدة أنه في يوم أكثر أو يوم أقل لا بدّ وأن أغدو زوجة الوزير لايتي من المحكمة العليا.

ـ وأنا لديّ تأكيد من أمر واحد؛ هو أنني لا أستحقكِ.
ـ أبله!

من أين جاء الطموح الذي يستنزفه؟ منه بالذات أم من ماريوسيا، اللطيفة والهادئة؟

ايضاح تاريخي

حرب العصابات تأسست في إسبلانادا ده كاستيلو، حول الأكاديمية البرازيلية للآداب، بالتأكيد بعد تبادل النظرات المنذرة بالخطر وذات المعنى بين الساخط إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، والنظّارة بلا ماسكين في يده، وبين المندهش المعلّم آفرانيو بورتيلا في يوم الخميس التالي. أو ليكن؛ بعد أسبوع من الجلسة التي أبلغ فيها الرئيس إيرمانو دو كارمو بشكل مطلق بوفاة المرشح العقيد آغنالدو سامبايو بيريرا قبل شهر ونصف من الانتخاب.

خلافاً لما كان منقولاً من قبل مؤرخين أقل دقّة وأمانة، فحرب العصابات لم تبدأ في نفس يوم جنازة العقيد. وُجد حلٌ سريعٌ ذو تتمة بين النهاية الدراماتيكية لمعركة PETIT TRIANON وبداية تطوّع المتطوعين للحملة الجديدة. بعد أكثر من أسبوع، أيام هادئة، حينما كان كل شيء يبدو أنه في سلام مقدس من الله. الذين ظنّوا هكذا ما كانوا يحسبون لتغيّرات الطبيعة الإنسانية.

في الفسحة القصيرة من الوقت الجارية بين يوم الخميس المشار إليه الذي كشف فيه السفير المجرِّب فرانسيلينو آلميدا، في ساعة الشاي، عوارض التبدّل في تصرّف اللواء فالدوميرو موريرا، المرشح الوحيد، وعلى الأثر، تلك البوادر المبهمة تبدّلت في جلاء ناصع ومهدد ـ كارثة، صنّفه إيفاندرو ـ حاملاً العجوزين المهاجين الصريحين إلى اللقاء التآمري على أثر الجلسة التي ناقش فيها الأكاديميون، بتهذيب اعتيادي، تفاصيل الإصلاح المخطط لضبط الكتابة المقترح من أكاديمية العلوم في ليشبونة.

وزير المستقبل سابقا

حالما دخل قاعة الشاي، استطاع الجميع التنبّه إلى أن اللواء فالدوميرو موريرا، من دون التجرّد من البزة العسكرية، كان يشدّ الأحزمة لرداء الأكاديمية. مرشح الردّ على خصم يعتبر أنه لا يُقْهَر، انتزع نجوم رتبة اللواء، مختزلاً نفسه جندياً بسيطاً، خامل الذكر وكثير المجاملة، مجنّد في الدرجة الدنيا من أجل المرتب الشهري، يحترم الخالدين، شارباً كلماتهم، مصفّقاً للمفاهيم الأكثر اختلافاً، في حالات معيّنة مناهضة لمفاهيمه. وابتلع أيضاً بعض الضفادع[1]. وأكبر من جميع الأمور، الأمر الذي لا يهضم، في زيارة إيفاندرو. قدّم له كاتب البحوث عدداً من المجلّد المثير للجدال «العسكرية في أميركا اللاتينية» ذي المضمون الرافض - يحمّل العسكريين المسؤولية عن ويلات، عن تأخر، عن تابعية البلدان الأميركية - اللاتينية في العلاقة مع إنكلترة، الولايات المتحدة، ألمانيا. تعمّد الفظ تكرار، بصوت حيوي، آراء حول دور القوات المسلّحة اللاحقة بها الإهانة. أصغى المرشح بصمت، من دون أن يردّ.

كل شيء تغيّر بغتة. خمسة عشر يوماً إلى الوراء، بعد موازنة للأصوات، قام بها آفرانيو بورتيلا ورودريغو إيناسيو فيليو، مضى لينام مهزوماً، واستيقظ مع انتخاب مضمون، المنافس يضرب جزمتيه. انتهى طور التواضع والضفادع.

شدّ رداءه فوق البزة التي فيها النجوم، الأوسمة والميداليات قد عادت إلى اللمعان بحدّة قصوى، إذ عند توقّعه أن يغدو أكاديمياً، تكامل ثانية في درجة وفي سلطة اللواء. هكذا مرتدياً الرداء بشكل مضاعف، على الرغم من كونه لابساً بذلة من الجوخ الأزرق مفصّلة بشكل سيء ظهر مجدداً في حفلة شاي أكاديمية وعامل بألفة الزملاء المستقبليين، عبّر عن آراء، عرض اختلافات. في ما خصّ الشهيّة، يجب أن

(١) اصطلاح برازيلي يعني: ثرثار يكثر من المبالغات الفاقدة المصداقية.

يعمل حساباً للحمية الهزيلة التي فرضتها الدونا كونسيبسون بناءً للأمر الطبي. وهو طليق من رقابة الزوجة، قذف نفسه إلى الأطعمة الدسمة؛ على المائدة المتنوّعة والوافرة، أتخم نفسه.

للمرة الثانية حدث للواء موريرا، وهو منقض انقضاض الذبابة الزرقاء، يتقدّم بشكل غير مؤاتٍ، متسلّماً مواقع وقيادات قبل الساعة المحدَّدة، متحرراً من القناع الثقيل للضعة، لكي يظهر كما الله والوظيفة العسكرية قد صنعاه؛ متعجرفاً ومحباً للسلطة.

أثناء حملة آرماندو ساليس ده أوليفيرا لرئاسة الجمهورية، ذُكر اسمه في التوقعات الوزارية؛ في حال فوز المرشح السانباولي، بالوسع أن يشغل حقيبة وزارة الحرب.

لم تعترِ اللواء شكوك أبداً حيال الفوز، جميع الناس كانوا يعلمون أن الكاتب جوزيه آمَيريكو ده آلميدا، ولو تفاخر بلافتة المرشح الرسمي، لم يكن معتمداً على دعم الرئيس، وستتركه الحكومة لحظّه بالذات. أكثر من ذلك، كيف يتخيّل المرءأن شخصاً تربى بخشونة من أبناء السرتون[1] البارايبي[2]، ممثلاً للطوباويين[3] والجاغونسوس[4]، لأناس مستغَلّين، أميين وجائعين، يغدو قادراً على إلحاق الهزيمة بمرشح الباندیرانتيس[5] وأهل سان باولو الحديثيين، إقطاعيي القهوة الكبار والصناعيين الجدد ذوي الألقاب الإيطالية، من ذلك الشعب الثري، المثقف والتقدمي؟ على منابر المهرجانات الانتخابية، كان الخطباء يكررون الصورة ذات الافتخار: سان باولو، القاطرة القوية التي تجرّ بمفردها العربات المقطورة[6] الفارغة للولايات الأخرى. إنه مقتنعٌ بالفوز، وأكثر أيضاً بحقيبة الوزير. ليس أيّ وزير،

---

(١) SERTAO : منطقة الجفاف في الشمال الشرقي من البرازيل.

(٢) نسبة إلى ولاية بارايبا في الشمال الشرقي.

(٣) BEATOS: أناس في الريف يتظاهرون بالورع ويدعون القداسة.

(٤) JAGUNÇOS: أفراد أشرار يسلبون الناس أموالهم وغالباً ما يكونون منخرطين في عصابات مسلحة في الريف.

(٥) BANDEIRANTES: الرواد الأوائل الذين استوطنوا أراضي ولاية سان باولو واستعبدوا الهنود واكتشفوا المناجم، صفة تطلق على سكان سان باولو.

(٦) مفردها: VAGAO: إحدى الشاحنات التي يتكون منها القطار.

وزير التعليم أو وزير الأشغال العامة. وزير الحرب، في الممارسة الشخص الثاني في الحكومة، فوقه ليس إلا الرئيس.

أخذ يتردد إلى الوزارة، حيث شوهد عشية حركة الدولة الجديدة، متأبطاً حقيبة سوداء، ملأى بالمستندات. كان يزور نظارات[1] ومصالح[2] وثكنات، سعياً للمعلومات التي ستكون ذات نفع له في المنصب. أنشأ ديوانه، أبدل قيادات، نقل، أصلح ورقّى. كله على الورق لكن مع مباهاة كبرى معلنة للخطط الموضوعة، في البرنامج الذي سينفّذ. بلغ الحد الأقصى في دعوة بعض الضباط لمراكز ذات رفعة.

آرماندو ساليس، الضعيف في الدعم العسكري، من الممكن أنه في بدء الحملة قد فكّر باسم اللواء، موريرا، مَنْ لا يمكن الشك بإخلاصه، لذلك المنصب الرفيع. لكنْ، إذا حدث له مثل ذلك الاحتمال، سيصرف النظر عنه. وإذ ندم، قبل أن يدفن انقلاب تشرين الثاني أحلام وآمال، لا اللواء وحسب، إنما جميع أولئك الذي شاركوا بجد في حملتيْ المرشحين للرئاسة. ولكي يكافئه على تكريسه الجهد، كان سيمنحه وظيفة حسنة بلا عمل: ملحق عسكري في باريس، على سبيل المثال، منصب ملائم للطالب السابق الأول للبعثة العسكرية الفرنسية، وظيفة مشرّفة، من دون خطر القيادة وقائمة في الجانب الآخر من المحيط. لأن اللواء، علاوة على كونه معتّداً بنفسه ومحباً لإعطاء الأوامر، كان شخصاً لجوجاً من أولئك الذين لا يطاقون!

إلى مائدة الشاي، وهو يصغي إلى إينـريكي آندرادي يشكو إلى الرئيس تأخّر السكرتيرة في بعض المراسلات الموجّهة إلى الاكاديميين، أعلن اللواء موريرا بصوت مرتفع وبرنّة حسنة:

ـ إن ما ينقص أكاديميتنا هو قليل من النظام العسكري. فهذا البيت لا يستطيع الاستغناء عن حضور شخصية من القوات المسلحة، على الأقل، في فاعلياتها. فلفرض النظام، يجب تجنيب السلطة معاناة الخدوش.

خدوش، أية خدوش؟ في الصمت الذي تلا، تبادل العجوز إيفاندرو نونيس دوس سانتوس والمعلّم آفرانيو بورتيلا نظرة تحمل النذير وذات معنى.

---

(١) SECRETARIAS: وظائف في إدارات الدولة.

(٢) SERVICOS.

المتآمرون

الأخطاء التاريخية حول تواريخ وتفاصيل أخرى تشير إلى حرب العصابات التي يقودها العجوز إيفاندرو، ناتجة بالتأكيد عن الطبيعة ذات الكتمان الشديد لمختلف الأنشطة المقدم عليها. فجميع الترتيبات قد استوعبت وسُيِّرت من قبل المتآمرين في أشد وجوه الخفاء السرّي. فلو أن بلشفيين مع سنين وسنين من التجربة في العمل اللاشرعي قد جُرّبوا في مكان الأديبين العجوزين الليبراليين، إيفاندرو وبورتيلا، لما تصرّفوا بأكثر كفاءة وأشد كتماناً.

من أجل حديث متحفظ لم يكن يوجد مكان أكثر ملاءمة من سيارة الروائي. السائق آوريليو سودريه، الصامت في المقعد الأمامي، كان في خدمة آفرانيو والدونا روزارينيو منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. ويستحق أن يُمْحَض كل الثقة. أخذت السيارة طريق سانتا تيريزا متوجهة إلى منزل إيفاندرو، الذي كان المعلم بورتيلا يقطع عليه همهماته الساخطة:

ـ ما هو الذي كنت تريده أنت؟ أن نقترع لسامبايو بيريرا؟ موريرا هو فقط أديب رديء، أما الآخر فكان نازياً.

ـ لو كان أديباً رديئاً فقط، لما همني الأمر، إلا قليلاً، فما كان الوحيد. لكنه قوي جداً. لقد قلت لك: هذا الشأن العسكري لن يكون صائباً.

تابع إيفاندرو وهو غاضب:

ـ المرشح الكامل ليخلف برونو هو فيليسيانو.

ـ لا أناقش، فأنا متفق معك، لكن في الضيق الذي كنا فيه، ما كان متبقيّاً لنا

وسيلة أخرى ما عدا الركض وراء لواء. الآن، علينا أن نلوذ بالصبر ونتحمّل.

ـ تحمّل أنت إذا أردت، ليس أنا. فأنا لست صبوراً.

ـ وأيّ شيطان تستطيع أنت أن تفعله؟ موريرا الآن مرشح وحيد.

ـ وماذا في الأمر؟ يظنّ أنه منتخب لكنْ لا يزال متبقياً أكثر من شهر على الانتخاب...

ـ أنت تطالب...؟

يحدّق المعلّم آفرانيو بالإشبين الغاضب، نهباً للريبة، وشرع يلهي نفسه.

ـ أطالب فقط! لماذا وُجد الاقتراع بورقة بيضاء؟

ـ لكنْ أيها الإشبين، نحن ذهبنا إلى بيته لدعوته، وألححنا لكي يرشح نفسه... قرأنا الكتب، قرظنا... فلا نستطيع، مراعاة للأخلاق...

ـ أولاً: ذهبت إلى بيته لأنك أجبرتني على الذهاب. ثانياً: ما قرأت قط سطراً وحيداً كتبه فليتمجّد الله!

كان يهم في العد بأصابعه:

ـ ثالثاً: أيّدت تقريظك كيلا أتخلّى عنك في موقف صعب من تلك المواقف. رابعاً: أنا لست خلوقاً.

أزال النظّارة بلاماسكين، وأمضى وقتاً في تنظيفها:

ـ لا أنا ولا أنت... ما رأيت قط وجهاً من خشب مثل وجهك، مقرظاً تلك السخافات، مرتئياً أنها إنجازات عبقرية.

ضحك المعلّم بورتيلا ببطء. وتابع إيفاندرو:

ـ قرأت كتاباً وثائقياً صدر في الولايات المتحدة حول الحرب الأهلية في أسبانيا. خلال معركة مدريد، امرأة صغيرة تلفح الريح شعرها، واحدة تدعى لاباسيوناريا[1]، والاسم يقول كل شيء، شيوعية أو فوضوية، لا أعلم بالضبط،

(١) في الاسبانية: LA PASSIONARIA: نسبة إلى آلام السيد المسيح، كتاب صلوات عيد =

ابتكرت شعاراً واجهت به الكتائبيين[1]: «لن يمرّوا!» إذ أنني أنتهي إلى اعتماده. إفعل أنت الذي تريده، كنْ نزيهاً، اتهمني بالسفالة، قل إنني دعوت خط ماجينو...

ـ إيفاندرو، هذا أكثر من اللازم... لقب أطلقه سامبايو بيريرا!

ـ سمعته من جوزيه ليفيو وأحببته، لا أريد معرفة من أين جاء، إذا كان من شيوعي أم من نازي، على كل حال إن زيه ليفيو هو مجرّد متخلّف عقلياً. ما أقوله لك هو أنني اختصاصي في القانون المدني، لست مستعداً لتقبّل أوامر من أيّ عسكري، فما كنت قط مجنّداً، حتى ولا جندياً في الاحتياطي.

في نظرة المعلّم آفرانيو، ذلك الضوء من الخبث:

ـ لا تنس أيها الإشبين، إضافة إلى الاقتراع بورقة بيضاء، يوجد امتناع.

يضرب بيده على الركبة ذات العظام لإيفاندرو:

ـ حرب عصابات صغيرة لا تسيء لأحد...

ـ تريد القول...؟

ـ وُلدت بالذات لأكون محارباً... أضع نفسي قيد أوامرك، يا قائدي.

يتأمل خلال ثانية:

ـ في الموقف الحاضر، الجوهري هو الكتمان. يجب ألّا يكون لدى العدو أقل ارتياب. ينبغي أن يعتبر نفسه مضموناً. وكلما أحسّ موريرا أنه منتخب أكثر، سيقترف سخافات أكثر.

السيارة تتوقف أمام الحديقة التي تحيط بالبيت في سانتا تيريزا. ينزل آوريليو ليفتح الباب الخلفي. تلمح إيزابيل العجوزين، تصيح منادية الشقيق:

ـ بيدرو! بيدرو! الجد وصل. العم آفرانيو جاء معه.

بعد موت العقيد، لم يتواجدا شخصياً حتى الآن مع الصديق الأكثر حميمية للعائلة،

= الفصح. وهو اللقب الذي عرفت به المناضلة الشيوعية الشهيرة ضد فرانكو.

(1) قوات فرانكو التي سماها «كتائب» FALANGISTAS.

عرّاب آلفارو. إيزابيل تقبّل العجوزين في وجنتيهما، وتعقّب:

- قلت لجدي إن كل شيء سينتهي حسناً، أيها العم آفرانيو.

- لم ينته بعد، يا جميلتي. سنشهر الأسلحة مجدداً.

يصل بيدرو راكضاً، يريد أن يعرف:

- أي خبر جديد هو هذا؟

- ها نحن هنا. دون كيخوته، هذا العجوز الزاعق، جدك، وأنا، سانتشو بانسا[1]، خادمه حامل السلاح الوفي، خارجين في الحملة.

- مَنْ هي دولسينيا؟ الفتاة العذراء التي تستدعي الحماية؟

العجوز إيفاندرو نونيس دوس سانتوس يجذب حفيديه إليه، كانا هما اللذان أقنعاه في الصراع ضد النازي سامبايو بيريرا. في صوت يحمل علامة الإدمان على التبغ، إحدى حوافي الانفعال:

- هي نفسها لدى كافاليرو ده مانتشا[2]، يا ولديّ: الحرية.

الليل اللانهائي ذو النجوم يولد من بين أشجار الحديقة.

---

(١) رفيق دون كيخوته في رواية ميغيل سرفانتيس المشهورة «دون كيخوته».

(٢) في الاسبانية: EL CABALIERO DE LA MANCHA: ومعناها: الفارس ذو اللطخة، لقب دون كيخوته في الرواية المذكورة سابقاً.

السكرتيرة تفقد الوظيفة

بعث آفرانيو بورتيلا إليها بباقة ورود وبطاقة محدداً لقاءً في المتجر والمقهى المختص ببيع الحليب. نزلت روزا من سيارة خصوصية، مع سائق يرتدي بزة وقلنسوة[1].

ـ أنتِ في كل يوم أكثر جمالاً.

أمسك فضوله، فلم يسأل عن السيارة المتوقفة على الرصيف، بالانتظار.

ـ جئت أودّع سكرتيرة اللواء.

ـ تخيّلت أن هذا لن يتأخر في الحدوث عندما قرأت نبأ موت الشخص. لا أفرح لموت أحد لكنْ في هذه المرة لم تكنْ لديّ حسرة. كان يثير فيّ الاكتئاب حينما كنت أفكّر أنه سوف يتكلم حول برونو، مثنياً عليه من الفم إلى خارجه، موسخاً اسم حبيبي.

ـ من هذا تحررنا، يبقى علينا أن نتحرر من الآخر.

ـ من اللواء؟ أما كان محمياً منك؟ ألم تخترع هذه القصة عن السكرتيرة لكي أتمكن من صوت ليندينيو؟

ـ عمّنْ؟

ـ عن السفير. إنما لا يريد أن أدعوه إلا بليندينيو.

أوضح المعلّم آفرانيو تبدّل المرشح، وظيفة الانتخاب الأكاديمي، الاقتراع بورقة بيضاء، الامتناع.

ـ إذن، أنا مفصولة؟ أنظر، لم يكن الأمر بلا وقت. ليندينيو صار صعب المراس،

---

(١) BONE : قبعة خاصة بالسائقين تشبه قبعات الضباط.

يريد بالقوة أن أذهب لتناول الشامبانيا في شقته. من دون الكلام على القرصات. لحسن الحظ قليلاً ما تظهر العلامات على بشرتي السمراء وإلا...

أجرى المعلّم آفرانيو عملية حساب لقيمة السيارة؛ نساء برونو هؤلاء يفاجئنه ويقلقنه فلم يقاوم الفضول:

ـ وإلا ماذا؟

ابتسمت روزا عند رؤيته يحدّق في السيارة:

ـ أنت أيها السيد تعلم، إنه صديقك.

لفظت اسم الثري صانع النسيج، البرتغالي بالولادة:

ـ سيقيم مشغلاً لي، في شارع روزاريو، في الطابق الأول. سأعمل لحسابي الخاص.

ـ والأرجنتينية؟

ـ عادت إلى بوينوس آيريس. عندما صار أرملاً، أرادت أن يتزوّج منها، بالقوة... وضعت السكين في صدره...

ـ امرأة جميلة لكنْ يا لها من دواء مسهّل! السيدة ديليا بيلار مغنية التانغو[1].

ابتسم مقلّداً نبرة ابن المدينة ـ المرفأ[2]:

ـ في مادة مغنية التانغو، ما سمعت قط أسوأ منها.

ـ مدام بيك أرسلتني إلى منزلها لإجراء بروفات على بعض الفساتين. وكان هناك أن تعرّفت على الحالي... الحامي....

ـ عندما ألتقيه سأقدّم له تهانيّ. تحرر من تلك السمجة، وكسب أجمل وردة في ريو ده جانيرو. وأيضاً لكِ، أقدّم التهاني. المعني رجل طيّب ونزيه.

ـ أعلم هذا. إنه يريد فقط قليلاً من الود. أرى اننا سوف نتفاهم بشكل جد

---

(١) وردت في الاسبانية: LA SEŃORA DELIA PILAR CANTANTE DE TANGOS.

(٢) المدينة الواقعة على ساحل البحر مثل الريو وبوينوس آيريس، ويكون فيها مرفأ.

حسن. عاطفة واحترام، أستطيع إعطاءهما.

ابتسمت من شفتين لحيمتين، في الصوت شيء من الكآبة وفي الوقت نفسه من الاعتزاز:

ـ لقد كان لديّ الحب الذي رغبت، يكفي تذكر تلك الأيام لأشعر أني سعيدة. لكنْ قل لي، هل استُغني عني؟

ـ عُزلتِ كسكرتيرة. أرغب فقط في معرفة أمر واحد: هل لديه عنوانكِ؟ كيف يتصل بكِ ويحدد موعداً؟ بالهاتف؟

ـ يظن أني أسكن في مأوى راهبات من أجل الفتيات حيث يجب أن أكون قبل الساعة التاسعة ليلاً. وأني قدمت من المنطقة الداخلية على مسؤولية اللواء مَنْ كان أبي جندياً في خدمته. اخترعت بعض الأكاذيب الصغيرة. أعطيته هاتف المشغل، مع موافقة مدام بيك التي أخبرتها بالقصة، ورأت فيها عملاً طريفاً، وشاءت التعاون. ليندينيو يتصل دائماً في ساعة الغداء، يظن أنها راهبة فرنسية. تردّ عليه فيقول إنه عمي. إنها تسلية. يعرفني ببياتريز، وينـاديني بيا، بيا تعـالي إلى ههنا، بيا إذهبي إلى هناك وخذي فرصة.

ـ اتفقي مع مدام بيك على الآتي: حين يتصل السفير هاتفياً، يجب أن تقول إنكِ ما عدتِ تريدين رؤيته، وإن عليه أن يتخلّى عن السعي إليكِ. وفي الوقت نفسه على المدام أن تفهمه بأن هذا المكان لا يستخدم كمأوى ما، نعم، شيء مختلف جداً، فتترك ليندينيو ـ ليندينيو، هل سبق أن فكر؟ ـ رخيصاً...

ـ ما الذي تريد أن يتخيّله؟

ـ لا شيء بحاجة إليه كلياً. يكفي خلق مناخ من الشك، من شيء ما قليل الجديّة...

ـ لكي يبقى حانقاً على رب عملي السابق...

ـ بالضبط، فلا يقترع له...

ـ مسكين ليندينيو. لا يوجد مثله متحسسٌ بساق الأنثى. حين أكون أقل عرضة للتفكير، تندسّ يده في فتحة الثوب أو من تحت التنّورة. في عهد الشباب كان يجب أن

يكون قطار المجازفة...

ـ حتى اليوم، إن شهرة ليندينيو باقية في اليابان وفي اسكنديناڤيا.

ـ إنه لطيف، هل تعلم؟ يعبد رواية النكات الوسخة...

ـ لقد وضعتكِ في قصة قصيرة، هل تذكرين يا روزا؟ أرى أنني سوف أضعكِ في رواية. قبلاً كنت أعلم فقط أنكِ كنتِ أنعم وألذّ المخلوقات، والآن أعلم أنكِ، علاوة على كونكِ ناعمة ولذيذة، مقدامة وجسورة، غير وجلة.

ـ إنه أنطونيو الذي جعلني هكذا. وُلدت منه.

تذكّر آفرانيو بورتيلا القصيدة: وردة[1] النحاس، وردة العسل، الوردة البنت الصغيرة. ـقبّل يدهاـ وردة برونو.

---

(١) ROSA: وردة في البرتغالية.

خلافات لغوية

ـ هل قرأت أنت هذا؟

يبسط ر. فيغيريدو جونيور عدد «بريد الريو»[1]، أمام الرئيس:

ـ مررت من هنا لكي أريه لك.

يشير بإصبعه إلى العمود «دفاعاً عن اللغة البرتغالية»، توجيه نحوي حيث اللواء فالدوميرو موريرا كان يعلّم الشعوب الجاهلة كيف تكتب بالبرتغالية الفصيحة، في أصالة مصفّاة.

ـ كلا، لم أقرأه. حتى الآن لست ملزماً بفعله إذ أن كاتب المقال ما زال غير منتمٍ إلى الأكاديمية، وقد تظن خلاف ذلك. متبقٍ لي شهر لإضافة هذا الموقف المؤلم إلى أعباء الرئاسة الأخرى.

ـ يجب أن تقرأ بالضبط لأن المؤلف لا يزال حتى الآن غير أكاديمي...

أخذ إيرمانو دو كارمو الجريدة:

ـ مع هذا الحرّ يا سيد فيغيريدو...

يبدأ القراءة، يرفع عينيه:

ـ هذا المرشح الذي تدبّرتموه أنتم... لتجعلوه أمام الذي أخذه الله في ساعة طيّبة، وها هي ... كانت المنفعة الوحيدة...

---

(1) جريدة CORREIO DO RIO.

يعود إلى المقال:

- يا له من أخرق!

نادراً ما كان الرئيس، مَنْ تعبّر رقته في الأمثال عن استعمال المنصب الملح على الحكمة والكياسة، يستخدم تعابير غير سارّة عند الإشارة إلى أحد الزملاء، أكاديميين أو بسيطين غير خالدين. شعر، مع هذا، أنه مُثار بقلّة حياء المرشح الذي لم يكن ينتظر إلّا الانتخاب ليملي علناً إرشادات متعلّقة بتصرّف الأكاديمية. كان مخالفاً بشكل سافر لموقف عدد مهم من أعضاء المؤسسة في تفجير مسألة الإصلاح الكتابي في دراسات في اللجنة المختلطة المؤلّفة من ممثلين عن الأكاديمية البرازيلية وممثلين عن أكاديمية العلوم في ليشبونة. ولم يحصل، بعدُ، إجماع في وجهات النظر بين المندوبين البرازيليين، الأمر الذي كان يُصعّب سير الأعمال.

- هذا الرجل غير مألوف. قبلاً ما كان يوجد شخصٌ أكثر منه اعتدالاً، متنبهاً، قلت بالضبط إنه مداهن. قام بإنعطاف ذي مائة وثمانين درجة، والترشيح الوحيد صعد إلى رأسه. لم يُضِع الشاي، يتكلم كثيراً ويتكلم بصوت عالٍ، يعطي أوامر، انتقاداً. ذات يوم أمسكني من ذراعيّ وفرض عليّ درساً حول الرسم. يرى أننا نعلّق اللوحات منطلقين من معيار غير صحيح. لا نقدّر قيمة فنانين يعتبرهم من المرتبة الأولى، فيما نبرز آخرين هم، حسب قوله، سفلة تافهون. كان ينبغي لك أن ترى السفاهة.

قرأ السطور الأخيرة، وأعاد الجريدة:

- كان يجب أن يرشح نفسه إلى أكاديمية ليشبونة وليس إلى الأكاديمية البرازيلية.

بعض المندوبين المعيّنين ليكونوا جزءاً من اللجنة المختلطة، وبينهم ر. فيغيريدو جونيور، كانوا يدافعون عن الحاجة التي تُعْتَبَر انعكاس حول اللغة المكتوبة في البرازيل للخصائص الأصيلة في البرتغالية الناطق بها الشعب هنا. وكانوا يناهضون نزعة زملاء برتغاليين معيّنين، مصرّين على فرض وجهات نظر صارمة، صحيحة بالنسبة إلى البرتغالية، المتكلّم بها والمكتوبة في البرتغال، غير المقبولة بالنسبة إلى البرازيليين. الكاتب المسرحي كان يتكلم في الاستعمار الثقافي ليحدّد موقع فقهاء اللغة الذين يلحّون على قواعد مطابقة وصارمة لعلم نحو وحيد الجانب من أجل اللغة

المكتوبة في بلدين جد مختلفين. في الحقيقة، كلا الوفدين وجدا نفسيهما منقسمين حول هذه المسألة المثيرة للأعصاب والتكلّفة.

آناً، في عموده الأسبوعي، ذي الآراء والنصائح اللغوية، كان اللواء موريرا يؤيّد من دون تقيّد الموقف البرتغالي ويملي على الآخرين التصرّف الذي ينبغي للوفد البرازيلي أن يعتمده، أو ليكن، «صيانة بالحديد والنار» نقاء لغة كاموئز كما كانت تربطنا بها الأعمال الكلاسيكية، راداً على استشارة القارىء الافتراضي، منتقداً أولئك الذين تؤدي التزاماتهم للأشخاص الرديئين الذين يفسدون اللغة إلى قيادة الأكاديمية إلى التخلي عن أقدس واجباتها: «الاحتفاظ بآخر زهرة متفتحة في تكامل قواعدها غير القابلة للتغيير». وأنهى معلناً اشتراكه المباشر عما قريب في المداولات، مناضلاً كي يمنع التباسات جد مضرّة. لجوجٌ، عيّن نفسه وزيراً للحربية قبل الموعد، شغل المركز الأكاديمي قبل الانتخاب.

ـ ها نحن في ورطة... كما لو أنه لا يكتفي، البالوعة، بهوسه عن النقاوة، يقسّم الوفد...

ـ لواؤكم كم يبالغ. كان عليه الانتظار، على الأقل، إلى حين يغدو منتخباً ليتجاوزنا كعلّامة أمام الجمهور...

ـ لأي شيطان انتظر ذلك العميل، للشرطة، الوسخ حتى يختتم التسجيل لكي يموت؟ والآن؟

ـ أنتم تدبّرتم هذه البطاطا الساخنة[1]، فعليكم أن تقشّروها، إذا استطعتم.

أضاف كمَنْ يزوّد بمعلومة من دون أن يلتزم بها:

ـ يبدو أن لدى إيفاندرو بعض الأفكار إزاء هذا. فلماذا لا تتحدّث معه؟

---

(١) شتيمة تقال للشخص الأخرق.

اللجنة تحلّ نفسها

ذهب ر. فيغيريدو إلى أبعد من نصيحة الرئيس. لم يسع إلى العجوز إيفاندرو نونيس دوس سانتوس فقط. دعا عناصر اللجنة، التي انتقلت، إلى تناول الشراب في شقته، وكان يوجد حوالي ثلاثة شهور حتى عقد الاجتماع بهدف دعوة اللواء فالدوميرو موريرا مؤلف كتاب «مقدّمات لغوية» بين كتب أخرى، ليقدّم نفسه مرشحاً للأكاديمية البرازيلية للآداب.

قُدّمت المشروبات والمقبّلات، وعرض للآخرين المقال الباعث على الاختناق. ماذا كانوا يرون في ذلك؟

قرأه إيفاندرو وأمر بطبع نسخ على الستانسيل لتوزيعها بين أولئك الأكاديميين الذين كانوا يدافعون عن موقف وطني في مسألة اللغة. عثر فيغيريدو على عدد في درجه. على الأثر، تنبّه إلى القرار المتخذ منه ومن آفرانيو بورتيلا، المختص بترشيح اللواء. «نحن أوغادا!»، خلص بأسلوبه المحتد.

لقد كنا على أهبة الحرب ـ أكمل الروائي ـ أقمنا حرب عصابات، على غرار المقاومين في فرنسا. كنا سنبلغكم لكن ها قد شرعنا في العمل. مع قابلية للتأثر حسنة وكثير من الكتمان.

ـ ما علمت شيئاً. ـ قال رودريغو.

ـ لماذا لم تقولوا لي في الحال؟ ـ شكا فيغيريدو.

ـ على الرغم من الكتمان، شممت شيئاً ما في الجو ـ كشف إينـريكي آندرادي .ـ إن بايفا بات متكدّراً. امرأتنا الإلهية ماريا جوان ظلت أكثر من شهر تحاول إقناعه

بالاقتراع للواء، وبغتة تلحّ على أن يقترع بورقة بيضاء. استشفّ إصبع المعلّم آفرانيو في هذه البلبلة.

ناقشوا الموقف. وإذ اتفقوا على اعتبار اللواء شخصاً متعجرفاً مخادعاً ولجوجاً، على استعداد لتحويل الأكاديمية إلى ثكنة والأكاديميين إلى عسكريين نظاميين، لم يكنْ اتفاق عام على حرب العصابات واللجنة حُلّت.

اعتذر إينـريكي آندرادي. وفي حالات أخرى، سينضم إليهم، مع رغبة شديدة، من أجل منع الأديب الرديء على هذا القدر، من احتلال مقعد في الأكاديمية. لكنّ البلد كان يعيش ظرفاً سياسياً طارئاً، مع ديكتاتورية الدولة الجديدة، حيث أن الديمقراطيين، من وجهة نظره، كانوا ملزمين على التحالف مع جميع أولئك القادرين على المساهمة بطريقة أو بأخرى، في تغيير الموقف. ومع اللواء، وقد أحيل إلى الاحتياطي، بلا قيادة، لا يزال هكذا يمتلك رنيناً إلى جانب هيئة الضباط. خلال الحملة الأكاديمية قد تحدثوا، تبادلوا آراء، وضعوا خططاً. لم يعتبروا صوته حاسماً. لهذا بالذات فإن إينـريكي لم يبدله. فإذا خسر اللواء الانتخاب، فهو لن ينزعج. لكنه ما كان يرغب في المساهمة من أجل حدوث مثل هذا إذ كان يحتفظ بالتزامات سياسية مع المرشح. ومهما كانت النتيجة، فهو يريد الاستمرار على صلات حسنة مع اللواء. وبالأحرى، سيكون في موعد الانتخاب، في باهيّا. وقبل أن يسافر، سيسلّم رسالة بالأصوات للمرشح ذاته.

ورودريغو طلب بالمثل، أن يعفوه. يجب، حتماً يجب أن يكون له حيّز في حرب العصابات، فالمعركة كانت تجربة مفيدة، سيرويها، مستقبلاً، في مجلّد جديد من «ذكريات الغير» خاصته. لكنْ كانت لديه أيضاً أسباب ليبقى على هامش المناوشات. لم يكونوا مدنيين، مثل إينـريكي، لكنهم كانوا بالمثل، معتبرين.

ـ أسباب بيتية... ـ ضحك المعلم آفرانيو الخبيث والمتفهّم: ـ حسناً يا نبيلي. إبق معفياً.

بالنسبة إلى ر. فيغيريدو جونيور، ما كان يرغب شيئاً آخر أكثر من تسلّم مركز متقدم في المعركة. تحمّس لمعرفة الذي كان قد تمّ.

رواية آفرانيو بورتيلا
حول مناورات المرشح المشينة

عند وصوله إلى الأكاديمية باكراً بشكل متعمّد، التقى آفرانيو بورتيلا العميد فرانسيلينو آلميدا، إلى جانب أمين الصندوق، موقّعاً على دفتر الحضور، متسلّماً المغلّف الصغير بالمكافأة. اتجها معاً إلى الخزانات[1] التي يُحْتَفَظ في أدراجها الخاصة بمراسلات الأربعين خالداً.

- إني أراك على شيء من الاضطراب يا فرانسيلينو. وجعٌ ما؟ في عمرنا من اللازم أخذ الحيطة للصحة.

- صحتي على ما يرام، لا أحسّ بأي شيء.
- إذن؟ - يصرّ المعلم آفرانيو وهو مفعم الاهتمام براحة الزميل والصديق.
- أمور تقلقني.

جمعا المراسلات،عادا إلى السكريتاريّة. الروائي يقود الدبلوماسي إلى مساحة فارغة أمام إحدى النوافذ:

- أيّة أمور؟
- هذا اللواء، على سبيل المثال، تغيّر كثيراً، ألا يبدو لك؟

وإذ تلقّى الكلمة المنتظرة، مضى المعلم آفرانيو رأساً إلى الموضوع:

- حسب مزاجي، تغيّر أكثر من اللازم. ينبغي لي أن أقول لك يا فرانسيلينو، إني عانيت إحباطاً شديداً مع هذا السيد.

---

(١) ARMARIOS مفردها ARMARIO : خزانة الثياب.

كان يتكلم بصوت خفيض:

- كما أنت ربما قد أدركت، في البدء أبديت اهتماماً بترشيحه، وبلغ بي الأمر أن تكلمت مع صديقين أو ثلاثة...

- قالوا لي.

- بعدها، إذ أخذت علماً بوقائع معيّنة... كما قلت... منحطّة، غيّرت كلياً في الموقف. هنا بيننا، الذي لا يُعرف، إنه فوق كل شيء لا يعرف: صممت على الاقتراع بورقة بيضاء.

يُبدي العميد اهتماماً واضح التعبير:

- وقائع منحطّة؟ من أيّ نوع؟

- مناورات شنيعة. سأخبرك، في ثقة. لديّ صديقة قديمة، من أوقات البوهيمية، فرنسية تمتلك نزلاً[1] مضيافاً لنساء، فتيات منتقيات جيداً حتى لا يبدونّ أنهن صرن على ما هنّ عليه. ذات يوم التقيتها وأخبرتني بقصة لا تُصدّق. تخيّل أنت أن اللواء موريرا المعتاد على حياة البيت، دفع لإحدى الفتيات الصغيرات، مَنْ اعتادت أن تسلّي نفسها، لكي تتدبّر أصواتاً له، جاعلاً إيّاها تتصرّف كسكرتيرته لدى بعض الأكاديميين...

امتقاعٌ مباغتٌ اعترى العميد:

- إنه لأمر لا يُصَدَّق! يا له من وغد!

- مدام بيك، صاحبة النزل، تسلّت قدر ما تستطيع، وهي تردّ على المخابرات الهاتفية لبعض زملائنا، سعياً إلى الفتاة. النزل المرح تحوّل إلى مأوى حيي للفتيات، تديره راهبات، ومدام بيك إزاء الهاتف كانت الأخت بيك، راهبة فرنسية. قلّة احترام كلّي.

- نزل للنساء... هه! هه! اللواء، أليف الحياة البيتية، هه! أي ضرب من نذل! قال لي بايفا إنه فقير، مع هذا أرسل إليّ سلّة، باهظة، من بقالة راموس وراموس.

---

(1) PENSAO: بنسيون المقتبسة عن الأجنبية.

ـ معي أيضاً. مع إيفاندرو، فيغيريدو.

ـ ومن أين يتدبّر المال لكل هذا الإنفاق؟ ليوظف عاطلات، يقوم بمشتروات من راموس وراموس بالثمن الذي يستوفونه؟

أخفض المعلّم آفرانيو الصوت أكثر، متكلماً تقريباً في أذن الدبلوماسي، مَنْ كان وفاؤه للحكومة، مهما كان هو، ملحوظاً؛ كان لفرانسيلينو آلميدا رعبٌ من المعارضة:

ـ إذن، فأنت لا تدري أن اللواء هو رجل موثوق لدى آرماندو ساليس، من الاشخاص الذين حاولوا القيام بانقلاب ٣٨، جنباً إلى جنب مع التكامليين؟ لم يشترك في العراك لكونه لم يكن في الريو.

ـ كنت أعلم أنه كان من أتباع آرماندو...

ـ ولا يزال، إنه من أكثر النشيطين في المؤامرة ضد النظام. يريد أن يغدو منتخباً أكاديمياً بالضبط ليحوز على تغطية تضمن له عدم العقاب. إلى الوراء، كان واحداً من جهاز آرماندو ساليس، المسكيتيين[1] في سان باولو. إنهم الذين يدخلون بالمال إلى نفقات الترشيح. البسكويت الذي أكلته يا عجوزي كان انقلابياً.

ـ لكنْ ما دام الأمر كهذا، فإن وضع هذا الرجل في الأكاديمية هو خطر!

ـ مرشح وحيد، صرف الفتاة، أوقف السلال. من وجهة نظري، الأسوأ من كل شيء هو محاولة استعمال الأكاديمية من أجل غايات سياسية. أنت تعلم بأني لست متعاطفاً مع الحكومة لكنْ هنا في الداخل لا أقوم بنشاط سياسي. أفكر بأن الأكاديمية يجب أن تكون مصانة، أن تكون فوق مثل هذه الطارئات والصراعات. من أجل كل هذا، غيّرت صوتي.

ـ إني ما فكرت قط في التصويت له...

أكد العميد بطبيعة جريئة للدبلوماسي المجرّب:

ـ كنت ملتزماً مع سامبايو بيريرا. لديك كل الحق، الاقتراع لهذا الرجل جنون. حسناً إذْ حذّرتني.

---

(١) MESQUITAS: أفراد من عائلة بهذا الإسم.

كان لديه أيضاً شيء ما يرغب في استيضاحه:

ـ وماريا جوان؟ لماذا تصرّفت بطلب منه؟

ـ هذا مختلف. فماريا جوان هي إبنة عم زوجة اللواء، اهتمت بالأمر لتضرّع القريبة.

ـ إني شاكر لك يا بورتيلا. أشكرك شكراً جزيلاً.

ـ فوق كل هذا، لا تدع اللواء يستشفّ موقفك. إنه شخص خطرٌ، قادر حتى على عمل عنيف. إفعل مثلي، إذ أنني أعامله بشكل حسن جداً! أتركه يظن أن صوتي مضمون له. في ساعة وضع الوريقة في صندوق الاقتراع... بعد إحراق الاصوات، كيف يخمّن بمَنْ صوّت بورقة بيضاء؟

التحالف المختلق

قضى ليزاندرو لايتي خمسة عشر يوماً بالضبط مضطرباً، مدى من الوقت في المضي بين الجلسات الثلاث الأخيرة المحققة للأكاديمية بعد دفن العقيد سامبايو بيريرا.

في ذلك المساء، عند وصوله إلى البيت، لم يكن يبدو حتى هو نفسه، فالوهن قد اختفى. وكانت الدونا ماريوسيا تعرف تبدّلات مزاج الزوج.

ـ ما الذي حدث؟ لم تعد ممتعض الوجه.

ـ شيء لا يُصَدَّق، لو أخبروني به ما كنت لأصدق. لكنْ لديّ براهين حسّية. نفس الأشخاص الذين رفعوا ترشيح اللواء، عصبة بورتيلا، يسعون إلى دفنه. ولقد علمت أموراً تذهل. هذه المرة الأشد اهتياجاً هو إيفاندرو. لا يدعو اللواء إلا بخط ماجينو، اللقب الذي أطلقه آغنالدو.

روى لها تفاصيل، جملاً ذات معنيين، أسراراً منتزعة بمهارة، كلمات طليقة في الهواء، وشوشات مدركة:

ـ وأنت، ماذا أنت فاعل؟ تدعم اللواء؟

انفتح وجه القاضي السمين في ابتسامة عريضة:
ـ أنا؟ ما فكّرت. سأتحالف معهم... المقعد في المحكمة العليا ما زال بوسعه أن يأتي إلى أيدينا في مجرى الانتخاب. إذا لم ينتخب اللواء، إذا لم يبلغ النصاب...

يوضح، محللاً الظروف: إذا لم ينتخب اللواء، فهو، ليزاندرو، سيدعّم مركزه مضاعفاً، إذ يغدو في وضع ممتاز لاستعادة المركز الذي سيغدو شاغراً بتقاعد الوزير بايفا.

من الجانب الآخر، إن أنصار العقيد المتوفى، الأقوياء في الحكومة، سيصبحون راضين إذا رفضت الأكاديمية اللواء المعارض، عدو الدولة الجديدة. لن يعزوا إلى إيفاندرو وبورتيلا فشل الترشيح، بل إليه، نعم، الذي سيبلغ في الحال، جميع أولئك الذين كان على اتصال بهم في المعركة من أجل سامبايو بيريرا، بادئاً بوزير الحرب، مشير النظام، شغله الشاغل من أجل منع انتخاب العدو العنيد للمؤسسات. أخذ على نفسه هذه المهمة لكي يشرّف ذكرى صديقه الطيب الذكر، المختفي حين كان الوطن في أمسّ الحاجة إليه. من الجهة الأخرى، حالما يُعْلَن مجدداً المركز الشاغر للمقعد، سيرعى ترشيح راوول ليميرا، رئيس الجامعة الوطنية، صديق حميم لرئيس الحكومة. وهو طبيب لم يكن يتطلّع إلى مركز في العدالة. بوسع ليميرا أن يكون شخصاً مهماً مقرراً في ساعة اللائحة ثلاث مرات وساعة اختيار الوزير الجديد. خذ هناك رداء الأكاديمية، وأعط هنا حلّة[1] المحكمة العليا.

دسّت الدونا ماريوسيا أصابعها الانيقة والمعتنى بها جيداً في فروة الأسد المنبوشة الخاصة بالزوج:

ـ أما قلت لك بألاّ تقلق يا وزيري؟

هكذا حدث للتحالف المخْتَلَق بين قوى ايفاندرو وقوى ليزاندرو لايتي، وتلقت حرب العصابات فرقة من المتطوعين. تحالف ناكث العهد لكنه نشيط، ومطلق.

---

(١) TOGA: كسوة رسمية عن الرومان، جبة المحامي.

المقاومون[1]

في ظرف الحرب، سعى مثقفون فرنسيون من انتماءات وفئات مختلفة إلى اللجوء في البرازيل. كتّاب، ناشرون، صحافيون، مغنّون، رسامون، أناس عاملون في المسرح. أبرزهم جورج بيرنانوس، أنشأ إقامته في ميناس جيرايس[2]، والآخرون انقسموا بين ريو وسان باولو. انضموا إلى الأساتذة ذوي المكانة والواصلين في عام ١٩٣٧ لإدارة مقاعد جامعية في الجامعات الحديثة التأسيس، وبينهم برزت شخصية الكاتب والعالم روجيه باستيد.

بدعم المثقفين البرازيليين، نظّموا العمل لمساعدة المقاومة الفرنسية، لمساعدة القوات الفرنسية الحرّة، التابعة لديغول، ولرجال المقاومة. الحالات السائدة في البلد كانت مناهضة للنشاط السياسي للفرنسيين الأحرار إذ أن ديكتاتورية الدولة الجديدة كانت تتطوّر نامية بالتعاون مع المحور النازي ـ الفاشي؛ كانت تعلن بالفم الصغير عن انضمام قريب إلى الحلف المضاد للكومنترن، المنْجَز بين الرايخ، إيطاليا واليابان، بدعم اسبانيا فرانكو. رئيس الحكومة كان يحاضر، بحضور وزير الخارجية، مع سفير هتلر، مصوّباً تدابير قادرة على توسيع الروابط الإيديولوجية والاقتصادية لربط الأمتين وحملهما على معاهدة تحالف على الرغم من هذا، مستغلّين التناقضات الموجودة في تكوين الحكومة والتعاطف الأقصى للبرازيليين لفرنسا ولثقافتها، تمكّن المنفيون من وضع الأساس للتحرّك الناشط الذي لم يكن سرّياً كلياً وأقل منه كان علنياً. كانت الحكومة تضعهم تحت مراقبة الشرطة لكن تتحمّل نشاطهم. شخصيات ذات بروز

---

(١) وردت بالفرنسية LES MAQUIZARDS: رجال المقاومة .

(٢) ولاية من ولايات وسط البرازيل متاخمة لولاية سان باولو.

كبير في الحياة الثقافية، العسكرية والسياسية ـ وزير الخارجية المذكور أوزفالدو آرانيا، اللواء ليتون ده كارفاليو، وحسب الأقاويل المصرّة، إبنة الديكتاتور نفسها، آلزيرا فارغاس ـ كانوا يناهضون التحالف مع المحور ويساهمون في جهد تجمّع الفرنسيين الأحرار القليلي العدد إنما ديناميكيون، بحيث أنهم، بعيداً عن الوطن المحتل، يحاربون من أجل تحريره.

بين المثقفين الأشد ارتباطاً بالمقاومين الفرنسيين كان الأكاديميون إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، آلسيو ده آموروزوليما، آفرانيو بورتيلا، ر. فيغيريدو جونيور، الشاعران موريلو ميندیس وآوغوستو فريديريكو شميدت، الممثل بروكوبيو فيرّيرا والممثلة ماريا جوان، الكتّاب آلفارو موريرا، سيرجيو ميلييت، جوزويه مونتيللو، آنيبال ماشادو ومدير الجريدة الأدبية «دون كازمورو»، بريسيو ده آبريو، الذي عاش في باريس أكثر من عشر سنوات.

جميع هؤلاء وآخرون عديدون مناهضون للفاشية التقوا في بيت إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، لمناسبة مجيء المعلّم روجيه باستيد إلى الريو، لإنجاز محاضرات وإنشاء اتصالات. صداقة حميمة متولّدة من إعجاب مشترك، ربطت بين كاتبيْ البحوث. إيفاندرو جمع أصدقاء فرنسا أولئك حول باستيد لكي يدرسوا معاً وسائل فعّالة لمساعدة التنظيمات الديغولية والمقاومين والمقاومة. سيدة المنزل الشابة، إيزابيل، استقبلت إلى جانب أخيها، شعوراً بالرضى باعثاً على الاهتزاز.

بين القرارات المتَخَذَة، قرارٌ اكتسب اهتماماً خاصاً، للناتج المالي المضمون وفوق كل هذا للصدى؛ اقترحت ماريا جوان عرضاً وحيداً، لمنفعة الفرنسيين الأحرار، في يوم اثنين ـ اليوم الذي ترتاح فيه الفرق المسرحية ـ مسرحية أنطونيو برونو «ماري جون» التي مثّلتها للمرة الأولى في عام ١٩٢٢ في فرقة ليوبولدو فرويس. والحجّة ستكون الاحتفال بسنيها العشرين على المسرح. حماس عام تحت رعاية «دون كازمورو»، قبل آلفارو موريرا بإدارة المونتاج الجديد، وأخذ سانتا روزا على عاتقه السيناريوهات. ر. فيغيريدو جونيور سيكتب تقديم البرنامج، بروكوبيو سيعيش ثانية نجم هوليوود الزائف، وهي شخصية خلقها فرويس في المونتاج السابق، آفرانيو بورتيلا سيحصل على مسرح فينيكس مع آل غوينلي. الجميع، بدءاً من السيدات،

سيتحملّون تمرير الإيرادات، بالسعر المرتفع.

حفلة مرحة، مائدة وافرة، مشروبات ذات جودة، محادثة لامعة، الحماس المراهق والفوضوي من بيدرو وإيزابيل. المدعوون، بعد القرارات، انتشروا في الحديقة للتمتع بنسيم البحر في ليلة حارّة من كانون الأول. المعلّم آفرانيو، الدونا روزارينيو وماريا جوان جلسوا على أحد المقاعد الخشبية المستطيلة ذات الطابع الريفي، تحت شجرة جاكيرا[1].

- يا لها من فكرة جميلة، فكرتكِ يا ماريا جوان...

تأخذ الدونا روزارينيو يد الممثلة بود.

- تعلّمت من برونو أشياء كثيرة، أحدها كان حب فرنسا. وأكثر من ذلك، تدرين، لديّ دائماً رغبة في اعتلاء المسرحية التي كتبها هو لي، مسرحيتي. ربما تبدو اليوم ساذجة لكنَّ الأشعار تستمرّ رائعة، أليست كذلك؟ المشكلة الوحيدة هي أنه جعل «ماري جون» بأقل من عشرين سنة، وأنا أمشي في خانة الثامنة والثلاثين...

- لا تبددي نفسكِ. فلا أحد يعطيكِ أكثر من ثلاثين...

لاطف المعلّم آفرانيو وما كانت تنقصه الحقيقة.

- فكرت بدعوة ممثلة شابة إلى القيام بالدور. لكنْ، أعترف بأني أموت رغبة في أن أعيشه مجدداً. الأمر هو كما لو أن تلك الأيام عادت، فماري جون أنا هي في التاسعة عشرة. تُرى هل لا يزال الأمر ملائماً؟

- هدوءاً. - أجابت الدونا روزارينيو: - أنا لن أخدعكِ. لن أدعكِ تسقطين في أمر مضحك. مسألة ماكياج بسيطة.

كانتا صديقتين منذ زمن بعيد، منذ التركيب الآخر لـ«ماري جون».

غيّر المعلّم آفرانيو الموضوع:

- ومقترعونا؟ كيف العودة،

---

(١) نوع من الشجر الاستوائي يحمل ثمراً لذيذ الطعم.

LES TOURNANTS DE L'HISTOIRE? [1]

الضحكة الخبيثة لماريا جوان رجّعت صداها بين الأشجار:

- مسرحية مضحكة شديدة التسلية... قيل إني تمكنت من الحصول على أربعة أصوات لهذا اللواء، من دون أن نحسب بايفينيا[2]، وبعدها كان عليّ أن أزيل كل شيء، أقوم بنصف دورة تراجع. لو رأيتها وجوه الأعزاء...

أرادت الدونا روزارينو أن تعلم:

- كيف أوضحتِ أنتِ اهتمامكِ باللواء؟

- بكثير من البساطة: اهتمام القريبة، صرّحت بأني ابنة عم بالمصاهرة وصديقة حميمة لامرأته.

- والآن، لكي تطلبي أن يقترعوا بأوراق بيضاء أو أن يمتنعوا؟

- اخترعت قصة مخيفة تدع الأعزاء في أكبر ثورة. مثيرة للحنق، بدموع تقريباً، أظهر التصرّف الذي لا يُحْتَمل للواء. غير محترم للزوجة، البيت، الصداقة، حاول استبقائي في منزله، أراد أن يجرّني إلى السرير الزوجي. مشهد مرعب خليق بأفضل دراما إيطالية: اللواء محاولاً اغتصابي وأنا مقاومة، بطولية. وإذ تحررت منه بصعوبة، البلوزة ممزّقة، الثدي موجوع، هربت فيما كان يشتمني بأسوأ الأسماء. الأثر على الأعزاء غير عادي. إنهم يعلمون بأني ما ذهبت قط، في حياتي كلها، إلى الفراش مع زوج صديقة لي، مهما كان.

أزاغ آفرانيو بورتيلا عينيه إلى السماء ذات النجوم. هو مَنْ يدري أكثر من الجميع. فماريا جوان غير متساهلة، في المفاهيم المسبقة الصارمة والقليلة - كانت تقول: مبادئي. بعد برونو بسنوات، رشّح آفرانيو نفسه، فقبّلته من وجهه، وأغلقت الحديث:

- لا يمكن أن يصير، يا معلمي المعبود. تعلم جيداً أني أريدك، لكنني صديقة

---

(١) بالفرنسية: منعطفات التاريخ.

(٢) تصغير لإسم بايفا.

للدونا روزارينيو. مستحيل، لا تلحّ كيلا تحزنني.

النسيم يأتي من البحر، يتأخّر في مداعبة شعر الممثلة الكبيرة التي تنهي السرد:

ـ الأعزاء يغدون ثاثرين. من يقدر على اقتراح مثل هـذا الوحش؟ مسكين اللواء.. لماذا انقلب هكذا، بصورة جد مباغتة؟

ـ ليس هو سيئاً، إنه لواء.

يقترب ر. فيغيريدو جونيور، وعينه ذات طمع:

ـ ماريا، كنت أتحدث مع آلفينيو ـ يشير إلى آلفارو موريرا ـ لدينا فكرة للعرض، ابتكار.

تنهض ماريا جوان، تقدّم ذراعها إلى الكاتب المسرحي الذي ترجم إبسن بشكل خاص لكي تستطيع هي أن تعيش دور هيدا غابلر:

ـ تعال واخبرني...

رافقت نظرة آفرانيو بورتيلا الشبحين الذين يختفيان في العتمة. ماريا جوان يجب ألّا تكون صديقة لامرأة فيغيريدو. شخصية حيوية، تمضغ رجالاً وإنجازات، جامعة ثروة ومجداً، أميرة سابقة لـ«ألمي ـ كاريبي»، مولودة في ضاحية فقيرة، ممثلة عظيمة. غراميات برونو، نساؤه كلهن موسومات من قبله. A في أنطونيو A في حب[1]، علامة منقوشة في القلب.

المعلّم بورتيلا لم يخبر روزارينيو بالنبأ إذ أنه لم يقرر بعد مواجهة رزمات الأوراق البيضاء. لكنْ إغواء الرواية ينمو في الليلة التآمرية التي جلس فيها المقاومون في محطاتهم الوقتية في مرتفع سانتا تيريزا، في مدينة ريو ده جانيرو.

---

(١) كلمة «حب» في البرتغالية: **AMOR** .

كلوكلو والسبع قفزات

عديمة التبصّر، أوّاه، عديمة التبصّر! إنما تمتلك قلباً طيّباً وهي محبّة للعدل، يفكر اللواء فالدوميرو موريرا عند سماع اقتراح سيسيليا. حرفت الشابة الانتباه عن المذياع، حيث ستيلا ماريس تغني البلوز، لكي توصي:

ـ أبتاه، عندما تملي إرادتك هناك في الأكاديمية، تدبّر في الحال جائزة لكلاوديونور. فكلوكلو يستحق.

ـ تقولين حسناً، فالجدارات لا تنقصه. صديق مخلص، مع إحساس بالتدرّج في السلطة، حتى أنه لا يبدو ابن بلد.

في الواقع كلاوديونور سابينسا يبدو أكثر من جندي في خدمة اللواء، رهن أوامره. يرافقه الخطوات، يصغي ويصفّق لمحاضرات الأكاديميين، يستمع إلى محضر الزيارات البروتوكولية، يعدّ ويعيد عدّ الأصوات، عدٌّ تحوّل لحسن الحظ بلا طائل بسبب وفاة ملائمة للعقيد.

بطريقة أخرى، وبشكل خاص جداً، إن مؤلّف «قواعد إيضاحية للغة البرتغالية» (للسنة الأولى والسنة الثانية والسنة الثالثة) استرد المسؤولية بوفاة الخصم المخيف لوالد سيسيليا. وهو كمتعاطف مع الروحانية، يتردد من مرة إلى أخرى إلى تيريرو[1] للأومباندا[2]، حيث تسود البدينة والمطلقة الأم غرازييلا دو بونوكو، التي تتلقى، بين أخرويات أقل رعباً، الذات المحترمة القادرة تحت إسم إيشو[3] السبع قفزات، إيشو قادر

(١) TERREIRO: مكان تمارس فيه طقوس الماكومبا لدى الزنوج البرازيليين.

(٢) UMBANDA: ضرب من الطقوس الوثنية التي يخالطها السحر والتنجيم مثل الماكومبا.

(٣) الكاهن الذي يمارس الطقوس الوثنية الزنجية وهو في منزلة الشيطان.

على مضار لا توصَف. عندما يأتي هو، طلباً للأم غرازييلا، فالأمر هو بمثابة طلق ناري وسقوط[1]. من أجل شؤون المال والحب، السرير في الفعل ومنع الفعل، الحسد والعين الشريرة، تهرع الكاهنة إلى سحرة آخرين. إلى الخلاسي كوريبوكا، الممتاز في شفاء المرضى، إلى يمانجا[2] ماريه ألتا، الاختصاصية في مكائد العشاق، وإلى العجوز الأسود ريتاسينو مَنْ هو قوي في قمار البيشو[3]، اليانصيب وكل شيء آخر يشير إلى النقود. الأم غرازييلا تستبقي السبع قفزات من أجل الاستغاثات اليائسة، حالات صعبة الحل، مصرّة على معالجة خاصة، سحر قوي.

سابينسا أوصى ودفع لقاء عمل جوهري جداً ثمناً باهظاً للسبع قفزات لكي يغلق دروب الأكاديمية على العقيد سامبايو بيريرا. كانت نيّة المتوسّل انتخابية فقط. دم الديوك وشمع الشموع كانا يجب أن يغلقا فقط أبواب بيت ماشادو ده أسيس[4] أمام مناهض اللواء موريرا. لكنَّ السبع قفزات، كما قالت الأم غرازييلا وتحقق منه سابينسا، كان ثقيل اليد، لا يتصرّف بنصف تدابير. تدابير كليّة، صعق العقيد.

اللواء موريرا، الكاثوليكي عملياً لا يؤمن بهذه الخرافات. لكنَّ الدونا كونسيبسون وسيسيليا المنفصلة عن زوجها لم تكن لديها لحظة من الشك، فأرسلا مساعدة لشراء الكاشاسا[5] وكمية من السيجار وبعثتا بها إلى صاحب الفضل إيشو. خرافة أم عمل سحري، فإن سابينسا صار مستحقاً للامتنان.

ـ في توزيع الجوائز السنة المقبلة سأحاول منح سابينسا جائزة. بوسعه أن يتسلّم جائزة جوزيه فيريسّيموعلى مجموعة الأعمال التي نشرها الآن.

اللواء على علم بكل شيء له علاقة بالجوائز التي تمنحها الأكاديمية.

ـ ألا يمكن أن يحصل هذا الأمر هذه السنة يا أبي؟ ستكون هديّة حسنة في عيد

---

(١) مصطلح بمعنى أن الأمر ينجز كاملاً وبسرعة.
(٢) YEMANJA: إحدى الآلهة في معتقدات الزنوج البرازيليين الوثنية.
(٣) BICHO: ضرب من القمار يستخدم فيه صور وأسماء الحيوانات بدلاً من الأرقام.
(٤) كاتب برازيلي مشهور يطلق إسمه على مقر الأكاديمية.
(٥) نوع من العرق.

الميلاد لكلوكلو.

ـ جائزة الأكاديمية ليست هديّة عيد الميلاد، أيتها الحمقاء. لكنْ بوسعه أن يبقى مطمئناً، سأهتم بهذا الموضوع. ولا تطلقي ألقاباً مضحكة على فقيه في اللغة، برغم كونه شاباً قد حاز على شهرة ما.

تعلّق سيسيليا راضية:

ـ بدخولك الأكاديمية ستغدو يا سيدي مهماً نوعاً ما، أليس كذلك يا أبتاه؟ فهنالك لا يوجد غير المتضلّعين، الكبار.

مغتنماً اللحظة النادرة لاهتمام الإبنة في مثل هذه الشؤون، استسلم اللواء للأسرار:

ـ الأكاديمية تحتاج إلى إصلاح جدي في أطرها، متأنٍ بشكل ملزم إذ أن المركز هو لمدى الحياة. في الانتخابات المحققة في السنوات الأخيرة، حصل تخلٍ واضح عن بعض المبادىء التي كانت توجّه اختيار الأكاديميين منذ تأسيس المقر. قبلاً كانت الأولوية تُعطى للبارزين في القطاعات العليا من المجتمع. اليوم الأفضلية هي للكتّاب، حتى عندما لا يحوزون على توصيف أكثر من التوصيف الأدبي. في مثل الدرجة فإن المؤسسة الشهيرة تغدو بلا ممثل للقوات المسلّحة، عبثاً! ليس لأنه ضد دخول الكتّاب، إنما من اللازم أن يحسن الاختيار. بعض الذين هم هناك متواجدون، لينجّني الله! يجهلون القواعد الأساسية في النحو، يغتالون اللغة البرتغالية. للبعض ينقص حتى الوقار المطلوب برداء الخلود. نموذج الاختيار الكامل.

كان يقول من دون خيلاء: كان هو نفسه كاتباً وضابطاً عالي الرتبة في الجيش، لواءً. يواجه الإبنة التي تقسّم انتباهها بين خطاب الأب وموسيقى المذياع، صوت إلهي هو صوت ستيلا ماريس، ويأمرها.

ـ لن تخرجي من هنا لترددي الذي قلته لكِ. لأي كان، أسمعتِ؟ وعلى الأقل لأحد الأكاديميين.

لو لم تخبر هي رودريغو، عندما... عديمة التبصّر، أوّاه، عديمة التبصّر! برغم كل شيء، إبنة طيّبة؛ قلب من ذهب ومحبّة للعدل.

القليلة الملح

قلب من ذهب ومحبّة للعدل؛ ربما سخيّة مع أولئك الذين تستسلم لهم، في انتظار أزلي للعثور على مَنْ لا يشبع منها. لماذا ينبغي أن يكون الأمر كهذا دائماً؟ حين يتعرّفون إليها، يضطرمون في الرغبة، يلاطفونها، يسعون إلى الفوز بها، يضعون العالم عند قدميها، في البدء كل شيء سار على ما يرام، فسيسيليا لطيفة ومثيرة وتستسلم بلا تحفظات، دورة كاملة.

لماذا لا يدوم الاهتمام، ففي وقت قصير يتلاشى؟ أحدهم، جميل وبليد، قذف في وجهها كلمة قاسية: «سوقيّة، أنتِ سوقيّة، ألم تلاحظي نفسك»؟ وآخر أقل جمالاً وأشد فظاظة، إذ أشار إلى الساعة الحاسمة، استخدم استعارة مهينة: «قليلة الملح، أنتِ قليلة الملح كورقة خس نضرة بلا توابل».

في البداية كانت تبكي، وبعدها صارت فقط تطلق يد التحفظات، لأنها لا تستطيع العيش بلا رجل. لمَنْ ستكون؟ ـ الدونا كونسيبسون لم تحصل أبداً على إجابة للسؤال.

الأول والوحيد على اللائحة ـ جراح وطبيب الأسنان، مصفف الشعر جيداً، يشبه جوزيه موجيكا[1]، سقط خارجاً عندما فوجئت برودريغو ـ كلاوديونور سابينسا لم يلبث أن رأى فيها مكافأة على اجتهاد طويل وملحّ. سيسيليا أنست إليه، وجدت الدعم في ذراعيه، في اختلاس النظر كانت تراقبه وتخفض عينيها حين تغدو مباغتة، تستمع إلى القصيدة وهي تتنهّد: من أجلي؟ لكنّ، يا لها من جميلة! لا أستحق كل

---

(١) مغنٍ وممثل مكسيكي في الخمسينات هجر السينما إلى الرهبنة تنفيذاً لعهد قطعه لأمه قبل وفاتها.

هذا. ساعة الانتصار تدنو.

مع رودريغو بلغت سيسيليا القمة؟ نبيل، ثري، اسمه في الجرائد، صورته في المجلات، بين التقريظ، هو سامٍ أكثر من اللازم. ما كان ليقول لها أبداً: سوقيّة أو قليلة الملح، إنه تجسيدٌ للدماثة. معَ كلٍ هذا، إنها تشعر أن الاهتمام انتهى، اللقاءات تتباعد؛ في البدء كانت اللقاءات يومياً، وعلى الأثر، يوم نعم ويوم لا، بعد ذلك، كل ثلاثة أيام، والآن مرة واحدة فقط في الأسبوع ويا حبّذا. ففي آخر لقاء أعلمها رودريغو بأنه عما قريب سيذهب إلى بيتروبوليس حيث سيقضي عيد الميلاد والسنة الجديدة، سيرجع إلى الريو في الشطر الثاني من شهر كانون الثاني ليقترع للواء.

قدّمت سيسيليا نفسها لمرافقته؛ بوسعها البقاء في أحد البنسيونات، لكنه، دائماً برقة شديدة، رفض موضحاً أن الانفصال القصير سيجعل اللقاء من جديد أشد رغبة واشتياقاً. بيد أن سيسيليا تعلم أنه لن يكون ثمة لقاء جديد.

على أي حال، هو لن يغادر في التوّ. ينوي حضور العرض الذي سيقدِّم عشية عيد الميلاد من قبل ماريا جوان، التركيب[1] الجديد لكوميديا أنطونيو برونو. في الاسبوع المقبل، إذ قبله لن يكون لديه دقيقة حرّة، سيجلب رودريغو بطاقات دخول لها وللواء وزوجته. يجب أن يقوم بتقريظ الشاعر، في خطاب التسلّم، والد سيسيليا لا يمكنه التخلّي عن حضور المسرحية، وكلها شعرٌ. ملك التهذيب الحسن، يطلب الإذن ليقدّم تذاكر الدخول للعائلة. في الاسبوع المقبل، يؤكد في اللقاء الأخير، تتنبأ سيسيليا. جد راقٍ، أنيق ولطيف، كم هو حسنٌ في ضربة الساق، يا للحسرة!

في هذه المناسبة دعت سيسيليا للمرة الأولى كلاوديونور سابينسا كلوكلو، وردّ كلوكلو باندفاع العاشق: سيسا، سيساي العذبة!

---

(١) MONTAGEM.

الزيارة التي لا يستغنى عنها

الزيارة لا يستغنى عنها إطلاقاً، لا يستطيع أي مرشح إعطاء نفسه الحق في عدم زيارة هذا الأكاديمي أو ذاك، بأي ذريعة كانت. الأكاديمي، أجل، هو سيد في الإعفاء أو حتى في رفض الزيارة، لكنَّ المرشح يستطيع فقط التماس اليوم والساعة ليبلغ بقصده ويطلب الدعم بإلحاح.

في المكتبة، وهو مسترخٍ على أريكة وفم[1] السيجارة بين أصابعه، يعرض العجوز فرانسيلينو آلميدا نظريته على الزملاء الثلاثة الذين كانوا يتداولون في الأمر عند وصوله. العميد، خالدٌ منذ ثلاثة وأربعين عاماً، بقي حياً من كادر المؤسسين، سلطة لا تناقش في كل ما له علاقة بالقانون الأساسي، النظام وتقاليد الأكاديمية، وهو يصغي بانتباه واحترام:

ـ أعلم جيداً أن الزيارة غير مثبتة في النظام، ليست معنيّة في التكليف الكتابي. على كل حال هي ملزمة أكثر من أي مادة قانونية أو نظامية. إنه لازم من أجل أن يغدو المرشح منتخباً. غير مفيد الكلام في انعدام الصداقة، وأقل منه الازدراء. ههنا في هذا المنطق، لا يوجد أعداء ولا حتى غير أحباء فالجميع خليقون بالتقدير.

حول الموضوع، كان بوسعه إلقاء خطاب خلال ساعات إذْ هو عنده جوهري من أجل استبقائهم سليمين إزاء وظيفة وسلطة المؤسسة الشهيرة.

ـ واقع أن أكاديمياً يظهر علانية التعاطف مع مرشح محدَّد، واعداً إيّاه بالصوت، لا

(١) CIGARREIRA: في العامية: بز السيجارة.

يلزم المرشحين الآخرين. خلاف ذلك، الزيارة تغدو لا بدّ منها.

ينفخ بسرور دخان السيجارة، خمس لفافات فقط أثناء اليوم لكي يتجنّب الالتهاب الشُعَبي والزكام ويتابع:

ـ الاكاديمية هي وحيدة، لا مثيل لها؛ يجب أن تكون مجاملة، متزلّفة. وبما أن الأكاديمية مكوَّنة من أكاديميين، يجب أن نكون، منطقياً، مجاملين، متملّقين. ماذا يغدو شأننا، بلا الزيارات؟

استقبل الزملاء السؤال بهتاف مقرّ لتأكيدات الدبلوماسي الموقّر. وأنهى صارماً:

ـ اللواء يقترف خطأً خطيراً، غير قابل للعذر، مصرّحاً بأنه لن يزور ليزاندرو. لماذا يتخذ هذا التدبير المتعجرف؟ لأن ليزاندرو قد عمل من أجل ترشيح سامبايو بيريرا؟ إنه حقٌّ ممنوح له وهو مارسه. اللواء هو الذي ليس لديه حقٌّ في أن يثير وينتهك أحد تقاليد الأكاديمية الأكثر صحّة. يتصرّف بشكل سيء جداً.

عرضُ العميد يستحق تأييداً إجماعياً من الزملاء الذين يصغون إليه. ويكمل أحدهم:

ـ إضافة إلى كونه متعسّفاً، فإن خط ماجينو متشدّق، وأنا لا أعرف مَنْ هو الأسوأ.

كان بوسعه أن يضيف أنه علاوة على كونه متعسّفاً ومتشدّقاً فاللواء كان غير بريء؛ أسرّ لاثنين أو لثلاثة من الخالدين بقراره القاضي بعدم زيارة القاضي ليزاندرو لايتي الذي عامله بحقد خلال الحملة والذي يواصل المعركة ضد ترشيحه، محاولاً التأثير على أكاديميين ـ ناخبين سابقين لسامبايو بيريرا ـ من أجل الاقتراع بأوراق بيضاء. رتبته كلواء كانت تجبره على اتخاذ ذلك القرار في المجابهة. مرشحٌ وحيد، قد يعطيه ترفاً معيّناً، فلديه امتيازات.

إن نجوى أُسرّ بها لأكاديمي في فترة الانتخاب، هي سرٌّ في كيس بلا قعر، تنتشر محمولة بالريح ـ بهواء المراوح في الأمسيات الحارّة لصيف الريو. فوق كل شيء، عندما يظهر هرطقة وإكراهاً، مَنْ استنبط أن المرشّح الوحيد يتمتع بترف وامتيازات؟

ليزاندرو كان الاستثناء الوحيد المفتوح من قبل اللواء في الحج الخاص بالزيارات.

تحمّل القطار إلى ميناس[1] جاعلاً عظامه ترتجّ، والأمر يستحق العناء؟ جلب صوت الكاتب القصصي المصاب بالفالج. إلى سان باولو سافر بالطائرة، استُقْبل بحفاوة عظيمة من شاعر «رومانسيرو دوس بانديرانتيس». تذكّرا أحداثاً مهمّة من ثورة ٣٢، التي اشترك فيها الشاعر في أركان حرب العقيد إيوكليدس فيغيريدو. وبدلاً من العشرين دقيقة الاعتيادية، طالت الزيارة لفترة ما بعد الظهر كلها. وبالنسبة إلى الصوت، فإن الشاعر الغنائي صاحب «كتاب المزامير» وعد بإرساله رأساً إلى الأكاديمية، حسب العادة المتأصّلة. رحلة باهظة بسبب تذكرة الطائرة، لكنْ على الرغم من المصروف فإن اللواء عـاد منشرحاً. إذ تحقق من أن ذلك الاقتراع الشهير سيكون له بالتأكيد، حتى ولو أنه بدلاً من كونه مرشحاً وحيداً، كان سينافس في الانتخاب الوغد سامبايو بيريرا. فالشاعر ماريو بوينو كان رفيق آداب وسلاح.

(١) ميناس جيرايس: ولاية متاخمة لولاية سان باولو في وسط البرازيل.

الزائر السابق

أظهر نفسه أنه أقوى في الشعر مما هو في رفقة السلاح. قبل أن يتواجد اللواء في سان باولو بأيام قلائل، المحارب إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، المدعو «الـ باسيوناريو» من قبل آفرانيو بورتيلا، لغاية مقتصرة على احتضان[1] ماريو بـوينو والتداول معه في شؤون أكاديمية. صديقان قديمان، بوسيلة معيّنة قريبان لكون زوجة الشاعر ابنة عم المتوفاة آنيتا. في قدومه النادر إلى الريو، كان بوينو يحلّ ضيفاً في المنزل الكبير في سانتا تيريزا.

حملت تركة برونو إيفاندرو مرتين إلى البيت السانباولي جداً للمتحدّر من البانديرانيتس. الأولى ليطلب منه الاقتراع للواء. مهمّة سهلة، فماريو بوينو كان يكره سامبايو بيريرا الذي كان لا يزال يمارس رئاسة قوات الأمن والاستعلامات في الجيش في سان باولو، بعد اندحار الثورة في العام ١٩٣٢، وعانى من المنتصرين، متّهماً إياهم بالانفصاليين.

ـ إنه نقيب الغابة[2]، كيف تستطيع التفكير بأني قادر على تأييده؟ ألا تعرفني؟ قدم لزيارتي، عاملته بشكل حسن ووعدته بالصوت مثلما أفعل مع الجميع، فأنا رجل مهذّب. لكنّ الواضح أني سأقترع للواثك الذي هو أيضاً شارك في الملحمة الدستورية.

كان الأمر أشد صعوبة في المرة الثانية، عندما جاء يطلب من الشاعر بألّا يقترع للواء، يقترع بورقة بيضاء. فالملحمة الدستورية بدت عقبة جديّة.

(١) ABRAÇAR : أخذ بالإحضان، عانقه.

(٢) شخص يمارس تعقب الزنوج العبيد الآبقين.

ـ قد يكون أديباً رديئاً، قوياً جداً ولجوجاً، أصدّق أنه كهذا. لكنه شجاع، لبّى نداء سان باولوا! علاوة على كل هذا، أتردد قليلاً جداً على الأكاديمية، أكاد لا أذهب أبداً إلى الريو، ولن يزعجني.

كان إيفاندرو يتحسّب الاعتراض، فكل ما له علاقة بحركة ٣٢ بات مقدّساً للشاعر الجوّال صاحب «إلى الأمام، من أجل سان باولو!» غناء بطولي، الشيء الوحيد الرديء في الواقع في كل إنتاجه الشعري الغزير. إنما إيفاندرو كان لديه شخصٌ مهم قويّ:

ـ حسناً، ظننت أن رغبتك الشديدة هي رؤية جوزيه فيليسيانو في الأكاديمية.

يمسح النظّارة بلا ماسكين ببطء ويضعها ثانية على أنفه:

ـ حين خابرتك هاتفياً لأبلغك بموت برونو، اتفقنا على أن المرشح الكامل لخلافته كان فيليسيانو وكنت أنت مَنْ لفظت اسمه أولاً. شاعرٌ كبيرٌ، شخصٌ ممتازٌ وأكثر من كل ذلك، سانباولي، شخصٌ من جنسك.

ـ واضح أن فيليسيانو هو مثالي، لكنْ مع هذه القصة عن عسكريين. . .

ـ أردت أنا رفع ترشيح فيليسيانو لكنَّ آفرانيو رأى أنه يلزمنا لواء لكي نواجه سامبايو بيريرا، الذي كان عقيداً. كان مصيباً، وها نحن، إني أقول لك، إنه مع لواء هو كل شيء، لا أدري إذا كنا سنهزمه. لكنْ الفاشي لم يتحمّل عثرات الحملة، فقضى نحبه. فلأي شيطان يفيدنا، لواء الآن؟ هل سبق لك وسمعت عن وجود مقاعد أسيرة في الأكاديمية؟ واحد للجيش، وآخر للبحرية، وآخر للطيران؟ يوم أكثر يوم أقل، الشرطة العسكرية وجهاز الإطفائية سيطالبان بمقعديهما. إسمع يا ماريو: هيّا بنا نمنع هذا اللجوج من أن يغدو منتخباً، لدينا مجدداً مركز برونو الشاغر وسيكون دور فيليسيانو.

ـ و. . . هل ثمة إمكانيات؟

ـ في حساباتي، الأمر موقوف على صوتك.

كان ماريو بوينو يقدّر جوزيه فيليسيانو كما لو كان شقيقه في الدم. رفيقان منذ

الشباب في علاقات الصخب وفي الليلة «السانباولية المجنونة» وكانا قد ناما مع النساء اليسيرات المنال أنفسهن، وغازلا بنات العائلات بذاتهن، ولعبا في احتفالات كرنفالية مجنونة في الصالونات المزدانة بالزينة من قبل لازار سيغالي، معاً اشتركا في أسبوع الفن الحديث ووقّعا بيانات عنيفة ضد الأكاديمية البرازيلية للآداب. في العام ١٩٣٢ كان جوزيه فيليسيانو في كامبوس دو جوردان، في مصح للمصابين بالسل. كان يعالَج من التدرّن الرئوي. لم يتردد ثانية واحدة، اكتشفاه جندياً متطوّعاً في جبهة ميناس جيرايس. أعادوه بالقوة لإكمال العلاج.

ـ ربحت أيها الفوضوي العجوز. لن أقترع بورقة بيضاء لأن اللواء كان محارباً في ٣٢ لكنني سأمتنع. النتيجة ذاتها، لكنْ هناك فرق...

ـ أعلم جيداً.

ـ أحتفظ بصوتي لجوزيه. في نهاية الأمر، إذا كان هو لم يبلغ مرحلة القتال فلأن الأطباء انتزعوه من الخندق. وأي شاعر يا عجوزي... كان ماريو بوينو يحوز موهبة نادرة في الإعجاب:

ـ أكبر شاعر في سان باولو.

ـ شاعر كبير، نعم، لكنْ أكبر شاعر في سان باولو هو أنت.

كان ماريو بوينو يحوز موهبة نادرة في الإعجاب وأيضاً الموهبة الأقل ندرة، بما يكفي لأن تكون مشتركة في الأوساط الأدبية، الاعجاب بنفسه بالذات:

ـ كلا يا إيفاندرو. فأنا لست أكبر شاعر في سان باولو، أنا أكبر شاعر في البرازيل.

أشياء تستبق العرض

في آخر يوم اثنين قبل عيد الميلاد، تحت توقّع متفهّم وشره، قدّمت ماريا جوان على مسرح تياترو فينيكس في ريسيتا ده غالا، الكوميديا الشعرية لأنطونيو برونو، «ماري جون»، بعد ثمانية عشر عاماً من حفلة الافتتاح. على الرغم من الأسعار المرتفعة جداً المستوفاة بتذاكر الدخول، لم يتبقّ مكان واحد فارغ؛ كان يوجد أناسٌ وقوفاً في الممرات الجانبية وأناس يجلسون على أرض الممر في الوسط. حتى لحظة ارتفاع الستارة[1] كان طالبو تذاكر الدخول يتدافعون بالمناكب، لصق مقصورة بيع التذاكر حيث يعلن ملصقٌ صغيرٌ: الأماكن نافدة.

قدمت ريو ده جانيرو كلها، مَنْ كان أكثر أهميّة في المدينة؟ من الوزير آرانيا، الذي شكّل حضوره طابعاً مضاعفاً للسياسة الخارجية في الدولة الجديدة، إلى ستينيو باريتو المقرف، مَنْ فرضت عليه ماريا جوان ثلاث مقصورات، مستوفية ثروة صغيرة.

كان العرض معلناً عنه ومثاراً بشكل وافر في الصحف ومحطات الاذاعة. ريسيتا احتفالية بمرور عشرين سنة على ظهور ماريا جوان في مشهد ـ محسوبة بدءاً من الادوار الصغيرة في الاستعراضات التي نجمتها مارغاريدا فيلار ـ ستكون نهاية السنة المسرحية، حدثٌ منقطعُ النظير في الحياة الثقافية للعاصمة[2].

خلال بضعة أيام، أشارت نشرة الأخبار إلى واقع كون العائدات ستخصص لقضية فرنسا الحرّة. ونشرت «دون كازمورو» مسبقاً التقديم الذي كتبه للبرنامج

---

(١) PANO : قماش، المقصود قماش الستارة.

(٢) كانت مدينة ريو ده جانيرو هي عاصمة البرازيل في ذلك الوقت الذي تجري فيه أحداث الرواية.

ر. فيغيريدو جونيور وهكذا تحوّلت الواقعة عامة. «مع الاحتفال بمرور عشرين سنة مجيدة في المسرح، صممت ماريا جوان على تكريم فرنسا الخالدة، الآن مداسة بجزمات النازيين، مكرّسة حفلتها للمقاتلين الذين يصارعون ضد المحتل الدموي والظلامي لوطنهم، معيدة العائدات المحققة بكلّيتها إلى الفرنسيين الأحرار. وإنه لأمرٌ يستحق العناء إبراز واقع؛ جميع الذين تعاونوا لتحقيق العرض، من أصحاب مسرح فينيكس حتى العاملين على الآلات[1] والنجارين، فعلوا ذلك من دون أن يتقاضوا مقابلاً، في برهان على الصداقة والإعجاب بالسيدة الأولى[2] لمسرحنا وفي برهان على التضامن الذي لا يُحَدّ مع الكفاح البطولي للشعب الفرنسي الذي هو أيضاً كفاحنا. إن أيّة مسرحية غيرها ليست أكثر تخصيصاً لهذه الحفلة الخاصة بماريا جوان وبفرنسا المقاتلة من كوميديا أنطونيو برونو «ماري جون». إنها مؤلّفة خصيصاً لبداية ماريا جوان في المسرح الخطابي، بتلقين من ليوبولدو فرويس، من أجل الشاعر الكبير والذي لا يُنْسى مَنْ كتبها، لفرنسا حيث أقام والتي تغذّى من ثقافتها، وكانت وطناً ثانياً. قلبه لم يحتمل رؤيته لها ذليلة، في الأسر. أنطونيو برونو كان أولى ضحايا سقوط باريس».

لكون المجلّة الأسبوعية لم تُعَطَّل أو تُمنع، فإن الصحف الأخرى ومحطات الإذاعة أيّدت العمل ومجّدت تصرّف ماريا جوان، وانهمرت النعوت كانهمار المطر، فصيحة وحنونة. عُلم أن مدير الـDIP ـ بالتناقض في الشخصية ـ أعطى الإذن شخصياً بنشر نص فيغيريدو وألقى نظرة مكثّفة على نشرة الأخبار. لم يتمكن من إبقاء هذا الموقف المتحرر لوقت طويل. حالاً أتت أوامر عليا، صادرة من نفس الديوان، في قصر وزارة الحربية، الذي كان قبلاً مشغولاً من العقيد سامبايو بيريرا، مُدينة نشرة الأخبار، واصفة إياها بالمتمرّدة، وفي النتيجة، حظرت الـDIP أيّة إشارة، في الإعلان وفي الأخبار، حول العرض إلى فرنسا المحتلة أو الخالدة، إلى النازيين وإلى رجال المقاومة الفرنسية. ومُنع أيضاً توزيع البرنامج.

بيد أن الشر قد وقع. ففي الريو لم يكن الكلام يجري عن شيء آخر، ما عدا عن

---

(١) المقصود أجهزة الاضاءة وغيرها.

(٢) المقصود النجمة الأولى.

«ماري جـون»، والسعي إلى تذاكر الدخول الذي تحوّل تقريباً إلى ساحة معركة. عُرضت كونتوات[1] من الريالات[2] من أجل تذكرة دخول واحدة وأكثر من ذلك أيضاً لقاء عدد من البرنامج مع نص ر. فيغيريدو جونيور.

رُشّح أيضاً أنه إضافة إلى الصراع على تذاكر الدخول، نشبت معركة أخرى، أكثر جدّية، في الوسط الحكومي. فالقطاعات الأكثر جذرية في الدولة الجديدة طالبت بمنع العرض؛ وعناصر متعاطفة مع قضية الحلفاء دافعت عن تحقيقه. والشائعات كانت تنتشر، مشيعة تهديدات وتوقعات مختلفة. جرى الكلام على ضغط قوي يمارس على آل غوينليس، مالكي المسرح، من أجل حملهم على التراجع عن التنازل عن فينيكس. فلم يعطِ نتيجة. عُلم أن المسؤولين عن تركيب المسرحية قد قرروا عرضها حتى ولو منعتها الرقابة؛ أبواب المسرح ستكون مفتوحة للجمهور والستارة ستُرفع في الساعات المحدَّدة، والممثلون سيبدأون العرض حتى ولو تعرّضوا للمجازفة بالسجن والملاحقة القضائية. رووا أن إبنة رئيس الحكومة آلزيرا أبلغت أباها بأنها نفسها ستحضر إلى فينيكس إذا مُنع العرض وستصفّق للفنانين.

أخيراً حُرر العرض بشرط هو ألّا تكون في أيّة لحظة ـ فوق كل شيء في المشهد المفتوح ـ أيّة إشارة إلى علاقته بتنظيمات فرنسا الحرّة. فقط عرضُ حفلة، احتفاءً بعشرين سنة لماريا جوان على المنصّة.

كل هذا حدث كما لو أن إعادة تركيب «ماري جـون» فقدت حدود اختصاص أهميتها البدائية لكي تتحوّل إلى مواجهة بين قوى الفاشية ـ النازية الكابوكلية[3] والمثقفين البرازيليين، مرة أخرى حواجز الحرية. هكذا حدث منذ أزمنة المستعمرة وشعر خلاسي باهيّاني، هو غريغوريو ده ماتوس.

---

(١) مفردها CONTO ورقة نقدية قيمتها ألف كروزيرو.

(٢) REIS مفردها REI: في الأصل ملك أو النسبة إلى ملك في الأجنبية REAL وهي وحدة نقدية متدنية.

(٣) CABOCLO: الخلاسي المهجن من أب أبيض وأم هندية، صفة للشخص ذي البشرة النحاسية، وتطلق على الفرد الغادر.

ماري جون، ماريا جوان، ماريان

الدفعة الأولى من التصفيق اندفعت حين ارتفعت الستارة في مسرح فينيكس، مظهرة ديكورات سانتا روزا، ثورة في فن تصوير المشاهد[1] في المسرح البرازيلي، بداية عهد جديد. تصفيقٌ تكرر عند ظهور كل فنان، زائداً في تصفيق يلبث وقتاً أطول للترحيب ببروكوبيو فيرّيرا في دور المحتال الذي كان قد أُعلن ممثلاً في السينما الأميركية الشمالية وهو دور ابتكره قبلاً ليوبولدو فرويس، الذي إذ استوعب الانفعال، شرع يقول الأشعار الابتدائية في المسرحية وهي بعد على ايقاع التصفيق. عندما دخلت ماريا جوان المشهد، فتيّة في الثامنة عشرة، مضطربة وحمقاء إبنة ضاحية، فارغة الرأس تدور على نكهة الأفلام الأميركية الشمالية، مس[2] ماري جون، كان على التقديم أن ينقطع ـ امتدّ التصفيق لدقيقة طويلة.

بعد هذه البداية الرنّانة، أمسك الجمهور نفسه، والكوميديا، في هشاشة تأليفها وفي رنين الأشعار الموحية بجمال ومزاج ماريا جوان، اجتازت الفصلين الأولين في مناخ مرح بحيث لم يكن ينقصه شيء من القلق؛ لم يكن أحدٌ ليصاب بالدهشة لو ظهرت الشرطة بغتة وأخلت المسرح.

وإذ رُفعت الستارة للفصل الثالث والأخير، فوجىء المشاهدون وهم يرون في قعر المشهد، وقوفاً، لا الفرقة بأكملها وحسب، وإنما أيضاً أفراد الأطقم التقنية[3]

---

(١) SENO GRAFIA: علم تركيب الديكورات في المسرح.

(٢) MISS: آنسة في الإنكليزية.

(٣) TECNIA.

المختلفة، الكهربائيون، العاملون على الآلات، الملقّن، كاتب نص البرنامج، الأكاديمي ر. فيغيريدو جونيور، مخرج المسرحية آلفارو موريرا، جميع الذين تعاونوا على العرض. كان ينقص فقط ماريا جوان.

سلّة ضخمة من الزهور الزرقاء، البيضاء والحمراء، ألوان فرنسا، كانت تحتل وسط الخشبة[1]. عاد الجمهور إلى التصفيق، تصفيقٌ زاد بغير انضباط عندما ظهرت ماريا جوان من الديكورات، مرتدية ثياب ماريان، التنّورة والبلوزة ثلاثيّتا الألوان؛ القبعة ترمز إلى الجمهورية. انتظرت إلى أن يخْمَد التصفيق، واليد موضوعة على القلب. أخيراً، بتلك النبرة ذات الغموض في الصوت الأبح، التي لا تُنسى عند مَنْ يسمعها حتى ولو مرة واحدة، أعلنت:

ـ غناء حب من أجل مدينة محتلة، قصيدة أنطونيو برونو، كُتبت بعد سقوط باريس، قبل موت الشاعر بقليل.

يستحيل وصف تأثر الجمهور، إن أحداً ما كان يتوقع أن يسمع القصيدة الملعونة تُنْشَد من على خشبة مسرح فينيكس. كان كما لو أن شحنة كهربائية، البعض نهض واقفاً، آخرون رافقوه، وفي الحال نهضت الصالة كلها، مصفّقة، وبقيت واقفة. الصمتُ خيّم. في النهاية، صمتٌ جد كليّ كما كلمات الدم والنار، مقطوعات مبللة بالدموع، مهتزّة بالغضب، الإذلال والتمرّد، الحقد والحب كانا يبدوان آتيين من عمق الزمن، من أربعة أركان الدنيا، مخترقين جدران المسرح.

النواح في الأبيات الأولى. الشاعر يبكي المدينة المنتَهَكَة، نهرٌ من الوحل حيث جرى السين قبلاً، جثث الضحايا، جزمات النازيين، الحداد والصمت، القنوط والموت في صوت الغناء الكنسي للممثلة الكبيرة. بعد ذلك ازدادت القصيدة من أجل إعلان التحرير، أصوات الأبواق، الصوت المرنان والمنتصر، قائلاً بالتضامن، معلناً أن غداً هو يوم مشرق، الحياة والحب، كل مقطوعة تنقطع بالتصفيق المتزايد، لم يُرَ من قبل أبداً شيء مشابه.

في الصالة، جالسة إلى جانب الدونا روزارينيو والمعلّم آفرانيو، كانت البرتغالية

(١) المقصود خشبة المسرح TABLADO.

ماريا مانويلا تبتسم من بين الدموع، مرددة بصوت هامس، كلمة فكلمة، أبيات القصيدة. في اليوم التالي ستغادر الريو إلى كاراكاس، مَنْ يدري فقد لا تطأ قدماها هذا المكان أبداً لكنها ستترك أثراً لمرورها؛ فلكي يخدمها، هتف أنطونيو بالبشر للنضال من أجل الحرية. وماريا مانويلا أيضاً، نهضت من الحداد والترمّل، استنتج المعلّم بورتيلا، بيد برونو إلى نداء نشيد التحرر المطْلَق.

سالت دموع على وجه ماريا جوان أيضاً لكنَّ الصوت بقي متكاملاً وثابتاً في التوجيه الأخير ضد سفاحي الشعوب كل كلمة قنبلة وتصفيق. باريس تشعل الفجر في يديْ ماريا جوان، البنت البرازيلية من الضواحي، التي هي فجأة، ماريان، فرنسا الحرّة.

باريس، باريس، باريس، شعلة متوقّدة وأزلية! الجميع واقفون، وصوت ماريان في كل مرة أشدّ ارتفاعاً، مكررة اسم المدينة، المكتوب من قبل برونو بـدم عروقه. الذين كانوا هناك في تلك الليلة، باتوا عارفين، معرفة بدون شكوك، أن القمع، العنف، الموت، لن تتمكن أبداً من الحاق الهزيمة بالحرية، الحياة، الإنسان،.

رددت ماريا جوان باريس للمرة الأخيرة والهتاف غير المحدود والذي لا نهاية له، انفجر؛ بحرا التصفيق ارتفع في موجات عظيمة، مرتعدة دعامات مسرح فينيكس.

في ختام الفصل الثالث، فيما ماري جون والشخصيات الأخرى ومدير التركيب الجديد لكوميديا برونو كانوا مرة أخرى يحظون بالتصفيق، ارتفع من عمق الصالة صوت امرأة، عُرف في الحال من قبل كثيرين، صوت الشاعرة بياتريز رينال، منشدة المقاطع الأولى من المارسيلياز.

من المسرح رافقها الكومبارس، متبوعاً بالجمهور كله. إنه أكثر من عرض أو حفلة. تكريم ماريا جوان. كان فك حصار انتصارياً لرجال المقاومة.

انتقام

كعقوبة انتقامية، رُفضت المساعدة المالية المطلوبة من الفرقة البرازيلية للكوميديا التي تديرها ماريا جوان، من أجل موسم العام ١٩٤١. البرنامج المقْتَرَح كان يشتمل على «عرس الدم»، لغارسيالوركا[١]، كوميديا جديدة لجوراسي كامارغو و«الريو»، أول مسرحية لكاتب شاب مَنْ بدأت مكانته في الترسّخ، هو محرر المجلّة الحديثة المنع عن الصدور «المنظورات»، لصاموئيل ليدرمان، مُشار إليه ككاتب مقالات عنيف، خطيب مفوّه مهيّج، شيوعي من أشدهم خطراً هو كارلوس لاسيردا[٢].

وإذ دُعيت للحضور إلى ديوان مدير الـDIP من كانت تحتفظ بعلاقات طيبة معه، خمّنت ماريا جوان، بلا صعوبة، بدافع الاستدعاء. جلسا جنباً إلى جنب، على أريكة مستطيلة[٣] من الجلد الأسود. حدّقت العين المنحرفة للشخصية المفنّدة للمزاعم في المنظر المحزن من الاسمنت؛ في البعيد، بقعة من بحر:

- في ساعات معيّنة أرغب في ترك المنصب -أسرّ لها- أُرسل بكل شيء إلى الجحيم. وأنتِ يجب أن تسألي لماذا لا أفعل هذا. لا أعلم بماذا تظنين إذا قلت لكِ بأني سأبقى لأني، بطريقة أو بأخرى، أتمكن من منع أمور معيّنة، التخفيف من تدابير، ترك متنفّس مفتوح. إذا كان الأمر كهذا، لماذا إذاً لا يطردونني؟ أظن أن «الرجل» بحاجة إليهم وإليّ، لشخص ما يواجههم، لنفس الدافع ذاته لا يقبل طلبْ إقالة

(١) شاعر ومسرحي إسباني اغتاله أنصار الجنرال فرانكو أثناء الحرب الأهلية الإسبانية.

(٢) صحافي من الريو اشتهر بحملاته على رئيس الجمهورية في الخمسينيات جيتوليو فارغاس، صار في السبعينيات حاكماً لولاية غوانابارا وعاصمتها الريو.

(٣) SOFA.

أوزفالدو آرانيا. في معظم المرات أشعر إني مغلوب على أمري، لكنْ مَنْ يستطيع الكسب دائماً؟

ابتسمت ماريا جوان بتعاطف، بأسى على وجه التقريب:

ـ صارحني، فأنا مستعدة.

ـ حاولت الدفاع عن البند، قمت بالدور، بوسعي أن أضمن ذلك، سوف تصدقين إذا شئتِ، لكنَّ الفضيحة كانت أكبر من اللازم، قصيدة برونو، المارسيلياز. هتلراتنا الصغار هم مجانين من الغضب. وحسب رغبتهم، فجميع الطاقم، وأنتِ في مقدمته، سيكون في السجن.

تأمّل المرأة الجالسة إلى جانبه، الجمال والأناقة والتحدّي:

ـ وفوق كل ذلك أيضاً، البيان الذي عرضتِه أنتِ، إنه ليجعل الشعر يقشعرّ، يبدأ بغارسيا لوركا. أنا أعبده، لكنهم يكرهونه؛ جمهوري إسباني، مرادف للشيوعي، أُعدم رمياً بالرصاص من قبل حليفنا الطيّب، الجنـرال فرانسيسكو فرانكو. بعد «الله يجازيك»، فإن شهرة جوراسي ليست أفضل، والكاتب المسرحي الجـديد الذي اكتشفته أنتِ، هذا الفتى لاسيردا، لديه إضبارة[1] من أكثر الإضبارات امتلاءً لدى الشرطة. أضعت وقتي ولعابي. ـ أتى بوضع، النظرة تهرب إلى النافذة: ـ والآن، ماذا تظنين أنكِ فاعلة؟

رافقت ماريا جوان نظرة مدير الـ DIP، في البدء شاهدت فقط إسمنتاً، في النهاية بهرتها رقعة البحر الأزرق.

ـ سوف أركّب المسرحيات التي برمجتها، إلاّ إذا منعتها الرقابة.

ـ بأي مـال؟ أعلم أن «هيدا غابلر» إذا لم تسبب خسارة فإنها لم تعط كسباً مادياً أيضاً.

ـ أتدبّر، تمويلاً، أنا قادرة على السعي إليه، لا تقلق ـ نهضت: ـ على أيّة حال أنا

(١) FICHA: صفحة تدوّن عليها ملاحظات الشرطة عن انتماءات صاحبها وسلوكه السياسي.

شاكرة لك على الجهد الذي أتيته. أعلم أنه حقيقي وأشكرك.

مدّت له أصابعها، فقبّلها مدير الـ DIP ورافقها حتى باب الديوان. مركز مشين بقدر ما هو مهم، في كل يوم معركة خاسرة. ومع هذا يبقى متشبثاً بالمركز غير قادر على ترك تلك القطعة المراقبة من السلطـان. وُلد في فقر مدقع، في مكان بائس منحط في الشمال الشرقي، كان ينبغي له أن يفلح أرض الغير كما كان يفعل أبوه وأمه وأخوته الأكبر منه. لكنهم تدبّروا له مكاناً بالمجان في مدرسة دينية إذ أن ذكاءه والرغبة في الدرس أثّرا في الراهب والقس. وعندما رأى نفسه في الجبّة والكتاب في يده، صمم على أن يغدو ذا قوة، مهما كلّف الأمر. كلّفه غالياً، أحياناً أغلى من اللازم.

في الشارع، ماريا جوان عضّت شفتيها بقوة. لم يستطيعوا أبداً جعلها تتراجع عندما تقرر أمراً؛ هكذا فازت بمكان وبمسؤولية في المسرح البرازيلي. ستحمل مجموعتها إلى المشهد المسرحي. حتى لو لزم الأمر قضاء نهاية الأسبوع في بيتروبوليس، مع المقرف. بعد إعادة تركيب «ماري جون» لا شيء يستطيع أن يلوّثها، لو تعلّقت فوق الخير والشر.

طبع التآخي الميلادي

الموظف المولج بتقديم الأوراق وإيصالها إلى الآخرين ذو الشعر الأشيب يقدّم القهوة. في ديوان الرئاسة، يصغي إيرمانو دو كارمو إلى الأسباب التي يبديانها، الوزير بايفا، من المحكمة الاتحادية العليا، والقاضي ليزاندرو لايتي، من محكمة الاستئناف. تداولوا في تفاصيل حفلة الشاي الميلادية التي غرضها التآخي بين الأكاديميين، المصحوبين بزوجاتهم الفاضلات جداً، وإداء وظيفة المنشأة.

تتحقق في آخر يوم خميس قبل عيد الميلاد، جامعة في حميمية مفرحة، مرة وحيدة في السنة، سيدات الخالدين. المائدة تُقَدَّم أيضاً أكثر روعة من المائدة الاسبوعية الوافرة. الرئيس -إذ تكون الرئيسة إلى جانبه- يستقبل الأزواج، يقدّم زهوراً وهدايا للسيدات. هذه الحفلة السنوية لهن، الزوجات، تمتلك طابعاً مغرياً ومثيراً، إذ يستطعن التجوال في الـPETIT TRIANON كله، المكتبة، التوثيق، السكرتارية، القاعات حيث أزواجهن يتحدثون ويستقبلون، قطاع أرضي محظور على النساء - «نادي الرجال الأشد إغلاقاً في العالم»، في تحديد الصحافي أوستر يجيزيلو ده آتاييدي، الذي نشر حديثاً تحقيقاً واسعاً، كاملاً ولا شبيه له، حول الأكاديمية البرازيلية للآداب.

عند تنصيب اكاديمي جديد، يظهرن في صالون النبلاء، يرتدين ملابس مفصّلة من قبل خيّاطين شهيرين، مغطيات بالمجوهرات، عارضات تسريحات شعر، جليلات. لكنّ في حفلة الشاي الميلادية، لا يستدعي اللقاء ترفاً وشكليات، لا يوجد خطب مستفيضة ليتحملنها وليصفّقن. وهن منبسطات، يتداولن في المواضيع الأكثر اختلافاً، عارضات صوراً للأحفاد، متكلمات عن مشكلات بيتية النقص في

الخادمات، التكاليف المرتفعة للحياة. يواصلن متحدثات وضاحكات، فيما الأكاديميون ينجزون جلسة سريعة، لكي يصححوا وضعاً، ففي يوم الخميس هذا تُمنح عطاءات لموظفي المنشأة. في تلك الحقبة، عطلات الأكاديمية كانت تبدأ من أول شباط وتدوم إلى نهاية آذار. وهكذا لكون حفلة الشاي الميلادية لا تختتم السنة الاكاديمية، فليس لها معنى غير تشجيع لقاء ودي لزوجات الخالدين لمناسبة اكبر احتفال مسيحي، بذريعة التآخي مع الموظفين والخدم.

ـ يحضر جميع أيام الخميس كما لو أنه قد نُصّب قبل أن يُنتخب. وهو قادر على الظهور يقود زوجته، في شاي عيد الميلاد، وهو أمرٌ غير مسموح به! ـ الوزير بايفا لا يخفي تقريعه.

ليزاندرو لايتي، مَنْ معارضته لترشيح اللواء موريرا تجعله يشدد النبرة بشكل ضارٍ عند معرفته بأن المطالب بعضوية الأكاديمية قرر ألّا يزوره، استخدم حق النقض الشكلي إزاء الحضور غير اللائق:

ـ من اللازم، يا عزيزي إيرمانو، إعلام اللواء بالطبيعة المحدَّدة لاجتماعنا الاحتفالي؛ نحن فقط، نساؤنا والمعاونون في المنشأة. لن نوجّه دعوات ولن نقبل بانتهاكات.

تلك المعضلات الصغيرة عن النظام البروتوكولي جعلت الرئيس مخبولاً على وجه التقريب. فالأكاديمية، لظرفها الخاص، تحتفظ بطقس دقيق ينظّم كل حدث والخالدون غيارى إلى الحد الأقصى من رعايته الدقيقة. يرفع إيرمانو دو كارمو يديه إلى السماء:

ـ صدّقا أنه إذا حضر اللواء موريرا، فلن يكون ذلك لانعدام التلميحات والإيعازات من جانبي.

ـ تلميحات وإيعازات لا تحل المسألة، فخط ماجينو ليس له هذا اللقب عرضاً. إنه جسور ـ قدّر الوزير بايفا، مهيباً.

ـ أعلم هذا؛ إنه عامل جعلني لا أضع حداً للتلميحات. في يوم الخميس، مستفيداً من ذريعة ما، قلت له بوضوح وبشكل مباشر، إن الشاي في أسبوع عيد

الميلاد مخصص للأكاديميين، لزوجاتهم ولموظفينا. يأتي فقط إذا كان فظاً.

ـ إذا جاء سآخذ ماريوسيا وانصرف ـ هدد ليزاندرو.

ـ كلا يا ليزاندرو، فأنت لا تفعل هذا... ـ أجاب إيرمانو.

ـ لِما لا؟ هو مرشح ويعلن أنه لن يزورني...

ـ لهذا بالضبط. فهذا التصريح البائس للواء قد أساء كثيراً إلى ترشيحه، سجّل علامة ضده. لكنْ إذا ثارت أنت، متخلّياً بشكل غير مناسب عن مأدبة زملائك في حفلة تآخٍ، ستكون قد أعطيت الحق للواء. فهل على سبيل الافتراض ترغب أنت أن يكون على حق؟ ماذا يبدو لك الأمر يا بايفا؟

ـ بالتأكيد. ليزاندرو تكلم من دون أن يفكر، إنه متألم، لديه سبب. لكنه لن ينسحب لسبب ما زهيد. إني أتحمّل المسؤولية.

القاضي لا يناقش الوزير الذي يحلم هو بخلافته عندما يحال إلى التقاعد، خلال شهور قليلة.

ـ لقد أهانني الشخص. لكنْ من الواضح أنني سأعرف كيف أتصرّف في حدود التهذيب الحسن.

ـ أظن أنه لن يأتي ـ قدّر إيرمانو دو كارمو: ـ كنت واضحاً حتى أكثر من اللزوم، أخشى أن أكون قد تجاوزت حدود التهذيب الحسن الذي انتهيت أنت من تحديده، يا عزيزي ليزاندرو. غير أنه إذا، على الرغم من هذا، أتى، ما هو الذي سيحدث؟

انتظر اللامعان أن يجيب الرئيس بالذات على ذلك:

ـ من جهة، علينا تحمّله في مثل هذه الحدود التي ذكرها ليزاندرو. وفي المقابل سيسجّل اللواء علامة أخرى سلبية. فلا يوجد شيء ما في العالم ليس فيه جانب حسن.

ـ لكنّ الأمر هو هذا! أليس الحق معك؟

وافق الوزير بايفا الذي لم يكن متخلّياً عن الخبث والحكمة.

العائلة السعيدة

فظٌّ أو أن الاقتناع لديه بأنه قد غدا أكاديمياً، لا يحتاج إلاّ لمجرّد شكليات قادمة لتعيين موعد للتنصيب المهيب والبدء في وضع النظام (في نظام موحَّد)للمؤسسة اللامعة؟ حضر اللواء إلى الشاي الميلادي، مرتدياً رداءه العسكري ومتأبّطاً ذراع الدونا كونسييسون. وليكمل الصورة، جلب الإبنة سيسيليا والصديق سابينسا.

الصديق سابينسا متيّم مرشح للمركز الشاغر في سرير سيسيليا، سعيدٌ، وهو على قيد خطوة من الزوجين.

أحداث سان باولو وريو ده جانيرو

حلّ موت العقيد سامبايو بيريرا المباغت مشكلات الضمير لعديد من الأكاديميين، إنه انفراج غير متوقّع. في ما يشار إليه، أيضاً، أن الأنشطة الموظفة من قبل عديد من الأجهزة البوليسية في القطاع الاتحادي[1] وفي الولايات ومن قبل الأجهزة العسكرية المختصّة، ضد العناصر المشبوهة ذات الأفكار والأفعال الانقلابية، الليبراليين، الناهضين للفاشية، يساريين متنوعين، البعض والآخرين والمعنونين بالشيوعيين، لم تبلغ حدّ التغيير، وأقلّ من ذلك بكثير الانفراج.

إذا أحدث العقيد غياباً في مقدّمة الشبكة الكثيرة العدد والنشيطة والمجزية جداً الخاصة بالقمع، فمن المحتمل أن يحدث، حسب الرسوخ الإيديولوجي والمكانة الأدبية للمرشح السابق للاكاديمية البرازيلية للآداب، أن يتدبّروا في الحال خليفة له ذا سمو، إذ حسب تعليق ذي رياء لمدير الـ DIP، في البرازيل لدينا نقصٌ في الكادر الكفوء في جميع فروع الإدارة العامة، باستثناء الشرطة. موظفون فاعلون ومكرّسون في جميع الدرجات، من أعلى إلى أسفل، في الاختصاصات المضاعفة، فوق كل شيء في كادر الخبراء في التعذيب. فالموجّهون المستوردون من الغستابو لم يجدوا ما يعلمونه، فساهموا فقط في بعض المهارات السفسطائية.

حالما انتهت الاحتفالات بعيد الميلاد والسنة الجديدة، أعلن بلاغٌ من دائرة الشرطة السياسية والاجتماعية في سان باولو أثراً عظيماً. هو الأول من سلسلة عصفت بالبلد؛ انفجار الجهاز حيث كانت مجتمعة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. طعنةٌ مميتةٌ، حسب ملاحظة الشرطة، في بنية التنظيم المستهدف قلب نظام الحكم، الذي نتج عن

(١) DISTRITO FEDERAL: النطاق الإداري للعاصمة في نظام الدولة الاتحادية.

عمل دؤوب، استقصاءات متريثة، دراسات معقّدة بسبب نظام فعّال للأمن مسؤول عن النظام والطمأنينة العامين.

إضافة إلى كونه لامعاً فإن عمل قوى الشرطة كان صعباً وارتدى البطولة، كان يُعْلِم البلاغ الموزّع على الصحافة. المشاركون في الكومونات، عندما تنبّهوا إلى الحصار المحكم حول البيت القائم في سيرّا دو مار، في طريق سانتوس، ردّوا بالرصاص ونتج عن تبادل إطلاق الرصاص سقوط جريحين من الشرطة السرية وستة قتلى من المهيّجين بينهم المطلوب جداً بيشيغا، عضو سكرتارية الحزب. ستة موقى، خمسة عشر من أعلى القادة، من أكثر المسؤولين شأناً، مقبوضٌ عليهم، كميّة كبيرة من الأسلحة ومواد الدعاية حُجزت. اعتقالات أخرى بالوسع أن تُجرى في أية لحظة، إذ أن التحريات تتابع فيما الموقوفون كانوا يُستجوبون. لم يُشر البلاغ إلى اشتراك عناصر عسكرية، في العمل البطولي المظفر.

بعد أيام قليلة، دعا رئيس شرطة سان باولو الصحافيين المعتَمَدين لدى ديوانه إلى الاجتماع ليعلن أنشطة جديدة ومهمّة للشرطة السياسية. في تتابع الاهتمامات وبنتيجة المعطيات المحصَّلة في الاستجوابات، كان المحققون قد عيّنوا موضع المطبعة السرّية حيث كانت تُطبع الجريدة المركزية الناطقة بلسان الحزب «الطبقة العاملة» والقسم الأكبر من أدبيات الحزب. خمسة عناصر من أخطر العناصر وقعوا في أيدي الشرطة.

بوسع مندوبي الصحف رؤية وتصوير الأدوات المصادَرَة في العمليتين الكبريين: أسلحة قليلة ـ بعض المسدسات، بندقيتان، مدفعٌ رشّاشٌ اعتراه التلف، قذائف رصاص ـ وأدوات طبع وافرة. إضافة إلى نسخ من آخر عدد من «الطبقة العاملة»، بيانات، نشرات، كراريس، بطاقات، تحتوي على كلمات الأمر. تحليلات للطارئة السياسية الوطنية، تقارير عن حركات الإضراب غير معلَنة في الصحافة نداءات إلى العمال والفلاحين، طلبات للمساعدة المالية من أجل تنظيمات النضال ومن أجل المعتقلين السياسيين. صور ماركس، لينين، ستالين، ديميتروف وبرستس. علاوة على ذلك فإن «غناء حب لمدينة محتلة» لبرونو مطبوعة على بطاقة برتقالية اللون.

خلال المقابلة المشتركة، قدّم رئيس الشرطة للصحافيين الرفيق «فولاذ» وهو الإسم

الحركي لفيليز براغا؟ الرفاق كانوا يسمونه من وراء ظهره «قملة ستالين» بسبب القسوة في التعامل، الإعجاب المثير للأمين العام للحزب البلشفي، الذي عنه ترجم الإسم الحركي[1]، وإليه يُشار كنموذج لجميع الحجج، وبسبب التعصّب[2] الشرس. الطالب السابق في الطب، المتحدّر من الطبقة الوسطى، كان يخفي أصوله البورجوازية، جاعلاً نفسه متحدّراً من عامل نسيج. هجر الكليّة ليكرّس نفسه للعمل غير الشرعي، وحقق وظيفة سريعة في الجهاز الحزبي مختزلاً العديد من المسؤوليات بنتيجة ضربات ردّة الفعل، فوصل إلى مرتبة عضو فعّال في اللجنة المركزية ومرشح للمكتب السياسي.

أبرز رئيس الشرطة أهمية «فولاذ»، ألقابه وخطورته على القانون، قبل أن يترك الكلام للمعتقل الذي كان لديه تصريح للإدلاء به.

قرأ «قملة ستالين» بصوت غير مطمئن، وثيقة وقّعها في العشية، بإرادة حرّة وتلقائية، كما عبّر رئيس الشرطة. عندما وجد نفسه سجيناً، في وحدة داخل الزنزانة استطاع التأمّل، مقيماً موازنة لحياته، وبيّن أنه ضحّى بالشباب من أجل قضية لا تستحق الاحترام، مناضلاً في الحزب الشيوعي، الملاذ الوحشي للقتلة ولخائني الوطن، الذي وضع نفسه في خدمة مصالح روسيا. وإذ أدرك الخطأ المقْتَرَف، فهو، فيليز براغا، صمم بصورة علنية، على ترك الخلايا الإجرامية للحزب، جاعلاً ذلك من خلال الوثيقة تلك التي كتبها ووقّعها.

كان يقرأ بشكل سيء، يخطىء كلمات، يتراجع إلى الوراء، بالنسبة إلى الصحافيين كان يبدو واضحاً أن النص لم يكن محرَّراً منه ـ الشيوعي حتى ولو كان فارّاً، لا يكتب «روسيا» إنما «الاتحاد السوفياتي». لكنّ التوقيع كان توقيعه، من دون شك، إذ أنه مكرر هناك بالضبط في مختلف النسخ الموزَّعة على المندوبين.

طلب رئيس الشرطة من «فولاذ»، بعد انتهاء القراءة المكره عليها، أن يقول مرة أخرى إذا كتب مثل تلك التصريحات نتيجة تهديد أو أعمال عنف من رجال الشرطة.

---

(١) «الفولاذي» تعني «ستالين» في الروسية.
(٢) في الأصل SECTARISMO: التشيع لمذهب ديني أو سياسي.

أجاب خافض العينين بأن لا؛ نادمٌ على ماضيه في الجرائم، وهو نفسه قرر توجيه تلك الرسالة إلى الشبيبة البرازيلية، كي لا يدع شبانٌ آخرون أنفسهم يُفْسَدون من قبل الشيوعيين. أجاب أيضاً على سؤال آخر من رئيس الشرطة: هل عرفت بعض السجناء تعرضوا للتعذيب؟ كلا. لم يرَ أي واحد يحمل علامات التعذيب ولم يسمع شكاوى من أولئك الذين سُجن معهم. وعندما التُقطت الصورة، أُخذ النادم من قبل رجال الشرطة، ولم يستطع الصحافيون توجيه الأسئلة إليه. فمن أجل ماذا، إذن، المادة قيد النشر، ليس بالوسع أن تعاني القصّ أو الزيادة، ولا أن تكون خاضعة للشكوك والمداولة؟

عناوين في الصفحات الأولى، صور على أربعة أعمدة، مقالات افتتاحية تمجّد كفاءة الشرطة، داعية انتباه الشبان إلى الوثيقة المؤثّرة، المخلصة والدراماتيكية لفيليز براغا، الطالب الساذج المضلَّل بغناء عروس البحر الخاصة بالشيوعيين. أسبوع بأكمله من الثناء على الدولة الجديدة، من الإهانات للاتحاد السوفياتي.

انتشرت أيضاً، بصوت خفيض، روايات شفهية حول الأحداث الصاخبة؛ أقل بطولية، أكثر قبولاً. وحسب ما خلص إليه بعض الصحافيين الفضوليين، فإن كل شيء بدأ باعتقالٍ حدث عرضاً بكلّيته، لعنصر كان ينقل طرداً يحتوي على أعداد من «الطبقة العاملة». كان يهمّ بركوب الحافلة الملأى بالركاب عندما حاول السائق الانحراف ليتفادى الاصطدام بالسيارة الآتية خلاف وجهة السير، فقذف بالمركبة إلى عمود، في ارتطام عنيف. وحين وقع الغلام ترك الطرد الذي فُكّ من رباطه، فانتثرت أعدادٌ من الجريدة المحظورة. شرطيٌ من ركاب الحافلة أيضاً، صادر المواد الانقلابية وأوقف المناضل الحزبي.

في مفوضيّة الشُعْبَة السياسية، استجوبه المفوض الشهير آبولونيو سيرافيم. وفي اليوم التالي، وهو منقول بخرقٍ ملطخة بالدم، كشف البائس عناوين البيت في سيرّا دومار والمطبعة في براز، مشيراً بشكل مخصوص، إلى اجتماع اللجنة المركزية. في أوج الانفعال، مضى آبولونيو سيرافيم إلى رئيس الشرطة، ورئيس الشرطة ذهب إلى أبعد من ذلك، إلى الأجهزة العسكرية. اجتماع للجنة المركزية؟ اتخذوا قراراً بقيادة العمليات.

بلشفي يجب أن يحوز على خصيصة الفولاذ لكي يواجه ردّة الفعل، أُصرّ على «فولاذ» من بين الرفاق، المهدد. حُمل ليُستجوَب، وعند دخول القاعة ورؤية رجال الشرطة مع الهراوات المطاطية، السيجار ينفث دخاناً من أحدهم، السياط ذات العقد والابتسامة المتوددة، على وجه التقريب على شفتيْ آبولونيو سيرافيم (كان فيليز يعرفه من خلال الشهرة والصورة)، بات أبيض بلون الشمع وأحسّ برداً في خصيتيه. برز الامتقاع والبرودة عليه حين لمح بانغو ومارتينس، حافييْ القدمين، وهما يواجهان الحائط، مقيّدان بالأغلال، ممزّقان من الضرب، مغطيّان بالدماء. وممدود على الأرض عارياً أيضاً وأشد تعرّضاً للأذى، الوجه مشوّه، غائب عن الوعي أو ميت، إنه الرفيق غاتو. بانغو ومارتينس كانا عاملين. غاتو صحافي معروف. أحسّ فيليز براغا أنه سيبول على سرواله. اقترب منه آبولونيو:

ـ هيّا بنا نرى إذا كنت حقاً من الفولاذ!

بلغت اليد المغلقة صدر فيليز، قاطعة عليه التنفّس. كان آبولونيو سيرافيم يمتلك مزاجاً معيّناً، يداي تساويان ثقلهما ذهباً، كان يقول عارضاً قائمتيْ فيل، قبضتيْ حديد. لكمة كانت كافية. «فولاذ» ما كان أكثر من «قملة ستالين»، ما كان ينقصه إلاّ أن يتقيأ روحه:

ـ لا تضربني، حباً بالله، سأروي كل شيء:

أخبر بكل شيء، وقّع وثيقة قرأها للصحافيين. قاد كدليل قافلة الشرطة شخصياً إلى أجهزة مختلفة كان يعرفها، معطياً ذريعة لموجة جديدة من الاعتقالات. ولكي يهرب من الدعوى ومن معايشة رفاقه السابقين في السجن ذاته، طلب من العقيد أن يصغي إليه يومياً خلال أسبوع، وأن يرسله إلى الريو، حيث انخرط في الحزب بشكل اعتيادي، قادراً هكذا على أن يكون ذا نفع كثير. حين أطلقوا سراحه بعد ذلك بشهور، لم يبق من نشاطه السياسي إلاّ قسم من اللقب، حتى رجال الشرطة كانوا ينادونه بالقملة.

مثل تلك التعاسات والأحزان تحدث من مرة إلى أخرى. كلما أظهر الشخص أنه أشد تعصباً وجذرياً، يتكشّف أنه أكثر رخاوة أمام الشرطة. ومن سبق له وانخرط في العمل الحزبي يعلم هذه الحقيقة.

غاتو[1]، المرئي من فيليز القملة ممدّداً على الأرض في قاعة المفوّض آبولونيو سيرافيم، كان يدعى جواكين دا كامارا فيرّيرا، صحافي، محرر في إحدى كبريات الصحف اليومية في سان باولو. كان يحيا حياة مزدوجة، شرعية وغير شرعية، في هيئة تحرير الجريدة الصباحية، وفي إدارة المجلّة الشهرية الممنوعة. كان ودوداً، محباً للصداقات، كثير الضحك. ما كان يطلب من الآخرين أن يكونوا من الفولاذ وما كان يشتم الرفاق من البورجوازيين الصغار، جاعلاً من نفسه جندياً للحزب البلشفي. لقد عُذّب خلال خمسة عشر يوماً، ولم ينتزعوا منه أي شيء، علاوة على الأظافر وقسم من الجلد. ذات صباح، عندما أتوا به من الزنزانة إلى حيث القسوة في التعامل؛ ركض في اتجاه النافذة المغلقة فكسر الزجاج بلكماته وبه قطع رسغيه. أخذوه بسرعة إلى حيث لا يموت. نبأ سجنه وسوء المعاملة انتشر في مكاتب التحرير. الصحافيون، نقابة الطبقة[2] الجمعية السانباولية للصحافة، مالكو الصحيفة التي كان جواكين يعمل فيها، تحرّكوا. لم يمت لكن رُفعت عليه قضية وحُكم عليه، نفّذ قسماً من العقوبة، وحرره العفو في العام ١٩٤٥. كان نقيض «فولاذ» وبعد أن أُطلق سراحه تابع كمناضل في الحزب إلى أن اغتيل في الديكتاتورية الأخرى.

في الريو لا تقتصر الاعتقالات على العناصر المكتشفة في الأجهزة المشار إليها من القملة (كان لا يزال مغلول القبضتين). مثقفون، أطباء، مهندسون، موظفون في الدولة، موظفو مصارف وحتى أصحاب مصارف أُلقي القبض عليهم والعديد منهم رُفعت عليهم دعاوى ـ أسماؤهم دُوّنت في لوائح المساهمين بتمويلات الحزب، عُثر عليها في أحد الأجهزة المقتحمة.

المحققون اقتحموا، احتلّوا وخرّبوا مكتب محاماة قائماً في سينيلانديا، يديره مدافعٌ عن قضايا، يُعتبر من أكثر المهرة والقادرين، شخصٌ لطيفٌ، مع مرور حرّ في كثير من الأوساط، محترمٌ وخصوصاً من قضاة محكمة الأمن حيث كان يمارس الدفاع عن معتقلين سياسيين. هو وزميلاه في المكتب كانوا قد حصلوا على تبرئات وتخفيضات

---

[1] الكلمة في الأصل تعني: القط في البرتغالية.
[2] المقصود نقابة الصحافيين.

للعقوبة، في دعاوى عديدة. كان يدعى ليتيلبا رودريغيز ده بريتو. اعتقل مع أحد المحاميين الآخرين وثلاثة من الطلاب الأربعة في الحقوق كانوا يساعدونه.

بين الطلاب، برودينسيا دوس سانتوس لايتي، المعروفة أكثر ببرو. ما زالت في السنة الرابعة في الكلية وقد أظهرت كفاءة ونبوغاً أكثر من متخرّجين في الحقوق كثيرين. ورثت فطنة، عناد وبساطة الأب، جمال وهدوء الأم.

الأب والأم

عندما علم باعتقال ابنته، جُنَّ جنـون ليزاندرو لايتي. إنه مجنون بالمرأة، بالأبناء والأحفاد، كان يعبد الإبنة الجاحدة، الفاقدة العقل، لا تتفق ومبادئه إذ تحشر نفسها مع الشيوعيين ولا تفقد مناسبة تنتقد فيها مواقف وأعمال القاضي والأكاديمي. أثناء ترشيح سامبايو بيريرا، على سبيل المثال، تعب من العثور على ملاحظات عدائية، كتبتها هي، فوق طاولة العمل الخاصة به. كان ليزاندرو يشكو، يصيح بالمخبولة، يهدد، وما كانت ترعوي. كان لعابه يسيل رضى عندما يثني زملاؤه في التدريس في الكلية، أساتذة برو، على موهبة الشابة، «إبنة السمكة إنما هي سمكة صغيرة» تكريس النفس للدرس، خصوصاً النشاط (في رأيهم) المستحق التقدير في محكمة الأمن الوطني، المساعد لمكتب المحاماة (برأي ليزاندرو) الزهيد الاحترام للدكتور ليتيلبا ده بريتو.

تحرّك في كل مكان[1] ليتمكن من تحرير برو، لازم قضاة آخرين، عسكريين عرفهم من خلال سامبايو ـ بيريرا، جعل إيرمانو دو كارمو يتحرك متكلماً باسم الاكاديمية.

تنقضي الأيام والقاضي يبدو في كل مرة أشدّ تخوفاً من المخاطر وحزناً، فقد الظرف، المزاج الحسن، المماحكة. لم يتمكن من معرفة أين كانت إبنته، ولا الحصول على أذن لزيارتها. أحد العسكريين الـذي اتجه إليه وعـد بالاهتمام في القضيـة، لكنه بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، قال له إن لا شيء بوسعه أن يفعله لكون وضع

(١) في الأصل جاءت العبارة: «تحرّك عوالم وقيعان». MOVEU MUNDOS ET FUNDOS
الترجمة الحرفية هي: حرك عوالم وأعماقاً.

أشخاص المكتب حرجاً: «الجميع، بمن فيهم ابنتك، مدفونون حتى العنق».

ذات ليلة، في السرير الزوجي، رأت الدونا ماريوسيا زوجها يعاني الأرق، يتقلّب على الفراش، مررت ذراعها حول كتفيه، وقرّبته لصق جسدها:

- أنت بحاجة إلى النوم يا ليزاندرو.

- لا أتمكن. حين أفكر بالعمل الجنوني الذي أقدمت عليه برو، لديّ رغبة في قتلها في اليوم الذي تعود فيه.

- إني أفهم. تخشى أن يؤدي اعتقال برو إلى إفساد مقاصدك في المحكمة العليا.

قاطعها الصوت الخانق:

- ماذا تهمني المحكمة العليا! إن ما أريده هي ابنتي في البيت، هذا وحده.

أخفض الصوت، النبرة الموجعة، الجبانة:

- إنهم يعذّبون، هل تدرين؟

- سمعت برو تقول، قرأت في تلك الأوراق...

ليس هو اختلاق الشيوعيين، إنها الحقيقة، أنا أعلم. يحرقون ظهور السجناء بأطراف السجائر، يقتلعون الأظافر، يضربون، يسيئون لحياء السجينات... ستة، سبعة[1] دفعة واحدة. ينتهكون العذرية، يغتصبون... حين أفكر بأن برو هي بين أيديهم، أغدو بلا حركة، لا أستطيع النوم...

قبّلته الدونا ماريوسيا من عينيه، من الوجه، من الفم:

- لن يفعلوا شيئاً من هذا مع برو، تنسى أنها ابنتك وأنت أكاديمي؟

اقتربت منه أكثر أيضاً، أحسّ ليزاندرو باحتكاك ثدييها، فهمس:

- ليست لي رغبة بشيء، إني غير قادر.

- لا تقلق كثيراً، لن تتأخر برو في العودة.

---

(١) المقصود: ستة أو سبعة رجال يتناوبون على السجينة.

هكذا حدث. إزاء استدعاء المحامين المعتمدين لدى محكمة التمييز تلك، اهتم قضاة محكمة الأمن بمصير الدكتور ليتيلبا رودريغيز دو بريتو ورفاقه في المكتب.

عندما وصلت برو بشكل غير متوقع إلى الشقة، وقد أُطلق سراحها في منتصف الليل، من دون علامات العنف، مسرورة لكونها طليقة ولكونها كانت معتقلة، استقبلها ليزاندرو بالصراخ:

ـ الذنب كلّه ذنبكِ، حصلتِ على ما سعيتِ إليه. إنكِ تريدين أن تشقي وأن تُشقي عائلتكِ...

ـ لا تقلق يا أبتاه، إذ أنني لن أستمرّ في العيش ههنا، سأنتقل إلى مسكن آخر.

أطلقت الدونا ماريوسيا إبنتها من بين ذراعيها حيث كانت تستبقيها :

ـ لا تصدقي أية كلمة من كلام أبيكِ. حينما كنتِ معتقَلَة، لم يتبق له إلا أن يموت. لم يأكل، لم يَنَمْ... ـ أضافت مبتسمة: ـ ... حتى أنه لم يشأ أن يمارس الحب معي، الأمر الذي حدث للمرة الأولى منذ أن تزوجنا. والدكِ يعبدكِ.

ابتسمت برو لأمها وسارت إلى أبيها:

ـ تظنين أني لا أعلم؟ هذا العجوز الرجعي مضحك.

مرر ليزاندرو يده السمينة والناضحة بالعرق في شعر ابنته:

ـ لن تنتقلي إلى مسكن آخر، أليس هذا حقاً؟

ـ فقط عندما لا تريدني بعدُ في البيت، أيها الأب القاسي.

ـ مخبولة!

جلست برو في حضن ليزاندرو، كما كانت تفعل وهي صغيرة:

ـ كنْ مطمئناً يا أبتاه. ما اعتراني خوفٌ ولا للحظة واحدة.

ـ الخوف ظل هنا، في البيت، عاش معنا هذه الأيام، يا برو ـ كانت هي الأم مَنْ أجابت.

قدمت الدونا ماريوسيا إلى الزوج والإبنة. فيه تستطيع أن تفعل ما تشاء. كان تحت مراقبتها، وفي خدمتها. أمّا برو فقد كانت تهرب من يديها. كانت مشيئتها في السيطرة عليها بلا طائل.

- إنكِ لقذرة، تفوح منكِ رائحة رديئة. إمضي وخذي حماماً، فأنا وأبوكِ سنخلد إلى النوم.

- النوم؟ يا تُرى؟ - علاوة على كونها متمرّدة، فهي ساخرة.

ابتسم ليزاندرو، كان لديه الآن جوعٌ، ظمأٌ، رغبةٌ، فقد عاد للعيش.

مقعد الجيش

بدءاً من أواسط شهر كانون الثاني، أخذ اللواء فالدوميرو موريرا يختلف على الأكاديمية يومياً، في فترة ما بعد الظهر. أكاديميون في مرورهم بـال PETIT TRIANON لتسلّم رسائلهم وتلبية طلبات بعض القراء أو الأصدقاء، وليتجاذبوا الحديث مع الرئيس، كانوا يرونه في المكتبة، يسجّل ملاحظات، يحرّر، على طاولة المكتب المغطّاة بالكتب، ويهتمون بالمواظبة المفاجئة. قدموا للكلام معه، لمعرفة ما الذي كان يشغله. مثل تلك التعطيلات ما كانت مزعجة للواء، خلاف ذلك، كان لديه سرورٌ في الكشف عن تفاصيل العمل الذي يحققه هناك. بعض الموظفين كانوا يشحنون[1] المرشح الثرثار والمدّعي.

مرشح وحيد، يضيف هو، ولهذا شرع في تجميع معطيات من أجل خطاب الاستقبال. كان يطالب بأن يغدو منصّباً حالاً بعد انتهاء العطلات الأكاديمية. كانت هناك مشكلة الرداء، لكنَّ آلتينو ألكانتارا، الصديق وابن المذهب، مَنْ دعاه ليستقبله، مشرّفاً بتلك العلاقة الدالة على التقدير والاحترام، وعد بإيجاد حل للقضية إذا اقترفت حكومة[2] بيرنامبوكو، الولاية التي هي مسقط رأس العسكري والكاتب المجيد، الفظاظة في خرق التقليد القديم، الراسخ والسار: تقدمة للأكاديمي الجديد، الرداء والسيف القصير والعقد، من الأرض[3] التي وُلد فيها، في برهان على الاعتزاز بابن الارض الذي حاز على الخلود. فإذا حدثت مثل هذه السفالة، فإن الكانتارا صاحب

---

(١) في الأصل DAR CORDA: تعبئة الزنبرك (في الدمى المتحركة).

(٢) في كل ولاية من ولايات البرازيل توجد حكومة إيالية.

(٣) TERRA: الأرض لكنها تعني البلاد أيضاً.

المكانة سوف يرفع أرصدة في سان باولو، أكثر من كافية للرداء والسيف القصير والعقد، فائضة أيضاً للشامبانيا الاحتفالية، بعد الجلسة المهيبة. من أجل صنيعه في العام اثنين وثلاثين جعل اللواء فالدوميرو نفسه مديناً لامتنان أهالي سان باولو، الذين لا ينسون أبداً التضامن الذي تقبّلوه في ساعة صعبة.

كلاوديونور سابينسا، في الأيام التي لم يكن يعطي فيها دروساً ـ إضافة إلى عمله في الجريدة كان يعلّم البرتغالية في إحدى المدارس الثانوية التابعة للبلدية ـ، كان يصطحب الصديق اللامع، أبا سيسيليا، ويقدّم له الخدمات كسكرتير، باحثاً عن مجلّدات في الرفوف، ناسخاً شهادات وإشارات لنصوص. وحين يكون بمفرده فاللواء يكرّس نفسه لتحرير مقاطع من الخطبة.

سيدوم الأمر، فالمقعد حظي بأربعة شاغلين، ثلاثة ألوية والشاعر أنطونيو برونو. مع الشفيع[1] يجمعون خمسة أشخاص يجب أن يُدْرَسوا من أجل الثناء في المرسوم.

كان اللواء موريرا يتعاطف مع شفيع المقعد، وهو كلاسيكي من القرن الثامن عشر. نظم قصيدة رحبة ملحمية في اثنيْ عشر نشيداً، «الأمازوناس»، على طريقة «اللوزياداس»[2]. مجهولة من قبل الأجيال الجديدة لكنها ممجّدة ومحلّلة في خلاصات التاريخ الأدبي؛ هل كان رائداً للرومانسية أم لا؟ مسبوقاً بملاحظة عن سيرة حياته، كانت المجموعات المدرسية المختارة تكرر مقطعاً من الملحمة، دائماً هو نفسه بعامل المصادفة الغريبة. كان الشفيع يجيد تلك اللغة البرتغالية الواضحة مثار إعجاب مؤلف «مقدمات لغوية» التي هي بالأحرى، تناهض النقّاد، الذين لا يتبنّون في «الأمازوناس» علامات الرومانسية ـ فشعراء المدرسة الرومانسية كانوا غير مهتمين وبشكل متطرّف، في التعامل مع اللغة، التي هي صحيحة جداً في أشعار الشفيع.

مقلّباً صفحات طبعة محترَمَة، نادرة جداً، أحد كنوز المكتبة، اللواء يستحسن واحداً فواحداً، الأناشيد الإثني عشر، منشداً صفحات وصفحات لليقظ سابينسا ـ كم يجبر الحب! كان يشعر أنه مذنب لكونه لم يقرأ قبلاً تلك الجوهرة في أدبنا

---

(١) PATRONO: شخص يُنسب إليه الأمر، ويكون عادة هو أول من استخدمه.
(٢) OS LUSIADAS: ديوان شعري ملحمي للشاعر البرتغالي كاموئز.

الكلاسيكي. الصديق سابينسا سيقرأها بالتأكيد أكثر من مرة، وقد تذكر اللواء أنه رأى مقطعاً أُعيد نشره في «مجموعة منتقاة[1] من الأدب البرتغالي - البرازيلي». كذب سابينسا مضاعفاً، نعم، قرأها مرات متكررة، لكنَّ الأفضل أيضاً هو الإصغاء إلى المقطوعات ذات الأصالة يلفظها اللواء، الصوت المتجبِّر، الذكوري، العسكري. في الحقيقة لم يقرأها، وهي واقعة قليلة الاحترام لمؤلّف المجموعات الشعرية المنتقاة، وفي «البرتغالية - البرازيلية»، ناسخاً ذلك المقطع المشهور نفسه، ولم يكن الأول الذي ينسخه. إذا أخذ أحد ما، في الماضي، على نفسه مهمَّة الاختيار، لماذا على الآخرين اجتياز صعوبة مائتيْ صفحة مكتوبة بأصالة عظيمة وغير مقروءة؟ وفيما اللواء كان يطرق على أسماعه بأبيات الشفيع، كان سابينسا يحلم بسيسيليا، منبهراً.

في خطاب التنصيب، المحسوب بخمس وثلاثين إلى أربعين صفحة، قياس ملائم، حوالى ساعتين من القراءة، ثلاث صفحات ستكون مخصَّصة للشفيع. اللواء سيطلب اكثر انتباهاً وتكريساً لذكراه وقصيدته. لبُّ الخطاب، على كل حال، سيقوم بتحليل لعمل ثلاثة ألوية قد احتلّوا المقعد بالتعاقب، قبل الانتخاب العبثي لبرونو. أدخل اللواء موريرا نفسه، مع إقدام قوي الشكيمة ظهر في خنادق الدستوريين[2]، في كتب عسكريين شجعان ومضغها، الواحد تلو الآخر، بلذة ثقافية عظمى.

اللواء الأول ترك فقط مجلّداً واحداً وهو من أكثر المجلّدات رقّة، مائة واثنتا عشرة صفحة مطبوعة بالتيبو[3] المتطوّر، تحت عنوان «تآريخ سعيدة للوطنية» جامعاً خطابات احتفالية، ملقاة في مناسبات الذكرى السنوية لإنجازات بارزة، دائماً على وجه التقريب معارك مظفرة من قبل فرق برازيلية في حروب الامبراطورية. على كل حال هي كافية ليستطيع المؤلّف، القادر من القوات المسلّحة، أن يقدمها في إطار مؤسسي المؤسسة اللامعة. عاش أكثر من تسعين سنة، إذا كان ينقصه كتب كانت تفيض عنه اللطافة، التي كانت ذات نفع كثير للأكاديمية في الأوقات البدائية من الفقر والكساد.

---

(١) ANTOLOGIA.

(٢) نسبة إلى ثوار سان باولو عام ١٩٣٢.

(٣) نوع من الطباعة: التيبو واللينوتيب اللذان يتمان بالصف الآلي على الرصاص السائل قبل تجمّده.

في المقابل، كان خلفاً للواء ذي لائحة واسعة بالكتب التي ألّفها، ومات بعد شهور قليلة من التنصيب. مؤرخ غزير، ترك ثمانية أجزاء كبيرة حول حرب الباراغواي، أربعة حول مسألة «عبر البلاتا»[1] وعندما توفي كان يعمل في سلسلة حول الحملة ضد الطاغية روساس، في الأرجنتين، والتي نشر منها المجلّد الأول، تاركاً اثنين آخرين غير مطبوعين ـ بقيا غير مطبوعين حتى اليوم. اللواء موريرا كان يعرف بعض هذه الكتب يخصّها بتقدير عظيم. كان يشعر أن العمل الهجائي «لوبيز الطاغية» كرائد لعمله، يشتمل على شيء وآخر من نفس الوطنية المهيّجة (والعمياء).

اللواء الثالث، اضافة إلى أنه مؤلّف دراسات جدّية ومثيرة حول أهالي البلد، منشورة في «المجموعة البرازيلية»، درس فيها عاداتهم، لغاتهم، تقاليدهم ومعتقداتهم، كان شخصاً أسطورياً تقريباً. إنه ابن السرتون، جاب غابات ومستنقعات. عبر أنهاراً، أنشأ احتكاكات مع قبائل ما رأت قط أبيض. تفهّمَ وتعاطفَ مع المتوحشين أهلِ الغابات كانا يوسمان بنفَسَ من الإنسانية عمله ونشاطه. أنطونيو برونو في خطاب تقلّد المنصب، اكتشف فيه شاعراً، إذا لم يكن في الكتب التي نشرها فبالتأكيد في الأسطورة التي عاشها.

من تحليل عمل وإنجازات الألوية الثلاثة وُلد العنوان الذي كان اللواء موريرا يفكر بأن ينشر تحته خطابه، بحثٌ أدبيٌ قصيرٌ وممتع: «مقعد الجيش».

استبقى أكثر من صفحة بقليل لشعر انطونيو برونو، الذي هو في نظره؛ عذبٌ ومتحللٌ، حتى هذا ما كان يستحق. لكنْ كما قال الشاعر الماجن، المزيّف في شهادات فرنسية، [2] «NOBLESSE OBLIGE».

بحث في مجلّدات مختلفة في شعر المتوفى والتعليقات الواردة عنه في الصحف فلم يحتفظ بذكرى طيّبة لا في الشعر ولا في النثر. كان برونو يستخدم الشعر الحرّ ويتعسّف، متخلّياً عن القافية والوزن العروضي، وبلا قافية وعروض لا يوجد شعر

---

(١) نهر في الأرجنتين يصب عند بوينوس أيرس في المحيط الأطلسي ويشكل معه «بحر بلاتا» ومعناه في الاسبانية «مار دل بلاتا».

(٢) في الفرنسية ومعناها: النبل يرغم...

خليق بالتقدير، كان اللواء يؤكـد بشكل متكـرر غامض، غـير مفهوم، سـوريالي، وبـدلاً من الشعر كـان يتضمن كتابـات هيروغليفيـة. من دون الكلام عـلى اللغـة السوقية والعبارات المقتَبَسَة عن الفرنسية التي لا تحصى.

المسرحية الشعرية «ماري جون» التي شهد إعادة تركيبها بدعوة من الأكاديمي رودريغو إيناسيو فيليو، بدت له مبتذَلَة وتافهة. وبالنسبة إلى القصيدة حول باريس، كان على برونو أن يستجلب الإيحاء من «اللوزياداس»، أو على الأقل، من مقطوعات «الأمازونـاس» إذا أراد حقاً أن ينظم نشيداً حربياً قادراً على استنهاض الشعوب. الخلاصة، لم يكن أنطونيو برونو أكثر من غشّاش، أكثر من شاعر تافه. بكل وضوح لن يعلن هذه الحقيقة من أعلى المنبر، فوقعه سيكون سيئاً ـ الطقوس الأكاديمية تصرّ على الخلف الثناء الكثير لذلك الذي يخلفه.

مع هذا لم يخفِ عدم تثمينه لشعر الشاعر الخفيف في «الراقص والزهرة» في المحادثات مع الأكاديميين، أثناء فترة الأسبوعين من العمل المركّز في مكتبة الـ PETIT TRIANON. المهم في الواقع، في الخطاب، كان «مقعد الجيش» الذي سيُستعاد أصله النبيل مع انتخابه. فما كان لبرونو دخلٌ فيه، وقد شغله بالخداع.

بعض الأكاديميين كانوا يشحنون زنبركه، مـدفوعين بلسانه الثرثار، والبعض يصغـون بصمت. أخذ اللواء فـالدومـيروومورريـرا شحناً وصمتـاً كاستحسان وموافقة. مرشحٌ وحيدٌ، ليست لديه دوافع لكي يُبقي أفكاره سريّة. برونو في خطاب التنصيب دخل من كونه جسوراً، ابن بلد، ذا عادات مذمومة في وسط عسكريين طاهرين.

إبنة الثلاثين[1]

من طاقم الأرائك المنجّدة بالصوف، في زاوية من المكتبة، حيث تتجّه الدونا ماريانا سينترادا كوستاريبيرو، تبيّن المعلّم آفرانيو بورتيلا اللواء موريرا جاثماً على مرفقيه فوق طاولة المكتب والقلم في قبضته. يطلب الإذن، والذريعة تجنّب الضوء المباشر، ويغيّر الأريكة، فصار مديراً ظهره للمرشح. يسحب من الحقيبة الجلدية الصفحة من الورق الشبيه بالرق. في الأعلى حرفا AB، الحرفان الأولان من إسم الشاعر، مطبوعان بشكل بارز. في الأسفل الكلمتان منقوشتان بالخط الجميل، يكاد أن يكون رسماً: قميص النوم. يبسط الصفحة إلى السيدة التي لا تكاد تمسك انفعالها:

ـ ههنا الأمر. أنا استبقيتها لكي أحفظها. إنها نوعٌ من بقايا القديسين... فلكل أمرىءٍ قديسوه.

دمعةٌ نبعت وتدحرجت، لم تسع الدونا ماريانا إلى منعها.

ـ مات وهو يفكر فيّ. سنون كثيرة مضت، ولم ينس.

في ليلة السهر على الميت، حيّاها آفرانيو بورتيلا، حينـما كانت تصغي وهي صامتة، إلى تمجيد برونو، في جمع من الاصدقاء. جمالٌ ذابلٌ، شعرٌ بلون الفضة، وما زالت هكذا تتصرّف للوقار في المظهر وللحنين في العينين الواسعتين الكبيرتين النديتين، وهي أيضاً موسومة بالعمر، متورّمة. سمعها المعلّم آفرانيو تتنهّد، أية ذكريات تخبئها في عمق الذاكرة الخجولة بالذكريات.

---

(١) BALZAQUIANA: المرأة في الثلاثين أو أقل أو أكثر بقليل، نسبة إلى بطلة رواية «المرأة إبنة الثلاثين» لأونوريه ده بالزاك (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠).

لم يعد يراها مع مضي تلك الشهور وفي العشيّة فوجىء بالمخابرة الهاتفية بين المدن، غير المألوفة كثيراً في ذلك الوقت. من سان باولو طلبت الدونا ماريانا مقابلة. وصلت بالطائرة لكي تلتقيه في الأكاديمية، حسب ما اتفقا. وهنا كانت، الدمعة تسيل على الوجنة، وصفحة الورق في اليد المرتعدة، والصوت المهدد بالانقطاع في النشيج. أمسكت نفسها ـ كانت تعرف كيف تفعل ذلك ـ وتابعت:

ـ احتفلنا بعيده العشرين، في حفلة دامت أربعاً وعشرين ساعة. مضينا إلى متجر مجوهرات وأعطيته ساعة هدية، ليتجنّب الوصول متأخراً كما كان يحدث دائماً. كنت قد أكملت الثانية والثلاثين، وكان هو يناديني بالبالزاكية، لكنْ ليس ليلحق بي الإهانة، بل خلاف ذلك ـ ابتسامة بين الدموع.

أجرى المعلّم آفرانيو الحسابات، أكبر من برونو باثنتي عشرة سنة، في هذه الحال كانت في السادسة والستين. لم تكن تظهر عليها كل هذه السنون، بالأحرى تبدو أصغر مما كانت عليه منذ أربعة شهور، فالغضون تحت العينين قد اختفت.

وكما لو أنها تخمّن بمثل هذه الأفكار، أبلغت الدونا ماريانا:

ـ أنا في السادسة والستين وإذا لم أسعَ إليك قبلاً فهو لأني، بعد موت أنطونيو بقليل أُدخلت عيادة في سان باولو من أجل عملية تجميل صغيرة. لم أفعل ذلك إلّا تلبية لطلب من ألبيرتو، فهو يحب عينيّ فأزلت الغضون التي كانت تجعلهما قبيحتين.

ألبيرتو دا كوستا ريبيرو، الزوج، هو إحدى الفعاليات المالية في البلد، ملك القهوة، رجل أعمال لا يهدأ، مزارع كبيرٌ، أكبر مصدّر. آفرانيو كان يعرفه منذ تاريخ طويل، فوالد ألبيرتو وروزارينيو كانا شريكين في مشاريع مختلفة.

ـ لم يكن بوسعي أن أقدّم نفسي على الملأ قبل التئام الجروح، فأخفيت نفسي في المزرعة في ماتوغروسو[1]. وهناك لبثت طيلة هذا الوقت، أحب ذلك السلام. اليوم الذي يسبق أمس الأول، وأنا أقلّب صفحات عدد متأخر من «كاريتا» علمت من مقالة بيريغرينو جونيور، أن أنطونيو انتهى من كتابة، على ورقة بيضاء، كلمتيْ

---

(١) ولاية في الداخل البرازيلي من كبريات الولايات.

«قميص النوم» عندما ألمت به النوبة. بيريغرينو يرى أنه كان ينبغي أن يكون عنوان قصيدة. لا تتخيّل شعوري. في ساعة الموت، فكـرفيّ، تذكر امرأته الثلاثينية.

ـ هل كان في الواقع عنوان قصيدة؟ ـ فضولي هو المعلّم آفرانيو وكاتم للسرّ.

ـ لم يصل الأمر حد الكتابة.

رفعت الرأس، شبه مطبقة العينين (عيناك نهريتان، كان برونو يقول):

ـ الذي عنونه هو باعتزاز في الاستديو، كان علّية[١]، في الطابق السادس من فندق صغير للطلبة، سان ميشال. لا يزال موجوداً، في شارع كوجاس، إلى جانب بول ـ ميش. ظننت بأني مع معرفتي بأنطونيو قد دُمّرت حياتي، ويحدث خلاف ذلك بالضبط.

تعود النظرة إلى الوجه المتضامن للروائي:

ـ سأقول لك أمراً عبثياً وحقيقياً يا صديقي. كان أنطونيو هو مَنْ أنقذ زواجي وجعل مني زوجة حسنة ووفيّة.

أوّاه، نساء برونو! ألا يتوقفن عن إرباكه، عن إلحاق الهزيمة به، شخصيات ذات ألغاز، أي رواية اكثر منها لامنطقية!

ـ أذكر جيداً ذلك الصباح لأنه أثناء طيلة الأسبوع كان الطقس سيئاً، بلاشمس. حين استيقظت ومددت ذراعيّ لأنطونيو، كان هو واقفاً ويتأملني بتعبير من الفرح. أنا كنت عـارية، ومن الطبيعي أن أكـون هكـذا. بتلك الابتسامة الجميلة لولدٍ بلا عقل، قال لي: إنك مرتدية ضياء الشمس. قميص نومكِ. سأكتب قصيدة[٢] لكِ، بهذا العنوان. لم أمنحه الـوقت، ظلّ الأمـر إلى ما بعد، وفي ساعة الموت تذكّر. تذكّرني.

لم تستطع حبس النشيج. تغلق فمها بالمنديل، واستعادت وضعها بجهد، سيدة عظيمة معتادة على السيطرة على مشاعرها.

---

(١) MANSARDA: حجرة قائمة بين الطبقة العليا الأخيرة والسقف المصنوع من القرميد.

(٢) في الأصل: SONETO.

ـ جئت لأقترح عليك مقابلاً. دع هذه الصفحة معي، فأعطيك شيئاً ثميناً جداً لكنه في يدي سيستمر بلا فائدة.

تفتح حقيبة السفر، وتسحب دفتراً مدرسياً:

ـ في هذا الدفتر كتب لي أنطونيو إكليلاً من القصائد[1]. إنها غير منشورة، لسوء الحظ، على الأقل، في طبعة لتباع في المكتبات. فكرت أن بوسعك أيها السيد أن تأمر بطبع طبعة صغيرة مترفة، ربما مع بعض الرسوم. لدى ألبيرتو طبعات كثيرة من هذه، فرنسية وإنكليزية. والرسوم بالوسع أن تكون لـدي كـافالكانتي، هو صديق حميم لإبني الأكبر، أنطونيو.

بعد ذكرها الإسم، وقفةٌ سريعةٌ:

ـ إنه صورة عن والده...

يأخذ آفرانيو بورتيلا الدفتر، ويقلّب الصفحات، وتطلب الدونا ماريانا:

ـ إعمل معروفاً، بعد أن أنصرف أنا. لا أعلم كم تكلّف الطبعة. لكنْ إذا قبلت أنت أيها السيد تحمّل الأمر، سأدفع التكاليف. أريد فقط أن ترسل إليّ نسخة، حينما يصدر.

ـ كوني مرتاحة، ليس بحاجة إلى تمويل، دعي كل شيء على حسابي. دي، أين يتواجد؟

ـ في ليشبونة مع أنطونيو، قدما هاربين من فرنسا، مهتاجين من الحرب. فمن بين الأشياء التي ورثها أنطونيو عن أبيه، هو عشق باريس. يعيش هناك أكثر مما يعيش في سان باولو. هما ينتظران أداة نقل إلى البرازيل.

ـ والأصول؟

ـ اجعلها تقدمة لمكتبة الأكاديمية أو للمكتبة الوطنية. أدع الاختيار لك أيها السيد. لا أريد الاحتفاظ بها معي لوقت أطول. قد أموت على حين بغتة، لا أرغب أن يعثر ألبيرتو على هذا الدفتر وسط حاجياتي. وحدك أيها السيد تعلم أن هذه القصائد كُتبت

---

(١) SONETOS.

لي، حتى ولا سيلفيا كانت على علم بها.

هبطا بالمصعد، رافقها المعلّم آفرانيو إلى بوابة الخروج حيث كانت بانتظارها سيارة أجرة[1]، والسائق يقرأ أخبار الحرب في صحيفة مسائية. انحنت ماريانا لكي تدخل السيارة، ويبتسم الروائي وهو بادي الإعجاب بحجم الوركين ـ إنها لم تختر دي كـافالكانتي عرضاً ليزيّن بالصور إكليل القصائد، الكتاب غير المطبوع لأنطونيو برونو، الأول، السابق لـ«الراقص والزهرة»، وفوق هذا كله، ماجنٌ، شيء ثمين مختص بالمصادر.

لم يعد المعلّم آفرانيو إلى المكتبة. لاذ بقاعة من قاعات الطابق الثالث، في وسط إضبارات التوثيق[2]. يقرأ في فترة راحة واحدة القصائد الخمس عشرة الماجنة. «بداية للمتعة». عنوان فرعي «اكليل من القصائد (الصوناتات) لسيدة من سان باولو، ماجنة باريس». التقدمة: «إلى م... ماريّتي ده ميديشتي».

يعود إلى القصيدة الأولى، يعيد قراءة البيت بتمهل، بنصف صوت، كمَنْ يشمئز من مذاق نبيذ حانة غريبة: كبيرة الردفين فينوس ذات العجيزة الفاتنة.

---

(1) TAXI.

(2) ARQUIVO: الأرشيف (اقتباس عن الفرنسية).

السيدة ذات الجمال الذابل

١

اتحادُ عائلتين تقليديتين، تحالفُ ثروتين قادرتين ، جعلا الصحف تتنافس في الإطناب الإخباري حول زواج ماريانا دالميدا سنترا من ألبيرتو دا كوستا ريبيرو. مع هذا كان زواج حب، وخطيبـان على هذا القدر من العشق كانا مرئيين نادراً في الشرائح العليا من المجتمع حيث المال يقود الأحاسيس.

ماريانا، قوامٌ منتصبٌ، شقراء ذات جسم ممتلىء ـ هاربة من إحدى لوحات روبنز، كتب الشاعر مينوتي دل بيكيا الذي بسببها يتنهد، قاطعاً غراماً شديداً ـ تانك العينان الرومنطيقيتان، قطرات هائلة من الماء، ضائعة في اللانهائي. ألبيرتو أيضاً أطول، جميلٌ عريض المنكبين، أسمرٌ رياضـي يحظى بالتصفيق، الفائز في اختبارات الفروسية، قافزاً فوق عقبات، ممتطياً جياداً استثنائية، مع اسطبلات في الجوكي كلوب، شريك والده. شركة التصدير، التي مركزها في سانتوس، كانت تتحكم في بورصة القهوة، مقررة حيال الأسعار العالية والمنخفضة، معبئة في صناديق أنهاراً من النقود. مزارع الأسرة والأخرى كانت تشغل الأراضي الأكثر خصباً في سان باولو حيث تنمو مساحات مزروعة بأغراس القهوة ذات زراعة عليا، في ماتو غروسو، كانوا يسمّنون القطعان ذات الأصل النقي وألوف الرؤوس من الثيران.

أكملت ماريانا سنتها العشرين، هو الخامسة والعشرين حينها خرجا في رحلة الزفاف في باخرة عابرة للمحيطات لمدة ثلاثة شهور حول العالم، لكنَّ شهر العسل استمرَّ خلال أكثر من أربع سنوات، استقبالات، حفلات، حفلات راقصة، نزهات، أسفار إلى الأرجنتين، إلى الولايات المتحدة، إلى أوروبا.

بعدها تغيّر كل شيء. مع موت الأب، تسلّم ألبيرتو بمفرده قيادة الشركة، إدارة

المزارع، لكونه أكبر اخوته والأم لا تتورّط في الأعمال. قبلاً كانت تساعد والده، تشترك في القرارات، تقدم حدسها، لكنَّ القيادة كانت للعجوز. ألبيرتو كان يعيش من أجل الزوجة، مرضياً إياها بالنزوات الصغيرة، محباً ووفياً. ربما قد يكون أقلّ شكلية في الفراش، كانت ماريانا تفكر أحياناً، الجسد مستَنْفَد في رغبات يتجاهل ألبيرتو وجودها، إذ أنها، المعتزّة بنفسها، لا تدع أبداً أن يظهر عليها أن الاشتياق يلتهمها. لهذا السبب أقاما حياة جنسية عادية ومكرَّرة، بلا مغالاة ومحاباة. من أجل المغالاة والمحاباة كان ألبيرتو يسعى إلى الفرنسيات في العاصمة[1] وفي سانتوس.

شيئاً فشيئاً، العادات التي لا تُعَدّ وحمى الأشغال التجارية شغلته كلياً وماريانا ترى نفسها في كل مرة مبتعدة أكثر إلى مخطط ثان في حياة الزوج، مَنْ كان ينقصه الوقت والمزاج الحسن. انتهت أيام العطلات، بواخر المسرّة، كان ألبيرتو يسافر كثيراً، أسفار عمل، عجولة ومتعبة. كان يعهد بالوفاء بالواجبات الاجتماعية، المفرحة جداً، إلى ماريانا، مدعياً، بالقوة، أنه مسحوق بالجهد وبالمسؤولية التي كانت تثقل كتفيه. لا يزال يقوم بقليل من الرياضة لكنه لم يعد الفارس الذي لا يبارى في السابق، أهمل الجياد الأصيلة والاسطبلات سُلّمت إلى الشقيقين الأصغرين.

بعد اثنتي عشرة سنة من حفلة الزواج الرائعة، وصلت الحياة الزوجية لماريانا وألبيرتو إلى موقف حرج. ففي يوم من المطر والوحدة، مرهقة من الهجران الذي كانت تعتقد أنه ناتج عن اللامبالاة وانعدام الحب من جانب الزوج، صممت ماريانا على الانفصال. لم يكن عندهما أبناء والحياة تحوّلت إلى تضحية بليدة وبلا جدوى، إذلال ونفور فقط. كان يحدث أنه ينصرم شهر أو أكثر وألبيرتو لا يسعى إليها. عند انتقالهما إلى دارة جديدة، ذات نمط حديث، تصميم فارتشا منشيك، احتلاّ حجرتين منفصلتين.

حين أبلغت ألبيرتو بتصميمها، لم يشأ مصدّر القهوة أن يصدّق. بقي عرضة للهذيان. أأنتِ مجنونة؟ انفصال، لماذا إذا كنا نعيش بشكل حسن ويحب أحدنا الآخر؟ أم تُرى أنكِ ما عدتِ تحبينني؟ كانت تحبه، أجل، مَنْ يعلم، ربما هو لا يزال

(١) المقصود العاصمة الإيالية سان باولو وليس العاصمة الاتحادية ريو ده جانيرو.

يحبها، لكنْ ماذا يفيد هذا الحب إذا الواحد لا يرى الآخر تقريباً، ونادراً ما يخرجان معاً لعرض في السينما، عرض في المسرح، واجب اجتماعي؟ هل تعلم أنك منذ وقت طويل لا تقرع باب حجرتي؟ منذ شهرين تقريباً؟ هل أخذت هذا في الحسبان؟

دافع ألبيرتو عن نفسه. كانت ماريانا بالذات مَنْ طلبت حجرتين منفصلتين، الأمر الذي يبدو له أنه يظهر صدّاً، عدم اهتمام من الزوجة، فشعر أنه مجروح. وانعدام الأبناء أيضاً ساهم في البعد، فكثيراً ما رغبا في الاطفال الذين لم يصلوا. على مَنْ يقع الذنب؟ ماريانا اخضعت نفسها لمعالجات، عاينها اختصاصيون، كل شيء بلا جدوى. وألبيرتو أجرى فحوصاً طبية، فما كان عقيماً. مضيا في الابتعاد عن بعضهما بعضاً، وشرعت ماريانا تغدو ذات مرارة، أنثى وُلدت للحب ولم تحصل عليه، فعانت منغلقة على نفسها في اعتزاز السيدة الكبيرة. متكبّرة أكثر من اللازم لكي تشكو.

في البدء بقيت صلبة في تصميمها على الانفصال. لكنَّ ألبيرتو كان يعبدها ولا يتقبّل امكانية العيش من دونها. اقترح خياراً. الأخت الكبرى لماريانا، سيلفيا، التي صارت أرملة منذ أكثرمن سنتين بقليل، كانت تقيم في باريس حيث استأجرت طابقاً في جوار الشانزيليزيه. لماذا، قبل أن تتخذ قراراً لا يمكن الرجوع عنه، لا تمضي ماريانا بضعة أشهر مع اختها؟ اقترح البيرتو ستة أشهر من العطلات الزوجية. وفي حال تحمّلا العيش كل منهما بعيداً عن الآخر، ينفصلان عن بعضهما بعضاً. لكنْ إذا أحسّا بالشوق إلى الحياة المشتركة، يعودان لمحاولة جديدة. مَنْ يدري، بعد هذه الشهور من الغياب يعود كل شيء ليغدو مثلما كان الأمر في السنوات الأولى؟ فوق كل هذا، شقيقا ألبيرتو كانا يعملان معه وأصغرهما أظهر عقلاً حسناً للأعمال. في هذا الوقت الضئيل، سيسعى إلى تمرير العمل الضخم وقسم من المسؤولية التي يتحمّلها حتى الآن بمفرده، إلى شقيقيه.

من رصيف مرفأ سانتوس، أشار البيرتو مودّعاً، وبكت ماريا اثناء الرحلة بطوالها في الجناح المخصص لها في باخرة الركاب الإنكليزية. لم تكن تحسب أنها ستبقى في باريس أكثر من شهر وقضت الخمسة الأخرى في المزرعة الأبعد، وهي واحدة حصلوا عليها عند حدود ماتوغروسو مع الباراغواي.

٢

سيلفيا تركت في سان باولو خمار التأيّم[١]، والتزامات العائلة، لا أحد كان يقول إنها أكبر من ماريانا بثماني سنوات. جددت شبابها في باريس.

ـ يا ابنتي[٢]، كنت عبدة للزوج وللأولاد طيلة الحياة. الزوج مات والأبناء ينمون، أنهوا الكلية، ممتلئين بالمال، ليسوا بحاجة إليّ، تحيا باريس!

كانت هي منْ قدّمت برونو لماريانا:

ـ أنتِ بحاجة إلى شخص ما يصحبكِ، يأخذكِ في نزهات، للرقص، يعلّمك على المطاعم، المسارح. بعد خمسة عشر يوماً سيقام الحفل الراقص للأقنعة في الأوبرا، يلزمكِ الذهاب إلى الخياطة لتوصي على ملابس التنكر[٣]. لكل هذا وللباقي، لا يستغنى عن الجيغولو[٤] وأنا أعرف واحداً مصنوعاً على مقاسك. هو جميل ويكتب شعراً.

ـ وأنتِ لديك واحد؟

لأقول الحقيقة، لديّ اثنان، الصغير جان والكبير أندريه، هما نقيضان، في الحجم وفي كل شيء؛ أحب التنويع.

ـإنما أنا لا أحب التنويع، بالنسبة إليّ لم يوجد حتى اليوم إلاّ البيرتو.

ـ بالضبط لأني أعلم أنكِ وحيدة الزوج، أنصحك فقط ببرونو. يدعى أنطونيو برونو، طالب، شاعر وباهيّاني[٥]، هل تريدين أفضل منه؟ في مادة حب النساء لا يضاهى.

---

(١) أي الترمل.

(٢) تقال للتدليل.

(٣) FANTASIA .

(٤) من يعتاش على حساب النساء وهو زير نساء أو قواد.

(٥)من ولاية باهيا في شمالي شرقي البرازيل.

ـ أصبحت مجنونة. جئت إلى هنا لأنسى زوجي، لا لأخونه.

ـ مَنْ تكلّم في الخيانة؟ أنتِ مأساوية أيتها المرأة. برونو سيصحبكِ فقط، يتنزّه معكِ، يأخذكِ إلى مصممة الأزياء، إلى المطعم، هو وصيف. سيمضي إلى ما هو أبعد من ذلك إذا ما وافقتِ، إذا لم تكوني قادرة على المقاومة.

قاومت زير النساء، الجمال، شعر الفتى خلال أكثر من اسبوع، وأذعنت لمناسبة الـBAL MASQUE[1] في الأوبرا، في اليوم التاسع.

قبلاً، في صحبة انطونيو ـ ما دعته قط ببرونو ـ وهي كفتاة ذات حضور رقيق وجريء، اكتشفت باريس أخرى لم تعرفها في رحلاتها السابقة، فزارت متاحف، كاتدرائيات وتعلمت تفاصيل عن نوتردام وتعلمت أن تحب لطف وبهاء المدينة، أحسّت بنفحة النَفَس الحقيقي، أبعد من السياحة التي كانت معتادة عليها. آنا مع جان، طوراً مع أندريه، ودائماً مع سيلفيا، تتبدّل ليالي المطاعم، الخمّارات، المسارح، الكباريهات، راقصة، ضاحكة، محتسية شامبانيا، هو يكرر لها تصريحات وأشعاراً بالحب. هل كان حقاً متيّماً؟ كان جميلاً ولطيفاً، غير مسؤول وغير متبصّر. القسم الجانبي من الوجه الأسمر والقوي كان يذكرها بألبيرتو عندما عرفته، شاباً وفارساً مقداماً قافزاً عقبات الفروسية، نمط من ألبيرتو وهو شاعر ومجنون. تنازلت له عن قبلات مختلسة هنا وهناك، في حلبة الرقص، يا له من راقص لا يضاهى! في أوقات الفجر عند ساعة العودة، حينما كانت سيلفيا، الخالعة الحياء، منسجمة مع الصاحب المناوب. لكنْ لم يتجاوز الأمر أكثر من هذا.

متذكرة مغازلات شاعر آخر، ذي الأقنعة، تنكرت بألبسة ماريا ده ميديشتي مثلما هي مرئية في ساعة الزواج بالتوكيل، في لوحة روبنز. ملابس تنكرية؟ كانت ماريا ده ميديشي نفسها وكانت ملكة الحفل التنكري[2]. برونو ارتدى ملابس المهرّج نفسه في السنة السابقة. التنانير الثقيلة للثياب التنكرية منعتها من أن تغدو الزوج[3] المثالي في

---

(١) في الفرنسية: الحفل الكرنفالي المقنع.
(٢) في الفرنسية: BAL MASQUE.
(٣) PAR: الاثنان في الرقص، الرجل والمرأة.

رقصة الماشيشي[1]، لكنّ برونو كان ماهراً لدرجة أن الازواج الآخرين ابتعدوا وصفّقوا. واغتنمت سيلفيا نجاح شقيقتها لتختفي مع أندريه.

في سطوع ضوء الصباح، وجدت ماريانا نفسها ملكة في منتصفها، وعبدة من الخصر إلى ما تحت، على سرير الراقص الشاب، المتسكّع والجيغولو، فرانسوا فيلون إبن المناطق الاستوائية، كما سمّى هو، المرح، نفسه بقصد الضحك، بعد أن صعدا، سكرى وعديم المسؤولية، الطبقات الست ذات المرتقى الصعب من الدرجات المتآكلة ـ، حتى الحجرة القابعة بين الطبقة العليا والسقف في الطابق السادس من فندق سان ميشال.

عند تملّكه جسد ابنة سان باولو الرائع، كاد برونو يموت من الرغبة الممسوكة بحسرات قاسية. إن أية امرأة أخرى لم تكلّفه مثل هذا الوقت الطويل، كل هذه الطلاقة في اللسان، كل هذا الغزل. لقد تحدّت ماريان صبره، فكانت تردّ على المغازلات باسم وصفات زوجها، فتجاوزت جميع المهل؛ شعر الغازي الكفوء أنه على حافة الفشل مهاناً. وهكذا في المرة الأولى، تمكّن منها بضراوة، بحنق على وجه التقريب، ممزقاً إرباً التنانير المترفة الملكية (الملابس التنكرية للملكة باتت في عينيْ العزيزة موصى عليها من قبل الخيّاط الأنيق جداً) منتزعاً الملابس الداخلية، تاركاً إياها بصداري وقلادة كبيرة تحصّن العنق. عاصفة هوجاء.

بعد أن مرّ الاندفاع المباغت البدائي، شاعرة أنها خائنة للمرة الأولى، ارتعدت في ساعة الإمتاع، حابسة تأوّهاً. وبرونو قد تنبّه لدراما ذلك الجسد للمرأة المخلوق على مقاس الشبق من أجل حفلة السرير وهي معدومة منها إذ كان لديها فقط السرير الزوجي المحدود لرجل أعمال ثري. الزوج، مَنْ اسمه وانتصاراته في الفروسية تستبقيها هي في فمها بشكل دائم، قد يكون فارساً ضليعاً، بطلاً لدورات عظيمة، جميلاً، مليونيراً، فاضلاً، مبهجاً وكل شيء آخر، إنما في المادة الأساسية التي تحدد كل ما تبقى، لم يكن أكثر من تافه، كما يستطيع برونو أن يؤكد بسهولة.

بعد أن اغتصبها بحيويّة زير النساء القاسي، شرع يجرّدها من ملابسها بتمهل،

(١) رقصة من مبتكرات أهل الريو.

قطعة قطعة، مضيعاً وقتاً، إذ فيما كان يفعل ذلك، تمكّن من جميع التفاصيل، في كل جزئية يتوقف، جاعلاً جسد المرأة يهتزّ بأكمله، متوقّداً، في الدهشة وفي ظهور المتعة. برونو الخبير في فن الإمتاع، بالتذوّق والوظيفة، جلبها من تفاهة ألبيرتو إلى الأطعمة اللذيذة المصفاة، رافعاً عنها العصبة أمام استعمالات وعادات غير مطبوعة بالنسبة إليها، رقّة اللسان وأحاسيس اللمس، عندما، في ذلك الفجر لمس الردفين والثديين الذين اتخذهما روبنز نموذجين، في الزهرة المتفتحة عسلاً. في النهاية شاهدها عارية تماماً، الثديين الناهدين، الساقين القويتين، العينين الواسعتين في الماء النقي. أدار لها الظهر، الظهر الرائع، العجيزتين كعجيزتيْ البغلة، سيمتطيها إذ أن ألبيرتو لم يعرف كيف يمتطيها. في رغوة الشامبانيا تذوّقها متمهلاً.

كانت ردة فعل ماريانا انفجاراً شبقياً وعاجلاً، مظهرة في الوقت نفسه جهلاً ورغبة في التعلّم. بركان خامد، ثار فجأة؛ لُهُبٌ حملتها إلى السموات ومن مرتفعات جسد الملكة سالت حمماً. الاستديو الصغير، الحجرة العلوية الفقيرة، في ساعة الترف أنٌ في موسيقى تأوهات الحب؛ تعطّر بأريج المرأة، عرق الرجل، رائحة المني، بالجنس المكتفي، مشبع ونهم؛ أضاء بالنور المنبثق في عينيْ الماء لماريانا، وهما أيضاً أكبر إذ هما ممتلئتان بالدموع. هكذا كانت بداية السهرة الحمراء التي دامت ثلاثة أشهر.

ثلاثة أشهر أثناءها استسلمت ماريانا واستقبلت، مستعيدة السنين الضائعة. ما كانت ترغب بشيء إلّا أن تكون في الحجرة العلويّة للشاعر، للغلام، لصبي باهيّا الذي بعثه إليها LE BON DIEU FRANCE[1] باليد الأخوية لسيلفيا. ملأته بالهدايا، شربت منه كلمات وأشعاراً. مقروصة، معضوضة، ذات لعاب يسيل، ممصوصة، مختَرَقَة، ممتطاة، ممتطية، كل ليلة تدشينٌ، إحساسٌ جديد، المذاقات المختلفة جداً، فوارق باقات الزهور ـ وكلها في الفرنسية، اللغة التي فيها أي كلمة تشير إلى الحب هي فاحشة: الإحليل الجميل والفرج اللطيف، القضيب والقطة، زرّ الورد وأوراق الوردة، الكلب والأفخاذ، المدرّة، الإست. كان برونو يقول لها قصائد شهوانية، لبودلير، رامبو، فيرلين، آبولينير: «الأرداف الثقيلة مثل أجبان هولندا» وكان يمارسها «مبردي تفجّر تحت الشفاه/ مثل خوخة تموز». كانت ماريانا تتعلّم

(١) في الفرنسية: إله فرنسا الطيب.

وتردد بنبرة الراهبات في DES OISEAUX[1] حيث درست الفرنسية: «إستي ينشّط ذكرى/ مداعبة لا تُنسى». روعة النوم بين ذراعيْ برونو، والاستيقاظ على لمس اللسان العظيم: «آه كم هو حسن»[2].

سرير الجيغولو والمرأة الثلاثينية[3]، المتسكّع والفاجرة، الشهوة والغلمة، الجوع والشهية. لم يكفه شعر الآخرين، فنظم برونو لماريانا، إكليلاً من القصائد[4] المتحللة، حيث غنّى تفاصيل بتفاصيل جسدها الرائع، معطياً قافية ووزناً ماجنين للرواية الفرنسية عن فرانسوا فيلون من باهيّا وماريا ده ميديتشي من سان باولو، المعاشة في «بول ميش».

٣

لم تقتصر الرواية فقط على الصباحات والليالي من المداعبات، في السهرة الحمراء الهائلة. فقد أُكملت وعُظّمت في فترات ما بعد الظهر بالنزهات، بالأحاديث التي لا تنتهي عند ضفة السين، في خمّارات سان جرمان، في حدائق اللوكسمبورغ، «حدائقكِ وقصوركِ يا ماريّتي ده ميديتشي». روت ماريانا أفراحاً وأحزاناً، استعرضت حياتها. أوهام تلميذة في DES OISEAUX، حفلات الرقص الأولى، الوريثة المتطلّبة ترفض المتقدّمين لخطوبتها، اللقاء مع ألبيرتو، الحب المفرط، الزواج السعيد، العودة إلى العالم، شهر العسل الذي طال لأكثر من أربع سنوات وبعدها الهجران البطيء، اللامبالاة، غياب الأبناء، الحجرتان المنفصلتان، الزوج في الاندفاع في كسب المال، المنقسم بين سان باولو وسانتوس، وفي النهاية اليأس، اقتراح الانفصال، المجيء إلى باريس قبل اتخاذ قرار نهائي لا يمكن إصلاحه. في باريس التقت برونو، السعادة.

السعادة؟ أم فقط المتعة، قلّة الاصطبار للمغامرة المدهشة، الفاسقة واللذيذة

(١) في الفرنسية: العصافير.

(٢) وردت العبارة في الفرنسية: AH COMME C'EST BON.

(٣) في الأصل: BALZAQUIANA.

(٤) SONETOS.

جداً؟ مهما كان الأمر، الانفصال بات إلزامياً، لم يعد الأمر متعلّقاً بمعرفة ما إذا كانت تتحسس فقدان ألبيرتو أم لا، فهي قد خانته، وانتهى كل شيء.

كان برونو يصغي إليها بذلك الانتباه الرقيق الذي عرف مبكراً كيف يمنحه للنساء، فيأخذها بين ذراعيه، ويغيّر الموضوع، ويقبّلها من عينيها الوسيعتين المليئتين بالماء ليبعدها عن الأفكار المحزنة:

ـ لديكِ شيئان يـا ملكتي، لا تملك أيّة امرأة أكثر منهما جمالاً؛ عيناكِ وعجيزتاكِ.

كان يتكلم عن الأغنيات الصغيرة واللوحات، ويقول لها قصيدة حديثة الكتابة لكنها كانت تعود إلى الموضوع الأزلي عن الزوج، الآن ضائع إلى الأبـد. ذات ليلة، بعد أن صعدا بمشقة الدرجات الوعرة للسلّم التي حملتهما إلى الطابق السادس في سان ميشال، سأل برونو:

ـ لماذا أنت قلقة؟ ما الذي حدث؟

فتحت ماريانا حقيبة اليد، وبحثت عن برقية:

ـ إقرأ...

كان ألبيرتو يعلن عن ركوبه باخرة فرنسية، وسيكون في باريس في الأسبوعين التاليين، لم يتحمّل الانتظار الشهور الستة المتفق عليها، فسلّم المؤسسة لشقيقه، حاصلاً على وقت للزوجة: من دونكِ لا أستطيع العيش، كان يؤكد في برقية الوسترن[1].

سيكون الأمر مزعجاً، مزعجاً لا، أسوأ بكثير، سيكون رعباً، لكنْ عليها أن تقول له إن مواصلة الحياة الزوجية باتت مستحيلة، فهي خدعته... أخذها برونو بين ذراعيه، وشرع يجرّدها من ملابسها فيما كان يتكلم:

ـ لن تفعلي شيئاً من هذا، يا ماريّتي ده ميديتشي، لن تخبري بأي شيء، فأنتِ تحبين زوجكِ، هذا هو الشيء الوحيد الحقيقي، فلماذا تريدين أن تجعليه يتعذّب؟

---

(١) WESTERN: إسم شركة تقوم بالاتصالات البرقية.

ـ ترى أنني بعدُ أحب ألبيرتو؟ إذا كان الأمر هكذا، لماذا أخونه؟

ـ تتكلمين عنه بلا توقف، تسيرين مع ألبيرتو إلى جانبكِ كله، لو لم أكن غلاماً طيّباً لكان بوسعي أن أشعر بالإهانة. أنا لست حبكِ، أعطيتكِ فقط شيئاً ما كان ينقصكِ، معرفة المسرّة. كنتِ محبوبة بشكل رديء، بالتأكيد كثيراً لذنب يقع عليكِ، كما هو لذنب يقع على زوجكِ. مَنْ أيتها الملكة، أغلقتِ على نفسكِ في سموّكِ، في زينتكِ الإمبراطورية؟ أنا استطعت أن أقطع عليكِ اعتزازكِ لأنكِ كنتِ سكرى، وأخذتكِ بالقوة. حين مزّقت ثيابكِ عرّيت قلبكِ. أليس هذا صحيحاً.

ـ أرى أنه نعم... ـ لا يزال فتيّاً جداً، أنطونيو كان يعلم أم يخمّن؟

ـ إذن؟ عودي إلى زوجكِ واجعلي من سريركِ كامرأة متزوجة ضمانة حبكِ. سلّمي ألبيرتو كل ما أعطيتكِ إيّاه، كل ما أخذته منكِ وأعدته إليكِ. لكنْ فقط عشية وصوله، حتى هناك، ستكونين لي، لي وحدي. ماريانا ماريا ده ميديتشي دا كوستا، لن أنساكِ أبداً. في ساعة الموت سأتذكركِ. والآن، هيّا بنا، بسرعة، فلدينا أيام قلائل لحفلة الوداع.

ـ حتى لو كنت أحبه، فالآن من المحال أن أعود إليه يا أنطونيو..

فزع برونو. هل كانت تظن هي في حياة مشتركة، في تحويل المغامرة المرحة، المثيرة والتي تدوم قليلاً في الاستسرار[1] أسوأ من الزواج؟

ـ سبق وقلت لكِ، هل تذكرين؟ لا أنوي الارتباط بأية امرأة ما، فلست دائماً، مؤقتٌ فقط.

ـ لا تخف. سأعود إلى البرازيل...

ـ أريد أن أقول لكِ شيئاً آخر، أنتِ وُلدتِ لتكوني متزوجة، لتصيري وفيّة لزوجك. لا أراكِ تمرّين من يد إلى يد، فلن تكوني سعيدة.

ـ ليس في الأمر شيء من هذا، يا أنطونيو. اسمع: إضافة إلى كل ما أعطيتني إيّاه، من الأشعار والمسرّة، فقد جعلتني حاملاً. أنذرك على الفور بأني لن أجهض، دائماً

---

(١) CONCUBINATO: معاشرة المرأة بلا زواج.

كنت أريد أن يكون لي إبن. لكنني لن أقلقك، سأنجب إبني في البرازيل، سيجعلني أتذكرك، أتذكر أنطونيو المؤقت الذي لي.

ابتسم برونو، والوجه مضاء:

ـ إبن؟ لماذا إبنكِ؟ هو إبنكِ بقدر ما هو إبني، إبننا!

بقي متأملاً خلال دقيقة طويلة ، بعدها أخذها بين ذراعيه وقبّلها من عينيها ومن فمها. آنئذٍ تكلم، على حين بغتة جدّياً ومتبصّراً، مجرّباً في العشرين من العمر مثلما يحدث للشعراء فقط، إنهم يحوزون على الهبة التنبؤية:

ـ زوجكِ أيضاً يرغب في إبن، أليس كذلك؟ أكثر من هذا، نحن متشابهان، هو وأنا، هكذا قلتِ لي. لا تظني أني أتخلّى عن إبننا. أعلم أنه سيكون ولداً وأنتِ ستعطينه إسم أنطونيو. لكنْ فكري معي، لماذا تربين إبناً بلا أب، إبن سفاح؟ هو سيدفع غالياً لهذا السبب، طيلة الحياة. لإبننا أنطونيو أفضل ما يمكن الحدوث هو أن يولد إبناً لألبيرتو ريبيرو دا كوستا وأنا أريد الأفضل لإبني. لا تهتاجي، لا تحكمي عليّ بأني غير جدير، فكري بتمهل، بهدوء، وستجدين أني مُصيب. أريد أن أعطيكِ أكثر من المسرّة وهو الإبن، أريد أن أعطيكِ العودة إلى زوجكِ. فمعه، أنتِ وأنطونيو ستكونان سعيدين.

هكذا كان. عشية وصول ألبيرتو، في ساعة الوداع، شكرته وهي تبكي، وتذكر برونو أنه بقي مديناً لها بقصيدة سيكتبها يوماً إذ كان يحتفظ في شبكة العين بصورة جسد ماريانا مرتدياً قميص نوم من الضياء، ضياء الفجر.

عند الصبي العشيق في باريس، على سرير الفجور في الحجرة العلويّة في الطابق السادس من سان ميشال، أعطيا اسم أنطونيو، في صلاة الشكر للقديس شفيع الزواج مَنْ هرعت ماريانا إليه طالبة إبناً. وحدثت المعجزة في ليلة وصول ألبيرتو عندما تجرّدت هي من ملابسها للزوج، في بيت الشقيقة، وقد طرحت عزّة النفس جانباً وتعاطت بحميّا واقتضاء. وأكد ألبيرتو المنبهر:

ـ اليوم سأفعل لكِ إبناً، لديّ تأكيد يا حبي.

بعدها، في سان باولو، وُلدا ألبيرتو فيليو[1] وسيليفيا، هكذا عُمّدت تكريماً للخالة التي استمرّت في باريس وما كانت تفكر في العودة، إنما بدلاً من الصغير جان والكبير أندريه، جرى التعديل ببوب، وهو أميركي أشقر رقيق ـ الأميركيون كانوا الموضة ـ مع الفرنسي جورج، الفرنسي لا يمكن الاستغناء عنه إطلاقاً.

في المجتمع الراقي السانباولي ليس من خبر عن زوجين أكثر منهما سعادة، حسب ما بيّن المعلّم آفرانيو بورتيلا في السعي لمعلومات كبرى، مادة للرواية. زوج متفرّغ لزوجته ويقظ، زوجة مخلصة ومحبة، يشيخان معاً، في خلال أربع سنوات سوف يحتفلان باليوبيل الذهبي[2]. ماريانا وألبيرتو قد برهنا أنه حتى بين المترفين وأصحاب الملايين، المصنوعين من المال والتفاهة، بوسع الحب أن ينمو ويغدو خالداً. إنها أعمال سحر عائدة للشعراء، في مادة الحب أكثر إتياناً للعجائب من القديسين المتوّجين في المذابح[3].

---

(١) FILHO: الإبن.
(٢) BODAS DE OURO: عيد الزواج الخمسيني.
(٣) المقصود: مذبح الكنيسة ALTAR في حال الجمع.

الخط المستقيم النهائي

في الخط المستقيم النهائي، في أسبوع الانتخاب، في ذلك الشهر الشديد الحرارة، كانون الثاني ١٩٤١، الجو الساخن والرطب يثقل فوق مدينة الريو مثل حجر من الإسمنت المسلّح، خبران حسنان، كل منهما عائد إلى تدخّل الأكاديمي ألتينو ألكانتارا، فتحا إمكانات مسرّة للمرشح الوحيد.

الأول يشير إلى الرداء، كان يحوز، فوق كل شيء، على منفعة اقتصادية. الكمّان والياقة مطرّزة بالذهب في نسيج من الجوخ الأخضر، باهظ الثمن، الرداء يكلف مبلغاً خرافياً، ونصف مع التكملات التي لا غنى عنها؛ طرفان مع ثنيات مدروزة من الذهب وريش أبيض، السيف القصير ذو النقوش والياقة المذهبة. ألتينو ألكانتارا، وهو مباغَت ومجامل بدعوة إبن مذهبه لإلقاء خطاب التسلّم ـ ظنّ أن المختار سيكون رودريغو إيناسيو فيليو، أحد شفعاء ترشيح اللواء وصديق حميم للعائلة، حسب ما قالوا له ـ وعد بإطلاق اكتتاب في سان باولو موجّه لتمويل بذلة الخلود الفاخرة. ستكون عملاً يدوياً مهيباً يتطلّب وقتاً، وإلا فلن تسرّ المقاتل القديم في سنة اثنتين وثلاثين، الفكرة بالاعتراف العلني لصنائعه في الحرب من أجل سكان الولاية الكبيرة.

وإذ ندم على الوعد، آثر ألكانتارا التحرّك بالأبواب المتعاكسة، طالباً وساطة صديق مشترك مع مراقب[1] ولاية بيرنامبوكو، الذي أبدى قبولاً، واعداً بتوقيع مرسوم بفتح اعتماد من أجل النفقات مع رداء إبن ولايته. فالاعتزاز الإيالي تغلّب على الاختلافات

(١) INTERVENTOR: شخص يكلف في الأحوال غير العادية برئاسة الولاية ممثلاً لرئيس الجمهورية.

السياسية. أكثر من هذا، قال المراقب لرئيس الشرطة، إن اللواء فالدوميرو موريرا، الذي هو في الاحتياطي، من دون قيادة الجنود، المرتاح على الكنبة الأكاديمية، ما كان يمثّل أي خطر على الدولة الجديدة. الهبة الرسمية سوف تحيّده بالكامل ـ بعض الكونتوات من الريالات موظفة جيداً.

إضافة إلى هذا الخبر البشارة، فتح له ألكانتارا، صاحب الفضل إمكانية الانتخاب بالإجماع. كان اللواء ينقص صوتاً يقترع على ورقة بيضاء، هو صوت ليزاندرو لايتي. وإذا افترض أنه الصوت الوحيد، لا يزال هكذا كافياً ليمنع ابتهاج الإجماع النادر جداً في اقتراعات الأكاديمية. كانوا يُعدّون بأصابع اليد الواحدة الخالدون الذين أنتُخبوا هكذا.

ألتينو ألكانتارا، سياسي منحرف، محامٍ بارز على رأس أحد أكبر المصارف في سان باولو، مسؤول عن المصالح القضائية للمصرف البرتغالي في البرازيل والصناعات الكبرى، منذ إغلاق البرلمان بانقلاب العام ٣٧، كان يأتي قليلاً إلى الريو وأقل أيضاً إلى الأكاديمية. من مذهب اللواء، يعلن التعاطف مع ترشيحه، اختير لاستقباله ـ اللواء لم يكتم سرّاً عن الدعوة السابقة ـ حتى ولا إيفاندرو وأنصاره، ولا ليزاندرو والأوفياء للعقيد سامبايو بيريرا تكلموا معه حول الانتخاب الإشكالي للواء. مضيعة خالصة للوقت ما كانت تستحق العناء. على كل حال، فالرئيس إيرمانو دو كارمو، في إحدى المرات النادرة التي يظهر فيها الأكاديمي القليل المواظبة، أشار إلى التدبير الباعث على التذمّر للمرشح الذي أعلن قراره في عدم الوفاء بالبروتوكول، متخلياً عن زيارة ليزاندرو لايتي: الواقعة كان لها صدى رديء.

قبل أن يعود إلى سان باولو، سعى ألكانتارا إلى اللواء ليسلّمه الأصوات حيث أن جلسة من التي لا يستطيع التغيّب عنها، معيّنة ليوم الانتخاب، تمنع قدومه إلى الريو. اعتذر لعدم الحضور إلى بيت الصديق العزيز بعد التصويت، حاملاً بصورة شخصية عناق التهاني إليه، إلى زوجته الفاضلة جداً وإلى ابنته الحسناء. اغتنم الفرصة لينصحه ببذل مرونة أكثر في التعامل مع ليزاندرو، بادئاً بإعادة النظر في الموقف المتخذ في ما خصّ الزيارة.

ـ إغفر لي يا صديقي اللامع، لكنْ كضابط أعلى في قواتنا المسلّحة، لواء في

الجيش، أشعر بأني كسيح. إن شرفي قيد الرهان...

ألكانتارا، وهو سياسي حذق، وجد طريقاً للمصالحة ـ كان دائماً يجد طريقاً للمصالحة ـ.

ـ أفهم أنك لا تريد الذهاب شخصياً. إفعل التالي: دع بطاقتك مع كلمة في باب المبنى الذي يقيم هو فيه. توجد سوابق في انتخابات سابقة. وهكذا ربما يغدو ممكناً أن لا يقترع ليزاندرو بورقة بيضاء، يمتنع فقط، متيحاً للصديق إمكانية انتخابه[1] بالإجماع.

ثقلت الحجة، وارتخى اللواء موريرا:

ـ هل سيوجّه الصديق العزيز كلمة له حول الموضوع؟

ـ سأوجّه رسالة صغيرة، من سان باولو.

ـ في هذه الحال، سأترك البطاقة. غداً بالذات.

حسب النصيحة، أودع في باب المبنى بطاقة الزيارة، مضيفاً إلى الإسم المطبوع، لو[2] فالدوميرو موريرا، بضع كلمات بنفس القبضة: «تحية للأكاديمي ليزاندرو لايتي». انتظر أن يكافىء التصرّف الرقيق، ممتنعاً، متراجعاً عن الاقتراع بورقة بيضاء. الإجماع سيتوّج اختياره، واضعاً إيّاه بين اثنين أو ثلاثة من الممتازين الذين عن طريق القاعدة لم يضيعوا فرصة ليؤدّوا عملاً ذا ميزة نادرة جداً.

---

(١) يوجه الكلام في البرازيل عادة بصيغة الضمير «هو» بدلاً من المخاطب «أنت» لياقة.
(٢) المقطع الأول من كلمة «لواء».

اجتهاد

اجتهاد! كلمة على مزاج اللواء موريرا، فهو قد استعملها للدلالة على الهياج المخيّم على البيت في غراجاوو في يوم الخميس ذاك الأخير من شهر كانون الثاني من العام ١٩٤١، موعد جلسة الأكاديمية البرازيلية للآداب، التي ستبدأ عند الساعة السادسة عشرة، التي فيها يجب أن ينتخب التسعة والثلاثون خالداً خلفاً للشاعر أنطونيو برونو، المتوفى منذ أكثر من أربعة شهور بقليل. يحدث في انتخابات متنافس عليها بشكل متطرّف، أن أيّ مرشح لم يحصل على العدد القانوني الذي لا غنى عنه. وفي حال المرشح الوحيد لم يحدث أبداً.

اجتهاد! الدونا كونسيبسون ما كانت تعرف الحدّ، لكنها عند سماع تفسير اللغوي الذي يكاد أن يصير خالداً، توافق: إن عملاً شاقاً مثله ما واجهته قط في حياتها كرفيقة[1] لزوجة أخيها ولأخيها وكزوجة. عملٌ شاقٌ جهنمي، مسؤولية رهيبة. تمشي في البيت، حشرة مترنّحة ـ تشبهين حشرة مترنّحة، علّق اللواء عند رؤيته لها مغتمّة ـ مصدّرة أوامر، قائمة بمهمات. تظهر في حجرة المؤونة والحاجيات حيث سيسيليا وسابينسا يقشّران فاكهة لإعداد البونشي[2]، أناناس، تفاح، إجاص، برتقال، عنب، وحين يكونان وحدهما، يتبادلان القبلات ـ نهار سعيد!

ـ هل تريان أنه سيأتي أكثر من خمسين شخصاً؟

ـ خمسون؟ دعي الأمر علينا يا دونا سيسون.

سابينسا كان يحب التصغيرات والاختصارات، علامات الاحترام والحميمة:

---

(١) SERVA : عبدة.

(٢) PONCHE : مشروب مسكر حار.

ـ أنتِ يا سيدتي[1] لم تأخذي في حسابك بعد أهمية الأكاديمية البرازيلية. إنه يشكل جزءاً من المؤسسة الشهيرة، هو التكريس الأقصى الذي يتطلّع إليه رجل آداب. احسبي مائة شخص، من هنا إلى ما فوق.

ـ الوسيلة هي زيادة التوصية من قطع الدجاج[2] والفطائر[3] من مخبز السيد آنتيرو. نطلب أكثر من عشرين قطعة من كل منهما. كلميه بالهاتف يا سيسيليا.

ـ دعيني أقوم بهذا العبء يا دونا سيسون.

شخصٌ نافعٌ جداً السيد سابينسا هذا. فإذا كان على سيسيليا أن تتصل بشخص ما ـ حتى لو أرادت العودة إلى الزوج، فهو لن يقبل ولديه الحق ـ ليكن مثل كـلاوديونور، ليس هو ولداً، يجب أن يكون في حوالي الأربعين. يكسب مالاً كافياً كصحافي ومدرِّس، منفصل عن امرأته التي تركته إلى آخر، محب قديم، بعد ثلاثة أشهر من الزواج؛ سيسيليا انتظرت على الأقل لتكمل سنة. من دون أن يحسب أنه أربعيني فقط، السيد كلاوديونور ينتسب إلى أكاديمية. أكاديمية من الدرجة الثانية، في قول موريرا؛ لكن هذا يقوله الآن. قبل أن يستقبل بعثة الخالدين، كان يريد الدخول في الأخرى، فيسير وراء السيد سابينسا، مخبولاً.

لكنْ ليست هي ساعة التفكير في مصير سيسيليا ولا في صفات السيد كلاوديونور. سيكون الأمر كما يحدده الله! يعود سابينسا من عند الهاتف، المهمة نافذة. تهتف الدونا كونسيبسون، قبل أن تغادر إلى المقر العام في المطبخ:

ـ يا لها من نفقات! تُرى هل تعوَّض؟

في المطبخ قلوا أكواماً من أقراص المعجنات مع سمك القد وفطائر اللحم. ثلاث مساعدات، على قاعدة المكافآت الجزيلة، ابنتا عم وزوجة أخٍ قدمن لمساعدة إيونيسي، المعوزة المخلصة في خدمة أسرة موريرا منذ أوقات لا يمكن تذكرها.

---

(١) في الأصل الكلام موجه بصيغة الضمير «هو» لياقة.

(٢) COXINHA: لحم دجاج معد قطعاً مقلية.

(٣) IMPADA : نوع من الفطائر محشو بالقريدس.

إحداهن، اختصاصية في الحلوى، تحمّلت عبء إعداد الكيندين[1] خيوط البيض[2]، عينيْ الحماة[3]، الحفنات الطيّبة[4]، البريغادير[5]. الدونا كونسييسون عند مرورها، تمضغ واحدة من الكيندين، إنها لذيذة. في الفرن قطعة هائلة من لحم الخنزير المقدد[6]. والأطعمة الجاهزة هي: ديك الحبش وفخذ الخنزير. السيد آرليندو يعود بالمشروبات. نادلٌ أوصى عليه أحد الجيران ممن يرتادون الحفلات كثيراً، وصل بعد الغداء مباشرة، يتقاضى غالياً لكنه كفوء ـ الدونا كونسييسون لا تدري إذا كان يجب أن تحسم أم لا من الدفع، الكأس البلّورية التي كسرها هو عند غسله الأكواب. خسارة مادية وعاطفية؛ الكأس هدية الزواج، كانت تشكل جزءاً من دزينة باتت غير مكتملة. إضافة إلى البونتشي، المرطبات، الجعة ـ برميلان من الجعة المضغوطة[7] من الحجم الصغير ـ ثلاث زجاجات من الويسكي الإسكتلندي واثنتان من الكونياك الفرنسي، تكلّف مبالغ مرعبة! الحاحات سيسيليا، التي تقف على عادات الأكاديميين:

ـ الويسكي والكونياك لا يمكن أن ينقصا.

ما كانا ينقصان في غارسونيرة[8] رودريغو، أجنبيان.

ـ ولا شيء من الويسكي الوطني وكونياك القطران...

تضع الدونا كونسييسون اليد على رأسها، لكن ما العمل؟ فالحساب في المصرف حيث التوفيرات المتراكمة مع مضي السنين كانت تدرّ فوائد، عانى فجوة جدية.

---

(1) QUINDIM: حلوى معدة من الحليب وصفار البيض وجوز الهند والسكر.

(2) نوع من الحلوى.

(3) سكر مجمد مع مواد أخرى.

(4) BOM - BOCADO: حلوى معدة من السكر والبيض وحليب جوز الهند.

(5) BRIGADEIRO: نوع من الحلوى.

(6) PRESUNTO.

(7) CHOPE.

(8) GARÇONIERE: شقة خاصة باللقاءات الغرامية.

سيسيليا تصرّ على أن الثياب لليلة ما بعد الانتخاب، حين يستقبلون التهاني، ولليلة التنصيب الكبرى، ومن هنا إلى ثلاثة أشهر، تكون مفصّلة من قبل الدونا دينا آمادو. وهي مستعلمة جيداً حول أطر الأكاديمية، اختارتها سيسيليا لعلمها بها خيّاطة سيدات عديد من الأكاديميين. أربعة فساتين، قبعتان، كومة من المال، فالدونا دينا كانت تنتزع جلد الزبونات.

تترك الدونا كونسييسون المطبخ، تعطي توجيهات إلى كوزمي، الجندي القديم الملحق بخدمة اللواء، المنسحب من الأنشطة العسكرية، ممارساً مهنة أقل نبلاً إنما أفضل جزاءً، مهنة بائع أوراق قمار البيشو. طُلب بإلحاح منذ ما قبل العشية، للخدمات الثقيلة: حمل الأمتعة، جلب موائد وكراسي مستعارة من الجيران، طلاء البيت بالشمع[1].

ـ أريد هذه القاعة تلمع ولا كمرآة.

ليس بالوسع نسيان دواء موريرا. ففي الزيارة الشهرية للطبيب الاختصاصي في أمراض القلب، تثبّت الطبيب من أن الضغط ارتفع أيضاً أكثر، مضيفاً عقاراً إلى العقاقير الأخرى. الزوج المتظاهر بالهدوء هو متوتر، فهي تعرفه ـ استبدادي لكنه ليس فظاً، على الأقل مع الزوجة والإبنة. في ذلك اليوم دعاها بالحشرة المترنّحة، علامة التوتر.

تظهر الدونا كونسييسون في حجرة المؤونة والحاجيات، على حين بغتة، وكادت أن تضبط سيسيليا وسابينسا بحالة تلبّس وهما منغلقان على نفسيهما في امتصاص للشفتين في نهار الحفلة:

ـ سيسيليا، اتركي هذه الفاكهة، سلّميها للسيد آرليندو، إمضي وساعدي إيونيسي في المطبخ لكي تستطيع الفتيات إعداد الحجرات. وأنت أيها السيد كلاوديونور، إذهب وتحادث مع موريرا لكي تروّح عنه قليلاً.

يطلق سابينسا نظرة عاشقة إلى سيسيليا، وسيسا تعيدها إلى كلوكلو جواباً بالوعود. الدونا كونسييسون تتنهّد: حبذا لو شاء الله أن يكون الأمر دائماً، ينتهيان بالاقتران،

---

(١) المقصود طلاء أرضية البيت بالشمع.

فلا ينتهي الأمر فجأة كما حدث مع السابقين؛ أوّاه من رأس سيسيليا الهوائية!

غير قادر على البقاء في أريكة الاسترخاء، يعبر المرشح الفناء من جانب إلى جانب، في خطى عسكرية. وسابينسا المتطوّع الرديء في الجيش يخطىء الخطى لكنه مع هذا يرافق الصديق، ومَنْ يدري، حماه في المستقبل. يتفقان مرة أخرى على التفاصيل من أجل ساعة الانتخاب المهيبة. يبقى سابينسا في البهو الذي يفصل قاعة الشاي عن قاعة الاجتماعات، ملازماً جهاز الهاتف الموضوع فوق ترابيزة. حالما ينتهي التصويت، سيتلقى اتصالاً هاتفياً بالنتيجة النهائية: صوت ما على ورقة بيضاء أو تكريس إجماع؟ ربما في فارق بطاقة الزيارة لا يلجأ ليزاندرو لايتي إلى الاقتراع بورقة بيضاء. في هذه الحال سيكون اللواء على استعداد «لتناسي إهانات الماضي ومد يده اليمنى لزميل الخلود» ـ حسب ما كشف لسابينسا الطيب.

الدونا كونسيبسون، والكوب وحبة الدواء في يدها، تقترب:

ـ الدواء يا موريرا. ألا ترى أنه من الواجب أن تأخذ اليوم حبتين من الدواء بدلاً من واحدة؟

ـ لا أرى لماذا، فأنا أشعر بأني على ما يرام تماماً.

يبتلع الدواء ويشرب جرعة ماء:

ـ أريد كل شيء جاهزاً وفي شكل متكامل لساعة وصول الأكاديميين.

يترك ابتسامة تقطع رصانة وجهه، يقرص وجنة الزوجة، وهو تصرّف نادر:

ـ غداً سأذهب إلى بيتـا، الخيّاط الرسمي للأكاديمية، ليأخذ القياسات من أجل الرداء.

تنصيب اللواء سيكلّفه بذلة جديدة، يفكر كلاوديونور سابينسا، لكنه سيكون مالاً موظفاً بشكل حسن: يد سيسيليا، جائزة جوزيه فيريسيّمو، في المستقبل، مَنْ يدري . . .

مع حميه هناك في الداخل يعمل من أجله . . . الأحلام تسكن المنزل في غراجاوو حيث الدونا كونسيبسون تنفعل في وسطه إزاء الاندفاع المثير للفزع.

المرشح لوزير

ريناتو موللر فيرا، سفير البرازيل في المكسيك، وصل إلى الريو في العطلة، عشية الانتخاب بالضبط. أكاديمي منذ خمس سنوات؛ اختير في ربع اقتراع من انتخاب صعب، فللمرة الأولى كانت لديه الفرصة في التصويت بحضوره الشخصي. قدومه مرتين إلى البرازيل لم يتطابقا مع الانتخابين المنجَزين، فاقترع بالمراسلة. وأيضاً للمركز الشاغر لبرونو أرسل رسالة إلى المرشح المتوفى سامبايو بيريرا حالما تلقى برقيته الرحبة المشبعة بالحرارة.

لم يكن يعرف العقيد إلاّ بالإسم. لم يره أبداً ولم يقرأ أيّاً من الدراسات السياسية الجدلية من تأليفه. لكنه إذا أسرع في بعث تمنياته وتهانيه فلأن المعني شخصية نافذة في الحكومة، ذات مكانة معروفة في الأوساط العسكرية. بوسعه أن يكون حاسماً من أجل طموحات موللر فيرا الذي كان من بين الخلفاء المحتملين لأوزفالدو آرانيا في الوزارة، في حال حُددت الاستقالة المعلَنة. إن واقعة كونه خدم في ألمانيا بعد أن استولى هتلر على الحكم، تبدو له أوراق اعتماد ذات ثقل؟ ترك جواً طيباً لدى السلطات الخارجية للبرازيل تميل نحو حلف مع المحور.

شاعر وروائي؛ شعرٌ محكم، قصة خيالية ذات أسرار، مع نصف دزينة من المجلّـدات المطبوعة، مقدّر كثيراً من نقّاد معيّنين، إذ في وسط التقريظ، ذكروا دوستويفسكي، جويس وكافكا لتفسير الكآبة والوحدة الحاضرتين في أعماله؛ مقـروء قليلاً، معطى النخبوية المتطرّفة والموضوعية الحميمة في رواياته.. لم تكن البرازيل موجودة، في شعره حتى ولا أكثر العباقرة يستشفّون حباً. ليس مقروءاً إلاّ من النقّاد الذين مجدّوه كثيراً، كان يؤكد ر. فيغيريدو جونيور (ونمّامون مختلفون آخرون)، نقّاد،

بالأحرى، حسب الكاتب المسرحي الممتعض، لم يقرأوا جويس وكافكا، بقدر ما لم يقلّبوا صفحات ترجمات دوستويفسكي. الحقيقة هي أنه، سواء أكان مقروءاً أم لا، خُلق حول ريناتو موللر فيبرا نسيمٌ من العبقرية؛ فرواياته وقصائده كانت تعكس، في رأي أولئك، نظريي الأدب، العالم الحالي المشحون بالشجن، العنف الطليق من عقاله، ليس عنف الحرب ـ «جراحة كونية ضرورية» ـ إنما العنف الداخلي للكائن الإنساني.

تلقّى أيضاً برقية اللواء موريرا، وهي قصيرة؛ فاللواء كان يدفع من ماله الغالي، والعقيد كان يستعمل اعتماد محاربة الشيوعية. أجاب شاكراً الاتصال به ومبلغاً بأنه ملتزم مع سامبايو بيريرا. بعد موت العقيد القادر، أظهر أنه أكثر لطفاً إزاء تسلّم رسالة المرشح الوحيد الآن، لافتاً انتباهه إلى المناسبة الجديدة وطالباً إرسال صوته. أعلمه بأنه سيكون في البرازيل في لحظة الانتخاب وسيكون مسروراً في الاقتراع شخصياً باسم اللواء البارز. لم يقل كم تحسّر على موت العقيد القوي. كان سيدفع التأييد مع الفوائد، فضائل المرشح الوحيد تُقتصر على النجوم في البزة. على كل حال، حتى ولو أنه معارض، فاللواء هو دائماً لواء.

وصل مستعداً لانتهاز العطلات من أجل الوقوف على الحقيقة حيال استقالة آرانيا ودعم الجهد حول إسمه بالذات. كان يعتمد على أصدقاء في ديوان رئيس الحكومة. قضى الصباح وبدء المساء في إيتاماراتي، حيث خرج منه رأساً إلى الأكاديمية. استُقبل بالعناق وكلمات الترحيب بالوصول، وفي السكرتارية تقاضى شيكاً متطابقاً مع المكافآت المتأخّرة ـ حتى بلا حضور كان يتسلّمها في إكرام من الرئيس ـ وفي قاعة الشاي وُجد مَنْ ناداه بالوزير. ليزاندرو لايتي لم يكتفِ بالعناق والترحيب، فجّر الزميل إلى فراغ إحدى النوافذ:

ـ قبل أن يكلموك في اسم آخر، أريد أن أبلغك بأن عزيزنا راوول ليميرا سيكون مرشحاً...

ـ رئيس الجامعة؟

ـ هو بنفسه. لكنْ يا له من رئيس جامعة، صديق حميم للرجل. لَمْ إحدى قدميه في الركاب ليغدو وزيراً.

ـ لكنْ مرشح لأي مركز شاغر؟ مات أحد ما من أمس الأول إلى يوم أمس، فيما كنت أنا في الطائرة؟

ـ لمركز أنطونيو برونو.

ـ لكن هذا سيُملأ اليوم.

ـ هذا حسب. . .

ـ حسب ماذا؟

ـ حسب صوتك، على سبيل المثال، بالوسع أن يكون حاسماً. إني مخوَّل من راوول في التحدّث إليك. وهو سيعرف كيف يغدو ممتنّاً.

ـ لست فاهماً أي شيء. تكلم بوضوح.

ـ هيّا بنا إلى المكتبة. فهناك سنكون براحتنا أكثر.

الطبيعة والانسانية

عند نزوله من السيارة أمـام بوّابة الـPETIT TRIANON، قادماً من بيتروبوليس للانتخاب، وجد رودريغو إيناسيو فيليو نفسه مضغوطاً بين ذراعيْ إيفاندرو نونيس دوس سانتوس العظميّتين:

ـ تتمتع سعيداً بلذائذ الجبل فيما نحن نختنق في هذا الفرن. .

مضيا إلى السكرتارية وهما متأبّطان الذراعين. يطلب رودريغو معلومات حول مسار الأحداث:

ـ إذن، كيف حال حرب العصابات، EL PASSIONARIO? إن مَنْ استنبط اللقب كان العرّاب بورتيلا، ذلك المستمتع بالحياة.

ـ حرب العصابات ستقوم بمحاولتها الأخيرة بعد وقت قصير.

يتوقف إيفاندرو في وسط الممر، ينتزع النظّارة بلا ماسكين، ضاحكاً:

ـ العدو يتراجع، هيّا نقوم بتصفيته.

أسرّ رودريغو:

ـ الطبيعة الإنسانية سافلة جداً، يا سيد إيفاندرو.

ـ أترى ذلك؟

ـ كنت أنا من اكتشف اللواء حينما كنت أنت وبورتيلا تسعيان وراء شخص يحوز على الشروط اللازمة. كنت من بين الوفد الذي ذهب إلى بيته ليدعوه إلى ترشيح نفسه. . .

ـ أنا أيضاً، آفرانيو أجبرني.
ـ قرأت كتاباً أرسله إليّ. . .
ـ لم أبلغ هذا الحد.
ـ . . . كانت لديّ علاقة غرامية مع الابنة، فتاة فاجرة، تافهة قليلاً. . . أخيراً، أنا صديق العائلة، أكاد أكون قريباً. مع كل هذا، اقترع له فقط لأكون على ما يرام مع ضميري، وما هو أسوأ، إني أهتف من أجل نصركم، ضد الرجل المسكين. ليس ثمة شك، الطبيعة الإنسانية هي تافهة جداً.

ـ رجل مسكين؟ ها قد صار يصدر أوامر ويبطل مفعول أوامر ويقول إن برونو كان حيواناً مريضاً. تخيّل لو توصّل لأن يكون منتخباً. . . أنظر، قد يشكل صوتك نقصاً لنا. وإذا فكرت بمنطق، ستقترع أنت ضد ضميرك وليس بسببه. فكر بتعقّل. . .

يعاود رودريغو السير إلى السكرتارية:

ـ هيهات!
ـ فاجرة وتافهة! امض إلى هناك، ادفع ثمن المجون. لكنْ إفعل معروفاً، لا تلتزم من الآن إلى أربعة أشهر؛ فمرشحنا هو فيليسيانو. لقد علمت، أليس كذلك؟
ـ سأصوّت له بكل سرور، إذا أنتم كسبتم.
ـ أما زلت تشك؟ معي ههنا، لا أحد يبدل البزة بالرداء. لا البزة ولا قفطان الكاهن.
ـ أنت آخر مضاد لرجال الكنيسة في العالم. . .

ـ لست مضاداً لرجال الكنيسة، أنا مادي. لديّ أصدقاء كثيرون بين القسس، إن ما لا أريده هو أن يأتوا للوعظ بالدين هنا.
ـ . . . وآخر مضاد للعسكريين. . .

ـ أنا اختصاصي في القانون المدني، هذا نعم. لديّ أصدقاء أيضاً بين العسكريين، لكنني لا أقبل أن يأتوا ويدسّوا أنفسهم هنا لكي يضعوا الناس في إطار. . . مقعد للجيش، أين شوهد مثل هذا الأمر؟

صندوق الاقتراع

كما هي العادة، اتخذ العميد فرانسيلينو آلميدا وضعاً أمام المصوّرين، اليد ممدودة إلى صندوق الاقتراع في تصرّف مَنْ هو يودع الصوت. بعد انسحاب مندوبي الصحافة، أُغلقت أبواب قاعة الاجتماع.

مرتدياً بأناقة لورد إنكليزي، أسود داكناً، الشعر الأبيض، الموظف المختص بجلب وأخذ الأوراق يحضر الصندوق إلى الرئيس، أول مَنْ يدلي بصوته. ينزل إلى هيئة التحكيم متبوعاً بأعضاء المكتب[1].

عدد الأكاديميين الحضور ضئيل في تلك الجلسة الأخيرة قبل الأعياد. فالأغلبية هربت من الحرّ إلى المدن الجبلية. الموظف الهرم المولج بالأوراق يمضي من كنبة إلى كنبة، فكل خالد يودع في صندوق الاقتراع قصاصة الورق. أعلم الرئيس، قبل أن يبدأ الجمع، بالرسائل المتلقاة من الغيّاب، مرفقة بأصوات في مغلّفات مغلقة.

سُلّمت صندوقة الاقتراع عند عودتها إلى المائدة وأُفرغت. عدُّ الأصوات سيبدأ، وحالما ينتهي، ستوضع الأوراق في الصندوقة ثانية والموظف الكهل المولج بالأوراق يجعلها متشرّبة بالكحول قبل أن يوقد الثقاب ليضرم النار التي ستلتهمها. وهكذا سيبقى سرّ الأصوات مدفوناً في الرماد.

في قاعة الشاي يجري صحافيون ومصوّرون تصفية على ما تبقى من المائدة العامرة. في الانتخابات المتنافَس عليها، يفيض أناس في القاعات، في المكتبة، في البهو، تابعون لترشيحات مختلفة، ضوضاء، أما انتخاب مع مرشح وحيد ليس فيه

---

(١) MESA : الجهاز المسؤول في المؤسسة والمؤلف من الرئيس والسكرتيرين.

معركة ولا مفاجأة، فليس فيه ظرافة. ومع أن الأمر كهذا، حضر بعض الفضوليين، بينهم تاجر الكتب الكهل كارلوس ريبيرو، ينتظرون إغلاق الجلسة لكي يقوموا بالانتقال إلى بيت الأكاديمي المنتخب حديثاً، من أجل التهاني والأطعمة والمشروبات. لصق الترابيزة حيث جهاز الهاتف، كلاوديونور سابينسا، الواقف، ينتظر لحظة إبلاغ اللواء فالدوميرو موريرا الفوز بالخلود.

المخابرة الهاتفية

اللواء فالدوميرو موريرا الجالس على الكنبة، إلى جانب جهاز الهاتف، بانتظار مناداة الصديق كلاوديونور سابينسا الذي سيبلغه الفوز بالخلود. رداء الاحتفالات، الوجه وقور، يظهر رصانة مهيبة. الإبنة إلى جانبه، مستخفّة لكنها مكرّسة لأبيها. الدونا كونسييسون تذهب وتأتي، في التدابير الأخيرة. الاثنتان في أناقة.

وصل بعض الزوّار ليتلقوا النبأ الفأل برفقة المرشح، منتشرين في القاعة؛ جيران، أصدقاء مقرّبون أكثر من غيرهم، بعض رفاق الثكنة، ضباط خدم وامعه. أبدوا إعجابهم بالموائد المَعَدَّة جيداً، صواني الأطعمة المالحة والحلوى وأطباقها، أطباق لحم الخنزير المقدَّد، فخذ الخنزير وديك الحبش. الأصدقاء الحميمون يعرفون خصائص الطهي لإيونيسي. في الفناء السيد آرليندو امتطى البار؛ براميل الجعة زجاجات شراب البونتشي ملأى، المرطبات وزجاجات الويسكي والكونياك مخبأة ـ محتفظٌ بها للخالدين وأصحاب السعادة الآخرين.

لم ينصرم الوقت أبداً أكثر بطءاً، اللواء ينتظر، الحضور يتحدثون بصوت خافت، من آن لآخر، رنين ضحكة. بدت الدونا كونسييسون عند الباب، قادمة من المطبخ، تجلب صينية أخيرة.

ـ أما زال هناك شيء؟

في هذه اللحظة بالضبط يرنّ جرس الهاتف، اللواء يمدّ يده سيسيليا ترفع ابتسامة، الدونا كونسييسون واقفة.

ـ سابينسا؟ أنا هو، أجل، إذن؟ إجماع؟

يصغي، تتسع العينان، يفتح فمه، الصوت مخنوق:

ـ ماذا؟

الدم يعلو الوجه، شريحة[1] بين الشفتين، اللواء يترك الجهاز والجسد ينحني إلى الأمام على الكرسي. تترك الدونا كونسيبيسون الصينية تسقط أرضاً، وأقراص المعجّنات بسمك القد تتدحرج في القاعة، تركض إلى الزوج تتأبطه.

أصوات بعيدة ومكرّرة، تكاد تكون غير مسموعة، في الهاتف: آلوا آلوا تلبي سيسيليا، الصوت متلاشٍ:

ـ تعال بسرعة، إمرٌ ألمٌ بأبي...

مات في الساعة المغلوطة، قالت الدونا كونسيبيسون بعد زمن. ترك الساعة الصحيحة تمرّ، ساعة المخابرة الهاتفية الأخرى حين علم أن مرشحاً وحيداً اعتبر نفسه منتخباً.

---

(١) المقصود شريحة لحم، والمؤلف يعني اللسان.

النبأ

يودع آفرانيو بورتيلا القبعة والعصا، الخادمة في انتظاره مع رسالة:

ـ الدكتور إيرنامو يطلب أن يتصل به السيد هاتفياً على الفور، إنه موضوع شديد الاستعجال.

يسير إلى الديوان. المعلّم آفرانيو بورتيلا، يبتسم للدونا روزارينيو التي قدمت للقائه، قلقة للنتيجة، وفيما هو ينتظر ردّ الرئيس، يقبّل الزوجة ويعدها بأن يرضي فضولها.

ـ سوف أروي لكِ كل شيء.

يردّ على الصوت من الجانب الآخر من الخط:

ـ نعم يا إيرمانو، تستطيع التكلم، إني مصغٍ.
يصغي، اليد مدعومة بكتف الدونا روزارينيو. اليد تتشنّج، تفلت صرخةً:

ـ يا له من أمر!

يقطع الخط، يبقى جامداً، في صمت. تتأبط ذراعه:
ـ ما الذي حصل يا آفرانيو؟
ـ قتلنا اللواء!

الثاني

يدخل الجد البيت، حفيدٌ إلى كل جانب.

ـ أخبر يا جدّي.

ـ بسرعة، يا حبيبي، إننا مجنونان لكي نعرف.

يجلس إيفاندرو نونيس دوس سانتوس على مقعده المفضّل، ويشعل لفافة. فيما هو يتكلم، يلعب بالنظّارة بلا ماسكين:

ـ حصل على ستة عشر صوتاً. بقي أربعة للحصول على العدد القانوني. اثنا عشر امتنعوا، أحد عشر اقترعوا بأوراق بيضاء. انتهت هذه القصة عن المقعد الأسير في الأكاديمية. برونو سيكون له الخلف الذي يستحق، فيليسيانو.

ـ ألا ترى أن الشعراء يستطيعون الحصول على مقعد أسير، يا حبيبي؟ ـ تتذكر إيزابيل، القارئة النهمة للشعر.

جرس الهاتف. بيدرو يردّ:

ـ رئيسكم يا جدّي. أرى أنه يرغب في أن يهنئك، إنه شديد الانفعال.

يتناول إيفاندرو الهاتف:

ـ نحن... ـ لا يكمل الجملة، يظل مستمعاً:

ـ لا تقل لي. أمرٌ مؤسف، بلا شك. محزن، موافق. لكنْ في النهاية الحرب هي حرب.

يضع الجهاز، يبلغ حفيديه بما حصل للواء:

ـ عند معرفته النبأ، سقط مصعوقاً. موت فجائي.

ـ نوبة؟

ـ يمكن أن تسمّيها كهذه، إذا شئتِ يا إيزابيل. بالنسبة إليّ، كان موتاً قتلاً.

ـ الثاني، يا جدّي. لا تنسَ العقيد. . . ـ يتذكر بيدرو ـ من أجل مشادة، كانت مشادة وكفى يا جدّي.

عجوزان أديبان

سيدان عجوزان أديبان ذوا شهرة، ديموقراطيان، أحدهما مجرّد ليبرالي، هو آفرانيو بورتيلا، والآخرذو اتجاهات فوضوية، هو إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، شربا قليلاً من الخمرة في كولومبو، في نهاية فترة ما بعد الظهر، في اليوم التالي للانتخاب. نظرة المعلّم آفرانيو ترتفع إلى إفريز نافذة مشغل مدام بيك، حيث في أوقات منصرمة، كانت روزا تغازل أنطونيو برونو. لم تعد تشبك ذراعيها في الشرفة، فلقد دشّنت مشغلها الخاص، طابقاً في شارع روزاريو، وأرسلت بطاقة عارضة الخدمات على الدونا روزارينيو.

ـ شرعت في كتابة رواية، أيها الإشبين. بعد غد سأصعد إلى منزلي الريفي في تيرزوبوليس، سوف أضع الورقة على الآلة[1].

ـ لقد حان الوقت.

ـ ظننت أن «المرأة في المرآة» كانت الأخيرة، لقد فقدت مذاقها بمكائد هؤلاء الناس الذين يعيشون وفي الصالونات في الغارسونيرات، ولينسويز[2] باتت إلى الوراء كثيراً، ليست خليقة بأن تخلق مالوكينيا[3] أخرى.

ـ لكنني قرأت قصة قصيرة كهذه، ليس منذ وقت بعيد... حتى أن كولومبو دخلت في القصة؛ أذكر جيداً.

---

(١) المقصود أنه سيبدأ الطبع على الآلة الكاتبة.

(٢) إحدى شخصيات الرواية التي يتكلم عنها المؤلف.

(٣) بطلة الرواية التي يتكلم عنها المؤلف.

شعر المعلّم آفرانيو بالخيلاء وهو يسمع إيفاندرو يتكلم عن القصة القصيرة، فما كان يعلم أن الإشبين قد قرأها ويحتفظ في الذاكرة بتفاصيل:

- «شاي الساعة الخامسة»، منشورة منذ أربع سنوات. مستوحاة من حالة كانت لبرونو مع خيّاطة صغيرة في مشغل هناك أمامك، في الطابق الثاني من ذلك المبنى. إذ أنني سأعود إليها...

- إلى مَنْ، الخيّاطة؟

- إليها، أجل، الآن أعرفها جيداً ، في القصة زيّفت شخصيتها بالكامل. الشخصيات ستكون هي وثلاث عشيقات أخريات لبرونو. جميعهن الأربع كنَّ في ليلة السهر على جثمانه. بالأحرى، الرواية تبدأ في ليلة السهر على الجثمان.

كانت معركتنا قد بدأت هناك أيضاً، مع دخول سامبايو بيريرا، أتذكر؟ ضرب قدميه ببعضهما تحية للمتوفى، وصدرت الصورة في الصحف كيلا يشكك أحد ما.

يمسك إيفاندرو بالكأس:

- أي شيطان سأفعل الآن؟ أنت لديك الرواية التي ستشغل وقتك في تيريزوبوليس. سأشعر بفقدان حرب العصابات.

- ألن تبدأ في مذكراتك؟

- بوسع حرب العصابات أن تشكل فصلاً جيداً... دفن اللواء كان اليوم صباحاً، أما كان كذلك؟ -يرفع الكأس ويفرغها.

وأيضاً آفرانيو بورتيلا يشرب آخر جرعة، قبل أن يجيب. الكأسان مرفوعتان، تبدوان أنهما تقترحان نخباً.

- كان، نعم، دفنوه عند الحادية عشرة، حضر رودريغو الجنازة، طافوا معه.

ينادي النادل، يطلب الحساب. يتطلّع إلى الإشبين إيفاندرو نونيس دوس سانتوس، وعلى شفتيه تلك الابتسامة ذات الخبث. أنهى، الصوت جنائزي وودود:

- قاتل!

سارا، العجوزان الأديبان، في خطى متزنة في الشارع، راضيين بالحياة. اتجها إلى المكتبة، من أجل الإدمان على تصفّح مجلّدات، معرفة آخر المستجدات الخارجة من المطابع، التعليق على الانجازات والأعمال الخائبة، الحصول من تحت منصّة البيع على كتب أجنبية محظور بيعها من قبل الديكتاتورية.

أخلاق الخرافة

الأخلاق؟ أنظر: في كل ناحية، في العالم الخارجي، إنها الظلمات مجدداً، الحرب ضد الشعب، التسلّط. لكنْ، كما يتأكد في هذه الخرافة، من الممكن دائماً زرع بذرة، إضاءة أمل.

(تمت)

بيدرا دوسال، باهيّا، كانون الثاني/ حزيران ١٩٧٩

برغم جنوح هذه الرواية إلى ما يتعدّى الواقعية، والمؤلف نفسه يدعوها حكاية خرافية، فإن الواقع المتخيّل لحمتها الأساسية. فعشنا مرة أخرى أجواء الكابوس النازي ـ الفاشي الذي كان مخيّماً على العالم قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، فإذا الوحشية والعسف عنوانان رهيبان لقدرة الأفكار العنصرية والعرقية والتفوّقية على اغتيال البشر والقضاء على الحضارة.

لقد عالج آمادو أثر النازية في البرازيل مستوحياً مما حدث لفرنسا على يدها ليبيّن شمولية هذا الخطر وعدم اقتصاره على التخوم الأوروبية، كعدوى تنتشر مع الريح من البلد المنشأ لتعمّ العالم في ما يشبه العاصفة الهوجاء. وهنا يربط الكاتب الماضي بالحاضر ليبلغ مشارف المستقبل. فما حدث في التاريخ العالمي نرى أنماطاً بشعة منه الآن في كل مكان، خصوصاً في العالم الثالث حيث العسف والبطش من خلال الأنظمة الديكتاتورية يبرزان على ركام الحرية والنزعة الانسانية في كافة المجالات وأخصّها المجال الفكري الثقافي الذي يقيَّد في أغلال الوطنية تارة وغير الوطنية طوراً، وكأن الدولة الجديدة التي تكلمت عليها الرواية مبثوثة في معظم أفكار هذا العالم الثالث.